أساليب المنافقين
في محاربة المسلمين في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

تأليف الشيخ الدكتور

عبد الستار بن جبار بن شكر بن محمود بن خلف الجنابي

أستاذ السيرة النبوية (كلية الآداب /الجامعة الإسلامية)

(الجامعة العراقية حاليًا)

١٤٣٤هـ -٢٠١٣م

الإهداء

✍ إلى من لهم الفضل بعد الله تعالى في وجودي وتربيتي وتعليمي إلى والدَيَّ الكريمين أهديهما ثمرة من ثمارغراسهما ، داعياً الله تعالى بهذا الدعاء : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾

✍ إلى شريكة حياتي وأم أبنائي .

✍ إلى فلذات كبدي .

✍ إلى كل من علمني وأرشدني إلى الخير .

✍ إلى الدعاة والمجاهدين في سبيل الله .

✍ إلى الغيورين على الأمة الإسلامية .

أهدي هذا الجهد المتواضع .
وأدعوه تعالى أن يُخْلِص لنا النّيّة ، ويُعْظِمْ لنا الأجر ، ويجعله في موازين حسناتنا .

f

F

إنَّ الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[3] .

أما بعدُ :

فإن أخطر المصائب التي حلت بالمسلمين في تاريخهم الغابر ، وواقعهم المعاصر إنما حلت عن طريق النفاق والمنافقين ، وبوسائل الكيد التي قام بها ، أو كان مطية لها ، المتقنعون بأقنعة الإسلام زورًا وبهتانًا ، وهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٠٢) .

(٢) سورة النساء ،الآية (١) .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان (٧٠ ـ ٧١) .

كافرون به ، أو مرتابون فيه ، يعملون على تهديمه من داخل صفوف المسلمين .

أسباب اختيار الموضوع :

- لذلك كان من الواجب التحذير من النفاق والمنافقين ، وبيان أساليبهم وصفاتهم وكشف أعمالهم في هدم الإسلام ، وإفساد المسلمين ، وخدمة أعدائهم المجاهرين بعداوتهم ، وتفنيد مخططاتهم المدمرة للعقائد الإيمانية ، والشرائع والأحكام والأخلاق والآداب الإسلامية .

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (**أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**)[١] .

وعن أبي عثمان النهدي [٢] قال : سمعت عمر بن الخطاب ﷺ وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول : "إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم" . قيل : وكيف يكون المنافق العليم؟ قال : عالم اللسان جاهل القلب والعمل [٣] .

---

(١) ينظر : مسند أحمد ، أبو عد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، بيروت ، دار قرطبة ، د.ت ، (٢٢/١) .

(٢) عبد الرحمن بن مل البصري ، أدرك زمن النبي ﷺ ، وارتحل إلى المدينة زمن عمر ﷺ شهد معركة اليرموك ، وكان من علماء التابعين وعبادهم ، مات سنة (١٠٠هـ) أو بعدها بقليل ، ينظر : تذكرة الحفاظ ، الذهبي ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عثمان ، (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، ١٩٥٥م (٦٥/١) .

(٣) ينظر : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، المتقي الهندي ، علي بن حسام الدين

- إن معظم النكبات والفتن الداخلية التي تعرض لها المسلمون خلال تاريخهم الطويل ، كان بسبب الدسائس والمكائد التي تولى المنافقون والمنخدعون بهم كبرها ، فعنهم نشأت معظم الفرق المنحرفة المرتدة عن الإسلام ، وبسببهم احتل الكفار كثيرًا من بلاد المسلمين ، فكم من هزيمة كان المنافقون سببها ، وكم من فتنة أطلق المنافقون شرارتها ، وأوقدوا نارها ، وكم من ضلالة فكرية أو عملية كان المنافقون هم العاملين عليها ، وكم من خيانة لدول المسلمين خانها المنافقون فتمكن بسببها أعداؤهم من النكاية بهم والإضرار الشديد ببلادهم وأموالهم ودينهم ؟
- إن معظم الذين ساروا في ركب الأعداء ، فنقلوا لهم الأخبار ، وفتحوا لهم الأبواب ، في السلم والحرب ، وثبطوا روح الجهاد في سبيل الله ضدهم ، كانوا من صنف المنافقين .
- ويُخطيء كثيرًا من يعتقد أن النفاق قد انتهى منذ آخر عصر الرسول ﷺ فقد أثبتت وقائع التاريخ أن النفاق قد كان أشد كيدًا ، وأكثر مكرًا بعد عصر الرسالة منه في عصرها ، واستطاع المنافقون أن يحققوا من أهدافهم بعد عصر الرسول ﷺ عن طريق النفاق أمورًا ما كانوا يستطيعون أن يحققوا منها شيئًا في عصره ﷺ والسبب في ذلك أن المنافقين كانوا مكشوفين لرسول الله ﷺ بما آتاه الله من بصيرة وكان الوحي الرباني ينزل فاضحًا أعمالهم مع كل حدث من أحداثهم ، لكن المسلمين بعد ذلك لم يستطيعوا أن يكشفوا كلَّ من

المكي ، (ت ٩٧٥هـ) ، تحقيق : صفوة السقا ، بيروت ، دار الرسالة ، ١٩٨٩م ، (٢٦٩/١٠) . الحديث (٢٩٤٠٨) .

دخل في الإسلام نفاقًا أو ارتد عن الإسلام دون أن يعلن ردته ، وبقي بين المسلمين يتظاهر بالإسلام نفاقًا .

فعن حذيفة بن اليمان [١] ﷺ قال : "المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم، وإن هؤلاء أعلنوه"[٢] .

- إن الله تبارك وتعالى حذرنا منهم أشد الحذر ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [٣] أي : إنهم أحق أن يكونوا لكم عدوًا من الكافرين المجاهرين ؛ لأنهم عيون الأعداء على المسلمين ، بل هم عيونهم وألسنتهم. لذلك ذكر الله تعالى المنافقين في ثلاث عشرة آية من سورة البقرة ، في حين لم يذكر الكفار سوى في آيتين فقط. وقد بلغت الآيات الواردة في النفاق والمنافقين أكثر من ثلاثمائة وأربعين آية ، موزعة على عشرين سورةً من سور القرآن الكريم .
- من المؤسف إن كثيرًا من المسلمين لا يشعرون بهذا الخطر العارم . وقد أسف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهذا من قبل ؛ لأن

---

(١) العبسي ، شهد معركة أحد والمشاهد بعدها ، وهو صاحب سر رسول الله ﷺ ، روى عن رسول الله ﷺ الكثير ، وشهد فتوح العراق ، وولاه عمر المدائن ومات بها سنة (٣٦هـ) ، ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر ، (ت ٨٥٢هـ) ، تحقيق : عادل عبد الموجود ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ ، (٣٩/٢) .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد بن محمد (ت ٢٣٥هـ) ، تحقيق : سعيد محمد اللحام ، ط١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٩هـ ، (٢٣٧/٢) ، الحديث (٢٨٨) .

(٣) سورة المنافقون ، من الآية ٤ .

الأمة في عصره نُكبت أيضًا باحتلال التتار بلاد المسلمين ، وبمعونة المنافقين ، فقال : "فإن كثيرًا من المتأخرين ما بقي للمُظْهِرين للإسلام عندهم إلاّ عدْلٌ أو فاسِقٌ ، وأعرضوا عن حُكْمِ المنافقين"(١) .

- إن هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا من الكافرين أولياءً لهم ؛ قد أسلموا أمة الإسلام وأخضعوها للكافرين ، ومكّنوا الكافر المحتل من استلاب الأمة حضاريًا ، واقتصاديًا ، وثقافيًّا ، والتحكُّم فيها سياسيًا . كل ذلك في غيبة الحكم بدين الإسلام حيثُ إنهم هم الذين عملوا -قبل الأعداء- على محاربته ، ومحاربة أهله ؛ بالأصالة عن أنفسهم حينًا ، وبالنيابة عن الأعداء أحيانًا .

- إن النفاق قرين الكفر ؛ إلاّ أنه أكثر ضررًا على الإسلام والمسلمين من الكفر. فالكفر واضحٌ ومميَّزٌ أهلُه ، ومعروفٌ دارُه ؛ لكن النفاق هو الخطر الدّفين ، والعدو اللَّدُود ، والسُّمُّ المدسوس في العسل. فهو الذي يُقلِق ويُخلْخِل الصّفّ ، ويُضعِف البِنْيَةَ ، ويوجب الحذَر، ويحتِّم بذل الجهد لتعرية الباطل وأهله ، وتوعية المسلم ونُصحه ، والتكاتُف من أهل الحق والتوحيد لحماية هذا الدين ، وحرصًا على المسلمين ، وسُخطًا للمنافقين أعداء الدين ، وفضحهم في كل مكان ، ليحذر منهم كل مسلم عاقل غيور على الدين ، محبٍّ لسنة نبيه ﷺ ، وموالٍ لدينه وللمؤمنين ، ومعادٍ ومتبرئٍ من كل منافق فاسقٍ ، خارجٍ عن الدين .

---

(١) ينظر : مجموع الفتاوى ، أبوالعباس أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم الحراني (ت ٧٢٨هـ) ، (ط١، بيروت دار الكتب العلمية ، ١٩٨٩) ، (٢١٢/٧) .

- لما كان خطر المنافقين على دولة الإسلام عظيمًا ، وبلاؤهم على المؤمنين جسيمًا مع خفاء حقيقتهم ، حيث يتسترون بالإيمان ، فيكيدون للمؤمنين من مأمنهم ويغدرون بهم بعدما يظهرون لهم الأخوة والمودة ، فضح الله ﷻ أساليبهم في القرآن في آيات كثيرة ، كشف فيها أسرارهم ، وهتك أستارهم ، وجلاّ أساليبهم ، وأوضح للأمة الإسلامية خطرهم ، حتى تكون منهم على حذر .

أما الكفار المستعلنون بكفرهم ، فإن المؤمنين يعرفونهم ، ويقدرون مدى قوتهم ، فيستعدون لهم الاستعداد الكافي ، وفرق كبير بين عدو يقدم عليك شاهرًا سلاحه ليقاتلك ، وعدو يتظاهر بإخوتك ومحبتك والاشتراك معك في الأهداف ، ثم يغدر بك من جوانب لم تحسب لها حساب ، ولم تعد لها العدة .

- ولما كان وجود هذا الصنف يتكرر كلما كانت للإسلام دولة وهيبة وسلطان ، كان مما يشغل بال كل مسلم غيور على دينه أن يعرف أساليبهم الخبيثة التي يحاربون بها الإسلام والمسلمين ، وان يدرك سبيل الخلاص منها ، حتى يأمن شرهم ، ويؤدي واجبه نحو حماية دينه من كيدهم .

المنهج وخطة البحث

أما المنهج الذي سرت عليه في هذا الكتاب ، فيتمثل في التالي :

أولًا: الرجوع إلى القرآن الكريم إذ هو المصدر الأول في توثيق الأحداث في فصول الرسالة جميعها . فجمعت الآيات التي تحدثت عن النفاق والمنافقين ، واستخرجت منها أساليبهم في محاربة المسلمين ، من خلال الرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة ، والاستفادة من جهود المفسرين ،

واخصها كتب التفسير بالمأثور .

ثانيًا : الرجوع إلى كتب السنة النبوية المطهرة ، والسيرة العطرة ، لجمع الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ التي تخص النفاق والمنافقين ، وتصنيفها مسترشدًا بالصحيحين ، البخاري ومسلم ، وكتب السنن والمسانيد والمعاجم ، ومعتمدًا على كتب شروح السنة النبوية .

ثالثًا : الحرص على إيراد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وأسباب النزول .

رابعًا : التزمت الاستشهاد من السنة بالأحاديث الصحيحة فقط .

خامسًا : تعرضت لبعض الأحكام الفقهية التي تستنبط من الحوادث التي ذكرتها في أساليب المنافقين معتمدًا في ذلك على أقوال الأئمة الأربعة الأعلام ، ومن تبعهم من أهل العلم ، رحمهم الله جميعًا .

سادسًا : ترجمت في الهامش للأعلام الواردة في المتن عند ورودها لأول مرة ، معتمدًا في ذلك على كتب التراجم المشهورة والمعتمدة .

سابعًا : حاولت ربط أساليب المنافقين قديمًا بالواقع المعاصر ، لأن، هذا الحشد الضخم من آيات النفاق والمنافقين في القرآن الكريم وهي أكثر من ثلاثمائة آية موزعة على سور (البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الأنفال ـ التوبة ـ الحج ـ النور ـ العنكبوت ـ الأحزاب ـ محمد ـ الفتح ـ الحديد ـ المجادلة ـ الحشر ـ المنافقون) إنما جاءت لتفضح أساليبهم وكيدهم في كل عصر ومصر ، وكما يقول العلماء " **العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**".

هذا ، وقد اقتضت الخطة أن يأتي الكتاب على النحو التالي :

التمهيد : وتضمن التعريف اللغوي والاصطلاحي للنفاق ، وتاريخ ظهوره ، وأنواعه وأسبابه ، والهدف العام منه ، ودور سورة التوبة في فضح المنافقين .

الفصل الأول : أساليب المنافقين في موالاة اليهود والكفار على المسلمين .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أسلوب المنافقين في مناصرة اليهود

المبحث الثاني : حكم ولاية الكافرين ومناصرتهم .

الفصل الثاني : أساليب المنافين في غزوة بني المصطلق

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أسلوب المنافقين في إثارة النعرة القبلية بين المهاجرين والأنصار

المبحث الثاني : أسلوب الخوض في أعراض المؤمنين وتشويه سمعتهم / حادثة الإفك

المبحث الثالث : أسلوب المنافقين في الصد عن الإنفاق والدعوة إلى الجبن والبخل .

الفصل الثالث: أسلوب المنافقين في التخذيل والتثبيط عن الجهاد ،

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول:أسلوب المنافقين في تخذيل المجاهدين في المواقف الجهادية الحرجة .

المبحث الثاني : أسلوب المنافقين في إرهاب وتثبيط المجاهدين في غزوة الأحزاب .

المبحث الثالث : الصد عن الجهاد ومحاربة المجاهدين أسلوب ثابت للمنافقين قديمًا وحديثًا .

الفصل الرابع : أسلوب السخرية ومحاربة الإسلام عن طريق الدعوة إليه .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : سخرية المنافقين وحكم عقوبتهم .

المبحث الثاني : أسلوب محاربة المنافقين للإسلام عن طريق الدعوة إليه لتمزيق الصف المسلم .

الفصل الخامس : أسلوب المنافقين في الصد عن تحكيم الله ورسوله ﷺ .

واشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أسلوب المنافقين في التحاكم إلى الطاغوت .

المبحث الثاني : أسلوب المنافقين في الإعراض عن حكم الله ورسوله ﷺ وأقوال العلماء فيمن أعرض عن تحكيم الشريعة .

المبحث الثالث : حالات الحكم بغير ما أنزل الله .

الفصل السادس : أسلوب تشكيك الناس بصدق النبي ﷺ ومخالفة أمره ومحاولة اغتياله .

واشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : أسلوب التشكيك بصدق النبي ﷺ ومخالفة أمره .

المبحث الثاني : أسلوب محاولتهم اغتيال النبي ﷺ عند عودته من تبوك .

الخاتمة . وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

المصادر والمراجع .

هذا وفي الختام ، فإن هذا العمل إنما هو جهد مقل ، فإن أصبت فمن الله وحده ، وإن أخطأت فمن نفسي ، وأدعو الله ﷻ أن يجعل عملي هذا كله صالحًا ولوجهه خالصًا ، ولا يجعل لأحد فيه شيئًا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

a

وفيـــه :

- أولاً : **التعريف اللغوي والاصطلاحي للأسلوب والنفاق .**
- ثانيًا : **التعريف اللغوي والاصطلاحي للنفاق .**
- ثالثًا : **من هو المنافق ؟ وما أنواع النفاق ؟**
- رابعًا : **تاريخ ظهور النفاق ، وأسبابه والهدف العام منه .**
- خامسًا : **المنافقون أشد خطرًا من الكافرين .**
- سادسًا : **دور سورة التوبة في فضح المنافقين .**

قبل الشروع بالحديث عن هذا الموضوع ، أرى لزامًا عليّ أن أقف لأوضح مدلول ألفاظ عنوان البحث ، ليعلم القارئ المراد من هذا البحث .

أولاً : التعريف اللغوي والاصطلاحي للأسلوب :

الأسلوب في اللغة : كل طريق ممتد ، والأسلوب : الوجهة والمذهب، يقال : أنتم في أسلوب سوء . ويجمع : أساليب .

والأُسلوب : الفن، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول ، أي أفانين منه [١] .

أما التعريف الاصطلاحي ، فلا يخرج عن تعريفه اللغوي [٢] .

ثانيًا : التعريف اللغوي والاصطلاحي للنفاق :

١ـ النفاق في اللغة :

النِّفاق -بكسر النون- مِن : نافَق ، مُنافقةً ، ونفاقًا ، فعل المنافق ، وهو أيضًا جمع النفقة . مثل : رَقَبة ، ورِقاب [٣] .

وأهل اللغة مختلفون في أصل النفاق : هل هو مأخوذ من **النَّفَق** ؛ كما ذهب إليه **أبو عبيد**[٤] . وهو : السّربُ في الأرض ، الذي يستتِرُ فيه كلُّ مَن

---

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) (بيروت ، دار صادر ، د.ت) (٤٧٣/١)

(٢) ينظر : القاموس الفقهي ، سعدي أبو حبيب ، (ط٢، دمشق ، دار الفكر ، ١٤٠٨هـ) ص (١٧٩).

(٣) ينظر : المصباح المنير ، المقري ، أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠ هـ) ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت) ، (٩٥٥/٢) .

(٤) ينظر : لسان العرب ، (٣٥٩/١٠)

دخله . فسُمِّي من دخل الإسلام مستتِرًا به : مُنافقًا ؛ لتشابُهِه في التَّستُّر ، بمن دخل النَّفَق . أو : لأن دخول النَّفَق من وجهٍ : الخروجُ مِنْهُ من وجهٍ آخَر . فسُمِّي من دخل الإسلام أمامَ النبيﷺ والمسلمين ثم خرج عن الإسلام أمامَ إخوانه الكفارِ قرارًا وعملًا : منافقًا ؛ تشبيهًا بمن دخل النَّفق . في الدخول ، والخروج منه .

٢ـ النفاق في الاصطلاح :

١- **عرّفه الجرجاني** بأنه"إظهار الإيمان باللسان ، وكتمان الكفر بالقلب"(١).

٢- **وعُرِّف** أيضًا :" بأنه مَن يستُر كفره ، ويُظهِر إيمانه"(٢)

٣-**وعرّف ابن كثير** النفاق بأنه :"إظهار الخير وإسرار الشر"(٣). والمنافق يخالف قولُه فعلَه وسرُّه علانيتَه ، ومدخلُه مخرجَه ، ومشهدُه مغيبَه(٤).

٤- **وعرّفه ابن تيمية** قائلًا : "**ولفظ النفاق في الشرع** : إظهارُ الدّين ، وإبطانُ خلافِه . وهذا المعنى الشرعي أخصُّ من مسمى النفاق في اللغة ؛

---

(١) ينظر : التعريفات ، الشريف علي بن محمد (ت ٨١٦هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبياري (ط١، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ) ، (ص٢٤٥) .

(٢) ينظر : ابن منظور : لسان العرب (٤٩٥/١٠) ؛ تاج العروس من جواهر القاموس ، الزبيدي ، محمد المرتضى (ت ١٢٥٠هـ) ، (بيروت ، دار ابن القيم ، د.ت) ، (٢٩٦/٣) .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بع عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، (بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٤م) ، (٤٥/١) .

(٤) ينظر : المصدر نفسه (٤٥/١)

فإنه في اللغة أعمّ من إظهار الدين ، ثمّ إبطان ما يخالف الدين"[١].

يتبين من التعريفات السابقة ، أن النفاق هو : سِتْرُ الكفر في القلب ، وإظهار الإيمان باللسان . وأمّا تعريف ابن كثير بأن النفاق : إظهارُ الخير ، وإسرارُ الشر . فباعتبار : أنّ كل تعاليم الإسلام خيرٌ للأمة . وتكلُّف المنافق بقبولها ظاهرًا ، مع إنكار قلبه لها إسرارًا ؛ لأن المنافق المعروف اصطلاحًا في عهد رسول الله ﷺ، كان كافرًا ابتدءًا .

والنفاق أو المنافق ، اسم إسلامي لم يعرفه العرب بهذا المعنى الخاص ، وإن كان أصله الذي أخذ عنه في اللغة معروفًا[٢] .

ثالثًا : من هو المنافق ؟ ، وما أ نواع النفاق ؟

المنافق كما تبين لنا من التعريفات ، هو : الذي يُظْهِر الإيمان ، ويُبْطِنُ الكُفر .

والنفاق في قاموس علماء الأمة يقسَّم إلى : النفاق الاعتقادي ، والنفاق العملي[٣] . أو إلى : النفاق الأكبر ، والنفاق الأصغر[٤] .

النفاق الاعتقادي :

وهوما يتعلق بأصل الإيمان ، والاعتقاد فيه . ويسمى : النفاق الأكبر .

---

(١) ينظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الحراني (ت ٧٢٨هـ) ، (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٩م) ، (١٤٣/١١)

(٢) ينظر : لسان العرب (٣٥٩/١٠) ؛ تاج العروس (٤٣١/٢٦)

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٤٥/١)

(٤) ينظر : مدارج السالكين ، ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ) ، (٣٧٦/٣) .

وقد سماه الغزالي رحمه الله : الرياء بأصل الإيمان . وسمّى النفاق العملي : الرياء بالواجبات[١] .

فإذا كان المنافق هو الذي يُخفِي الشّرَّ بالقلب مكانًا ، ويُظْهِر الخيرَ باللسان إعلامًا ؛ كان نطقه كلمة"**لا إله إلا الله محمد رسول الله**" وقلبُه منكر وجاحد بما نطق به لسانه ، ولكن لشيءٍ ما نطق بما نطَق ؛ فهو مجبورٌ عليه ، فهو : منافق نفاقًا اعتقاديًا . وهو كافر أصلًا ؛ لأن ما أخفاه شيء يتعلّق بالعقيدة ؛ وهو : المعرفة والتصديق بألوهية ربّ العالمين ، ربّنا الله عز وجل.

وإذا كان قد نطق بالشهادتين ، وقلبُه مصدِّقٌ بالله عز وجل ؛ إلا أنه لا يؤمن بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، أو لا يؤمن بالكتب المنزّلة على الرسل الكرام ، أو باليوم الآخر -مثلًا - ، فهو : منافق نفاقًا اعتقاديًا ، وبقي أصلُه كافرًا .

إذَنْ : الخلل في التصديق ، أو الأعمال القلبية ، أو المعرفة بالله تعالى. أو : الخلل في ركنٍ من أركان الإيمان الستة ، وهي : الإيمان بالله تعالى ، وبملائكته ، وبكتبه ، وبرسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره . وهو : النفاق الاعتقادي .

وأكبر النفاق ، هو : النفاق الاعتقادي . وهو الذي يكمُن في قلب صاحبه تكذيبُ وإنكارُ الله تعالى ربًّا له ، ومحمّدٍ نبيًّا له ، والقرآنِ إمامًا له . وفي الوقت نفسه : يريد إفسادَ الإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي؛ ولكنه نطق بالشهادتين تستُّرًا . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ

(١) ينظر : إحياء علوم الدين ، الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، (٣/ ٣٥٩) .

ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾[1]

ويقول جلّ شأنُه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[2]

فالإيمان يُنفَى عندما لا يؤمنُ المرءُ برُكنٍ من أركان الإيمان ، وكلِّ ما أتى به محمد ﷺ من شريعةٍ مُجْمَعٍ عليها[3] .

والنفاق الاعتقادي ستة أنواع ، صاحبُها من أهل الدَّرْكِ الأسفل من النار[4] ؛ وهي :

١- تكذيب الرسول ﷺ .

٢- تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ .

٣- بغض الرسول ﷺ.

٤- بغض بعض ما جاء به الرسول ﷺ .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٥٠ – ١٥١

(٢) سورة النساء ، الآية ١٣٦

(٣) ينظر : الأصول والفروع (ص ١٢ -١٣)

(٤) ينظر : الواجبات المتحتمات المعرفة على كل مسلم ومسلمة ، التميمي ، محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٥هـ) ، (ط١، الرياض ، دار طيبة للنشر ، ١٤١٤هـ) ، (ص١٣) .

٥- المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ .

٦- الكراهية بانتصار دين رسول الله ﷺ .

النفاق العملي :

وهو النفاق في الأعمال ، ويسمى النفاق الأصغر .

فهو : كأنْ يؤخر المسلمُ الصلاةَ تكاسُلًا –أحيانًا – مع بقاء اعتقاده بأن الصلاة واجبة عليه ، أو على كل مسلم بالغ عاقل . أو : يقيم الصلاة لا لأجل امتثال أمر الله تعالى طاعة له ، ولكن رياءً ، أو طلبًا لمصلحة يريدها هو فردًا وجماعةً . أو : يزني المسلم بامرأة أجنبيةٍ ، مع علمه بأن الزنا محرم شرعًا ، ولكنه ارتكب هذه الجريمة . فإنه قد نافق ؛ لكونه لم يكمل الإيمان بالعمل بالأركان ؛ طاعةً لأمر الله تعالى ، ومنتهيًا لنهيه سبحانه وتعالى . وكيف لا يكون منافقًا وقد صدّق بقلبه ما جاء به محمد ﷺ ، وأقرّ بلسانه قبولًا ، وتلبية لنداء الإيمان ، ولكنّ عملَه يخالفُ ما صدّق به وأقرَّه؟!!

إِذَنْ : النفاق العملي هو : " الخلل في الأعمال البدنية من العبادات المكملة للإيمان ، الذي لا يكون كماله إلا بالتصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان " [(١)] . نعم قد يَنْفي النصُّ من نصوص الشريعة الإيمان أو الإسلام عن المسلم، كقوله ﷺ : (**لا إيمان لِمَنْ لا أمانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عهد له**)[(٢)].

---

(١) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المعروف بـ(تفسير البيضاوي ، البيضاوي ، عبد الله ابن عمر بن محمد (٦٨٥هـ) ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ) ، (١١/١) .

(٢) ينظر : مسند أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، (القاهرة ، مؤسسة قرطبة ، د.ت) ، (١٣٥/٣) ؛ مسند أبي يعلى ، أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى (ت ٣٠٧هـ) : تحقيق حسين أحمد سليم ، (ط١، بيروت ، دار المأمون للتراث ، ١٩٨٨) ، (٢٤٧/٥) حديث رقم (٢٨٦٣) ؛ المعجم الكبير،

وكقوله ﷺ : (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**)[١]

والمقصود من نفي الإيمان هنا : تركُ المسلمِ بعضَ الواجبات [٢]، أو ارتكاب بعض المحرمات . ويبقى مسلمًا ؛ إلا أنه فاسقٌ ، أو عاصٍ لله عز وجل .

والنفاق العملي خمسة أنواع [٣] . يدلّ عليها قوله ﷺ: (**آية المنافق ثلاث :**

١- إذا حدث كذب .

٢- وإذا أوعد أخلف .

٣- وإذا أؤتمن خان)[٤]

الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد (الموصل ، مطبعة الزهراء ، ١٩٨٤م) ، (١٠/ ٢٢٧) حديث رقم (١٠٥٥٣)

(١) ينظر: مسند أحمد (١٣٥/٣) حديث رقم (١٢٤٠٦) ؛ صحيح ابن حبان ، ابن حبان أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، (ط٢، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٣م) ، (٢٤٤/١) حديث رقم (١٩٤) ؛ المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق طارق عوض الله و عبد المحسن إبراهيم ، (القاهرة ، دار الحرمين ، ١٤١٥هـ) (٣/ ٩٨) حديث رقم (٢٦٠٦) .

(٢) ينظر : الإيمان لابن تيمية (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٩م) ، (ص٢٨٨)

(٣) ينظر : الواجبات المتحتمات (ص١٣)

(٤) ينظر : الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه ، المعرف بـ (صحيح البخاري) ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، (ط٣، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧م) (٢١/١) حديث رقم (٣٣) ؛ صحيح مسلم ، مسلم ، أبو الحسين=

وفي رواية[١] :

٤- (**إذا خاصم فجر .**

٥- **وإذا عاهد غدر**)

رابعًا : تاريخ ظهور النفاق . وأسبابه ، والهدف العام منه :

١- تاريخ ظهور النفاق :

لم يكن للمنافقين وجود في العهد المكي ؛ وذلك لأن الإسلام لم تكن له دولة وقوة تجعل الناس يتظاهرون بالانتماء إليه ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان تعذيب المسلمين من أنجح الوسائل للتقرب من الملأ من قريش ، وكذا اضطهادُهم ، وافتتانهم عن دينهم ، مما جعل المسلمين يفرون بدينهم وأنفسهم إلى المدينة ، التي أصبحت بذلك عاصمة الدولة الإسلامية . إذ دخل الأوس والخزرج في الإسلام ؛ ماعدا قلّة قليلةٌ منهم ، ما لبثوا أن أعلنوا إسلامهم بعد انتصار المسلمين في معركة بدر.

وهنا ابتدأتْ مرحلةُ النفاقِ والمنافقين . فبعد قتْل صناديد الكفر في معركة بدر ، ما كان مِنْ عبد الله بن أُبي بن سلول[٢] -رأس النفاق- إلاّ أنْ قال

=مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) تحقيق محمد عبد الباقي ، (بيروت ، دارإحياء التراث العربي ، د.ت) ، (٧٨/١) حديث رقم (٥٩)

(١) ينظر : صحيح مسلم (٧٨/١) حديث رقم (٥٨) .

(٢) سلول : جَدّة عبد الله ، أم أبيه (أُبيّ) قال ابن هشام :"سلول امرأة من خزاعة ، وهي أم أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج" . ينظر : السيرة النبوية ، ابن هشام ، عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨هـ) ، ، تحقيق : طه عبد الرؤوف (ط١، بيروت ، دار الجيل ، ١٤١١هـ) ، (٢٩٥/٢) .

لمن معه من المشركين وعبَدَةِ الأوثان : "هذا أمرٌ قد توجّه"[١] . فدخلوا الإسلام –ظاهرًا- . ثم كلّما أعزّ الله الإسلام وأهله ، غاظَهم ذلك ، وأساءهم .

٢- أسباب ظهور النفاق :

لظهور النفاق وانتشاره في عصر النبوة ، أسباب عديدة ، وعوامل كثيرة ، أهمها :

١- **اليهود** ، من أهم أسباب وجود المنافقين في المدينة المنورة ؛ وتمثل ذلك بما كان يقوم به زعماؤهم من الدخول في الإسلام ثم الخروج منه ؛ ليفتنوا الناس عنه . وقد وصف الله سبحانه وتعالى فِعْلَ هؤلاء بقوله : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٢] .

لقد استغل اليهود عبد الله بن أبي بن سلول ؛ الذي كان يُعِدّ العدة لتنصيبه ملِكًا على الأوس والخزرج[٣] ، إلاّ أنّ دخولَ الناس في الإسلام ، وفرحتَهم به ، وانشغالَهم بمقْدَمِ رسول الله ﷺ ؛ فوّتَ عليه هذا التنصيب . فما كان من اليهود إلا أن قاموا بتأجيجِ نارِ الحقد في قلبه ، وصوّروا له أن عدوَّه الوحيد هو الرسول ﷺ ؛ لأنّه حالَ بينه وبين أنْ يكون ملكَ يثرب .

وهناك سبب آخر ؛ وهو : عامل الضغط الاجتماعي . فهؤلاء يعيشون

---

(١) ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٩م) ، (٨/٢٣٠-٢٣١)

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٧٢

(٣) ينظر: السيرة النبوية (٣/١٢٧) .

بين أهليهم وذويهم ، ولكنهم على مفترق طرق لا لقاء بين سالكيها . فهؤلاء مسلمون ، وأولئك كافرون . فما كان أمامهم إلا إعلانُ إسلامهم ؛ ليلحقوا بِرَكْب إخوانهم ، ويُضمروا الكفرَ الذي أُشْرِبته نفوسهم - والعياذ بالله- .

وقد صور القرآن الكريم موقفهم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[1] .

٢- **قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة** ، وتمكين المسلمين فيها. وهنا تَظاهَر جماعةٌ من الكفّار بالدخول في الدين الجديد ، التي صارت مقاليد الأمور بيد أصحابِه ؛ رغبةً في نفْعٍ أو مغنمٍ ، أو في تحقيق بعض المكاسب الدنيوية التافهة . أو رهبةً من إظهار المخالَفة ، وخوفًا أن يصيبهم عقابٌ ، أو تأديب .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :"فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وصار للمؤمنين بها عِزٌّ وأنصار ، ودخل جمهور أهلها في الإسلام

(١) سورة البقرة ، الآيات ٨ – ١٦ .

طوعًا واختيارًا ، كان بينهم من أقاربهم أو غير أقاربهم من أظهر الإسلام موافقةً ؛ رغبة أو رهبة ، وهو في الباطن كافر . وكان رأسَ هؤلاء عبدُ الله بن أبي بن سلول ، وقد نزل فيه وفي أمثاله آيات"[١] .

ويمكن القول : إنه كلما ازداد الإسلام عِزًّا ، وعظُمت قوة المسلمين ، ازدادَ التزامُ المنافقين بأحكام الإسلام الظاهرة . فهناك تناسُبٌ طَرْدِيٌّ بين عِزّ الإسلام ، وبين التزام المنافقين بالأحكام الظاهرة . كما إنّ هناك تناسُبًا عكسيًّا بين ضعف الإسلام ، وبين قوة المنافقين . بمعنى : إنّه كلما ضعف الإسلام قَوِيَ المنافقون . والعكس صحيح .

هذه القاعدة استُنبطت من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وذَكَر من كلام السلف ما يدلّ عليها . كقول حذيفة بن اليمان ﷺ :"النفاق اليومَ أكثر منه على عهد رسول الله ﷺ" . وفي رواية أخرى : "كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُسِرُّونه ، واليومَ يُظْهِرُونَه"[٢] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول تلك القاعدة :"وقد كان المنافقون يلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة ، لا سيما في آخر الأمر ، ما لم يلتزمه كثير من المنافقين الذين من بعدهم ؛ لِعِزِّ الإسلام ، وظهورِه إذ ذاك بالحُجّة والسيف . تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[٣] .

---

(١) شرح حديث جبريل ، المسمى بـ (الإيمان الأوسط) ، تحقيق الدكتور علي نجيب الزهراني (ط٢، المملكة العربية السعودية ، دار ابن الجوزي ، ١٤٢٤هـ) ، (ص٢٩٢) .

(٢) ينظر : شرح حديث جبريل (ص٣٠٠)

(٣) سورة الصف ، الآية ٩

ويقول أيضًا :"ولهذا لم يكن المتَّهَمون بالنفاق نوعًا واحدًا ؛ بل فيهم المنافق المحض ، وفيهم مَنْ فيه إيمان ونفاق ، وفيهم من إيمانه غالِبٌ وفيه شُعبة من النفاق ، وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان . ولما قَوِيَ الإسلام ، وظهر الإيمان وقوته عامَ تبوك صاروا يُعاتَبون من النفاق على ما لم يكونوا يُعاتَبون عليه قبل ذلك"[(١)].

٣- : أصل المنافقين :

يتفرع المنافقون من أصلين :

١- من المشركين .

٢- من أهل الكتاب .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :"وكان في المنافقين من هو في الأصل من المشركين ، وفيهم من هو في الأصل من أهل الكتاب"[(٢)] .

وقد ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله نقلًا عن ابن اسحاق أسماءَ كثير من المنافقين من كلتا الطائفتين : من المشركين ، ومن أهل الكتاب ؛ الذين كانوا من اليهود في الغالب [(٣)] .

لذا كانت عامّة السور المدنية في القرآن الكريم يُذكر فيها النفاق والمنافقون . وأعظم هذه السور في ذكر النّفاق ، وفضح أساليب المنافقين : سورة التوبة . وهذا ما سيتم الحديث عنه في الفصل الثالث .

---

(١) ينظر : شرح حديث جبريل (ص٥٦٧-٥٦٨)

(٢) ينظر : شرح حديث جبريل (ص٢٩٢)

(٣) ينظر : البداية والنهاية ، لابن كثير ، (ط١، بيروت ، دار الكتب لعلمية ، ١٩٨٤م) (٢٣٦/٣ - ٢٣٧) .

٤- الهدف العام من النفاق :

مع تنوع المنافقين واختلاف درجاتهم ، إلا أن الهدف العام للنفاق :

١- **ردّ المسلمين إلى الكفر** ، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في أكثر من مناسبة ، قال تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾[١] .

وهو هدف يشاركهم فيه الكفار الصرحاء بمختلف أجناسهم ، كما قال تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[٢] . وكما قال عن أهل الكتاب : ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[٣] .

٢- **اتخاذ النفاق وسيلةً لحرب الإسلام والمسلمين** . عن طريق نشر الرذائل في المجتمع المسلم ، ومحاولة تثبيط المؤمنين عن التمسك بدينهم ، والجهاد في سبيله ، وتشكيك ضعفاء الإيمان منهم بدينهم ، والتجسُّس على دولة الإسلام لصالح أعدائهم .

وهم بهذا يجمعون بين محاربة المؤمنين ، وكسب رضا أعدائهم عنهم والتقرب إليهم .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٩

(٢) سورة الممتحنة ، الآية ٢

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٠٩

٣ - **اتخاذ النفاق وسيلة للوصول إلى مراكز الحكم والقيادة** . لتنفيذ مخططاتهم الخبيثة ، وأهدافهم السيئة ، ومبادئهم الهدامة . والقيادة ؛ إمّا تلبيةً لنداء شهوة الرئاسة التي يبتلى بها بعض الناس ، وإمّا ليتوصلوا بذلك إلى تنفيذ مخططاتهم الخبيثة وأهدافهم السيئة ؛ إذا كانوا من أصحاب المبادئ الهدامة . وبغير النفاق لا يستطيعون الوصول إلى ذلك ما داموا في دار الإسلام ؛ لأن المسلمين -مهما كانت درجة إيمانهم- سيمقتونهم ، ويحاربونهم .

٤ - **وقاية أنفسهم وأموالهم** . وذلك لأن الإسلام يعصم دماء معتنقيه ، وأموالهم . والمنافقون من الكفار في الباطن ؛ فإذا أظهروا كُفرهم عاملهم المؤمنون معاملة الكفار المرتدّين .

٥ - **الحصول على المصالح المادية** . وذلك لأن للمسلم في دولة الإسلام الحُرّيةَ التامّة في التصرّف بأمواله في حدود تعاليم الشريعة ، كما أن له حقوقًا مشروعة في بيت مال المسلمين ، تضمن له عيشًا كريمًا . وإذا كان من أهل الكفاءة فإنه يستطيع أن يصل إلى عملٍ في الدولة يتقاضى عليه أجرًا من بيت المال ، وإذا اشترك في الجهاد كان له حظٌ من الغنائم . فالمنافقون يلاحظون هذه المصالح التي تفوتهم ؛ فيما لو أظهروا كفرهم .

٦ - **الحصول على المصالح المعنوية** . وذلك لأن المسلم في دار الإسلام إذا كان متمسكًا بدينه يحصل على الجاه الرفيع ، والمنزلة العالية بين المسلمين ، وعند ولاة الأمر . وهذا أمر مرغوب فيه ، وتشتهيه بعض الأنفس كما تشتهي المال أو أشد . فإذا أظهر المنافقون التقوى والورع ؛ حصلوا على ما يريدونه من هذه المصالح .

خامسًا : المنافقون أشد خطرًا من الكافرين :

مع خطورة الكفار على الإسلام والمسلمين ؛ إلا أن المنافقين أشد خطرًا منهم . فقد ذكرهم الله تعالى في ثلاث عشرة آيةً من سورة البقرة ، في حين لم يَرِدْ ذكر الكافرين إلا في آيتين فقط . وقد بلغت الآياتُ الواردة في المنافقين أكثر من ثلثمائةِ آيةٍ ، موزّعةً على عشرين سورةً من سور القرآن الكريم . ومما يُؤسَفُ له أن كثيرًا من الناس لا يشعرون بهذا الصِّنف ، ولقد أسف لهذا الحال من قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ؛ إذ قال : "فإنّ كثيرًا من المتأخرين ما بقي في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدلٌ أو فاسقٌ ، وأعرضوا عن حكم المنافقين"(١) .

وقد عدّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ جدال المنافقين بالكتاب أحد أمور ثلاثة تهدم الإسلام ، فعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر بن الخطاب ﷺ :"تعرف ما يهدم الإسلام ؟ ، قلت : لا ، قال : يهدمه زَلّةُ عالم ، وجِدالُ منافقٍ بالكتابِ ، وحُكْمُ الأئمة المضلين"(٢) .

وعن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :"إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان"(٣) . أي : عِلمه بالإسلام لا يتجاوز حدود لسانه ، فكلامه يخدع المؤمنين ، ولكنه يُضمِر في قلبه الكيدَ ، وإرادة الشر .

وعن عمران بن الحصين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :(**إن أخوف ما**

---

(١) ينظر : مجموع الفتاوى ، (٢١٢/٧)

(٢) ينظر : سنن الدارمي ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق أحمد زمرلي وخالد السبع (ط١ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ) ، (١/ ١٦٧) حديث رقم (٢١٤) .

(٣) ينظر : مسند أحمد (٢٢/١) حديث رقم (١٤٣)

أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان)[١] . وفي رواية : (**إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة كل منافق عليم اللسان)**[٢] .

وروي بإسناد صحيح عن حذيفة بن اليمان ﷺ موقوفًا عليه ، قال :"إن من أقرأ الناس المنافق الذي لا يترك واوًا ولا ألفًا يلفته كما تلفت البقرة الخلى[٣] بلسانها"[٤].

إنّ بلية الأمة بالمنافقين أعظم من بليتهم بالكافرين المجاهرين ؛ لهذا يقول الله في حقهم : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٥] .

أي : إنّهم أحقّ بأن يكونوا لكم عدوًا من الكافرين المجاهرين ؛ لأن أعدى الأعداء العدو المتظاهر بالموالاة ، وهو مدّاح ، وتحت ضلوعه الداء الدوي . أي : إنه إذا كان المشرك الوثني عدوًّا ، والكافر الكتابي عدوًّا ، والمرتدّ المنقلب على عقبيه عدوًّا ؛ فإن المنافق هو العدو ، وحزبُه في النفاق الأكبر هم العدو . وهم كما قال ابن الجوزي رحمه الله :"المنافقون عيون الأعداء على المسلمين"[٦] .

---

(١) ينظر : المعجم الكبير (٢٣٧/١٨) حديث رقم (٥٩٣)

(٢) ينظر : مسند أحمد (٤٤/١) حديث رقم (٣١٠)

(٣) الخلى : الحشيش وكل نبات رطب . واحِدُه : خلاة ، ينظر : لسان العرب (٢٨٣/٦)

(٤) ينظر : صفة المنافق ، الفريابي ، جعفر بن محمد (ت ٣٠١هـ) ، تحقيق بدر البدر (ط١، الكويت ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ) ، (ص٥٩) .

(٥) سورة المنافقون ، الآية ٤

(٦) ينظر : زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي=

وكما ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ قال :"هم العدو يا محمد ، فاحذرهم ، فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم ، فهم أعينٌ لأعدائكم عليكم"(١) .

لذلك كان جهادُهم أعظمَ منزلةً ، وأرفع قدْرًا من جهاد الكافرين ؛ لأن:

١- جهاد الكافرين يجيء ويذهب باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ووقت وجود دوافعه ومسبباته ، من مداهمة الكفار لبلاد المسلمين ، أو فتح المسلمين معاقل الكفار الصادين عن سبيل الله . أما المنافقون فجهادهم قائم دائم مستمر في السلم وفي الحرب ؛ لأن أذاهم للمسلمين موصول في السلم وفي الحرب .

٢ - عداء المنافقين في الغالب مستتِرٌ خفِيٌّ ، وعداء الكُفر مُعْلَنٌ جَلِيٌّ . ولا شك في أن المستعلن بالعداء يعطي من يعاديه فرصة الاستعداد وأخْذ الحذر ، بخلاف من يتآمر في الخفاء ، ويموِّهُ العِدَاءَ .

٣ - خطر المنافقين من الداخل بين صفوف المسلمين ، بينما خطر الكافرين الظاهرين يأتي في أغلب الأحيان من الخارج . وخطر الخارج لا يستفحل دائمًا إلا بمساندة من في الداخل ، والواقع الذي عاشته أمة الإسلام في عصرنا الحاضر هو أكبر دليل على ذلك ، فما دخل الأمريكان العراق وأفغانستان إلا بمعونة المنافقين الباطنيين .

=(ت٥٩٧هـ) (بيروت، دار الجيل ١٩٨٩م) ، (٣٦٨/٨) .

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) ، الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٥هـ) ، (٣٠ /٧٠) .

إن العدو المُخالِط المُداخِل المُساكِن أخطر وأشد كيدًا من العدو البعيد ، واللص المُخالِط المُداخِل الذي يلبس ثوب صديق وفيّ أمين أكثر ضررًا وأنفذ مكرًا من اللص المكشوف ، الذي يُعرف بأنه خائن غدار ، فيحذر الناس منه ، ويَقون أنفسهم من سطوته أو حيله ومكايده . ويقول الحكماء في أمثالهم :"لِصُّ الدار لا تراقبه الأنظار" .

ومما يؤيّد عِظَم منزلة مُجاهدة المنافقين هو أن عداوتهم شاملة ، لا تقتصر على جانب دون جانب ، فهي تبدأ من الكلمة همزًا ولمزًا وسخرية ، وتنتهي إلى الخيانة العظمى بالقتال في صفوف الكفار ، وتحت رايتهم ، والتآمر معهم على المسلمين ، وكشف أسرارهم . شاهدنا ذلك بأعيننا ورأينا الخيانة العظمى من المنافقين ، عندما دخل الأمريكان العراق وأفغانستان . فكان المنافقون ولا يزالون يقفون مع الأمريكان ، ويحاربون الإسلام والمسلمين .

٤ – جهاد الكفار قد يكون فرض عين أو فرض كفاية ، وقد يسقط بالأعذار ، أما جهاد المنافقين فهو غير قابل للسقوط ، فهو واجب على كل مكلَّفٍ بِحَسَبِهِ . كما قال ﷺ : (**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حواريين وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخاف من بعدهم خُلوف ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يأمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**)[1]

لذلك فجهاد المنافقين المأمور به في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ

(١) ينظر : صحيح مسلم (٦٩/١) حديث رقم (٥٠) ، صحيح ابن حبان (٧١/١٤) حديث رقم (٦١٩٣)

ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١] يبدأ بالقلب ، وينتهي بالسيف .

يقول **ابن القيم رحمه الله** :"فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواص الأمة ، وورثة الرسل . والقائمون به أفراد في العالم ، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددًا ، فهم الأعظم عند الله قدرًا . ولمّا كان من أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شِدّة المُعارض ؛ مثل : أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه ، كان للرسل ﷺ من ذلك الحظّ الأوفر ، وكان لنبينا ﷺ من ذلك أكمل الجهاد وأتمُّه"[٢] .

وقال الله عنهم وعن كيدهم وخداعهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[٤] .

هذا هو حالهم ، وهذا هو دأبهم : الخداع والمكر ، والكيد للإسلام وللمسلمين . فوجبت معاداتُهم والبراءة منهم ؛ طاعةً لله ولرسوله ﷺ ، وموالاةً لله ولرسوله ﷺ وللإسلام ، وللمسلمين .

٥ - المنافقين جمعوا في قلوبهم بين الفسق والكفر . فلقد فسقوا بخروجهم عن أمر الله ، وما أوجب عليهم من الإسلام والإيمان ، ومالوا عن

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٧٣)

(٢) ينظر : زاد المعاد (٣ / ٦)

(٣) سورة البقرة ، الآيتان ٨-٩

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٤

التوحيد وخرجوا منه إلى الكفر . وهم كفرة ؛ لأنهم كفروا بالله وإن تظاهروا بالإسلام ، فإنهم أبطنوا وأخفوا الكفر ، وكراهية الدين ، وكراهية الرسول ﷺ وكراهية المسلمين ، وفرحوا بكل مصيبة وكل هزيمة تلحق بالإسلام والمسلمين ، وحزنوا لكلّ نصرٍ وظفر للإسلام والمسلمين . فجمعوا بين الكفر ، والفسق .

قال الله تعالى مخبرًا عن فسقهم : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾(١) .

وأخبر تعالى عن كفرهم ، فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾(٢) . وبيّن الله تعالى مآلهم ومكانهم في جهنم ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾(٣) .

وأخبرنا الله تعالى أن المنافقين يتربصون بالمسلمين ، ويحاولون خلخلة الصف ، وزعزعة الأمن ، ونشر الفتنة ، وتفريق الكلمة ، فقال تعالى عنهم : ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤).

إن عداوة المنافقين للإسلام والمسلمين أمر واضح لا شبهة فيه ، ولا

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٣

(٢) سورة التوبة ، الآية ٥٤

(٣) سورة النساء ، الآية ١٤٥

(٤) سورة التوبة ، الآية ٤٧

خلاف فيه؛ فإنهم لا يَدَعُون فرصة سنحت لهم ، ولا مجالًا للنيل من الإسلام والمسلمين إلا سارعوا بإشباع رغباتهم الدفينة في القضاء على الإسلام وأهله، فهم يفرحون بكل مصيبة تصيب المسلمين ، وتطمئن قلوبهم بها ، ويحزنون لكل حسنة تظهر في الإسلام أو على المسلمين ، وقد أخبر الله تعالى عن هذه الحقيقة بقوله : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾[1].

فهؤلاء الذين يعادون الدين ، ويفرحون بكل مصيبة تصيبه وتصيب المسلمين ويحزنون لكل نصر للإسلام والمسلمين ، هؤلاء لا بد من جهادهم بكل ما نملك ، والبراءة منهم جميعًا ، وبغضهم ؟ والحذر كل الحذر من الميل لهم والركون إليهم ، فضلًا عن موالاتهم ؛ فإن البراءة منهم من أوجب الواجبات ، وموالاتهم والركون إليهم كُفْرٌ بُواح ، ينقض التوحيد من أصله ، ويُخرِج صاحبَه من دائرة الإيمان .

وما أروع من وصف ابن القيم رحمه الله للمنافقين بقوله : " فيالله كم من معقل للإسلام هدموه ! ، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه ! وكم من علم له قد طمسوه ! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه ! ... فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية ، يزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة ، لآية ٥٠

(٢) سورة الصف ، الآية ٨ . و ينظر : مدارج السالكين (٣/ ٣٧٧) .

سادسًا : دور سورة التوبة في فضح المنافقين :

وردت في سورة التوبة آيات كثيرة بشأن المنافقين ، ما يقارب السبعين آية ، استغرقت أكثر من نصف السورة (من الآية ٤٢ – الآية ١١٠) كلها بشأن المنافقين وما صدر منهم فيما يتعلق بغزوة تبوك ، مع بيان لأخلاقهم ، وأوصافهم ، فكانت هذه الآيات فاضحة وهاتكة لأسرارهم .

وقد سميت هذه السورة بأسماء عدة ، منها :

١. (**التوبة**) لتكرار لفظ التوبة فيها / كما في الآيات (٣ ـ ٥ ـ ١١ ـ ٣٧ ـ ٦٤ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١١٤ ـ ١١٧) .

٢. (**الفاضحة**) لما رُوي عن ابن عباس ﷺ قال : " التوبة هي الفاضحة ، ما زالت تقول : ومنهم ، ومنهم ، حتى ظنوا أنها لم تُبقِ أحدًا منهم إلا ذُكر فيها " [١]

٣. **(براءة)** سُميت بها لأنها مفتتحة بها ، وهي تسمية لها بأول كلمة منها ، ولأنها نزلت بإظهار البراءة من المشركين ، وقد جاءت هذه التسمية في كلام الصحابة ﷺ ، ففي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ في قصة حج أبي بكر الصديق ﷺ بالناس ، قال أبو هريرة ﷺ : " فأذّن معنا علي ﷺ يوم النحر في أهل منى ببراءة " [٢] .

---

(١) ينظر : صحيح البخاري ، (١٨٥٢/٤) ، حديث رقم (٤٦٠٠) ؛ صحيح مسلم (٢٣٢٢/٤) حديث رقم (٣٠٣٣) ؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦١/٨) .

(٢) ينظر : صحيح البخاري ، (١٧٠٩/٤) حديث رقم (٤٣٧٨)

وعن البراء بن عازب ﷺ قال : " آخر سورة نزلت براءة " [١] .

٤ـ (**المبعثرة**) لأنها بعثرت أسرارَهم[٢] .

٥ـ **(البحوث)** لما روى جبير بن نفير قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود ﷺ[٣] بدمشق ، يحدّثنا على تابوتٍ ، ما به عنه فضل ، فقال له رجل : لو قعدتَ العام عن الغزو ؟ قال : أَبَتْ (البحوثُ) يعني : سورة التوبة . قال الله تعالى : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[٤] قال أبو عثمان : **بحثت المنافقين** [٥] .

لقد حفلت سورة التوبة بأخبار النفاق ، وسلوك المنافقين ؛ لتُرَسِّخَ في أفهام المسلمين أهمية تفقُّدِهم لصفوفهم ، واختبار بطانتهم ، حاملين قبس القرآنِ ، وقبس السيرة النبوية المطهرة ؛ لكشف ما هيّة ونوعية وسجية المنافقين ، حتى نكون منهم على حذر .

وهذا المقطْع من السورة الذي قارب السبعين آية ، ويستغرق أكثر من نصفها ، يصوّر فضائح المنافقين ، ويكشفُ أفاعيلَهم في المجتمع الإسلامي

---

(١) ينظر : المصدر السابق (١٥٨٦/٤) حديث رقم (٤١٠٦) .

(٢) ينظر : السيرة النبوية (٢٤٢/٥) ؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦١/٨)

(٣) الكندي ، أبو الأسود ، كان زوج ضباعة بنت الزبير ابنة عم النبي ﷺ ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها ، وكان سمينًا ، عظيم البطن . مات سنة (٣٣هـ) في عهد عثمان ﷺ وهو ابن سبعين سنة . ينظر : الإصابة (٣/ ٤٥٤)

(٤) سورة التوبة ، الآية ٤١

(٥) ينظَر : الجهاد ، ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) ، (بيروت ، دار المعرفة) (٨٨) .

إبّان غزوة تبوك . وقد كشف حقيقة نواياهم ، وحِيَلَهم ، ومعاذيرَهم في التخلُّف عن داعي الجهاد . ويصاحبُ هذا تحذيرُ المسلمين من كيدهم ، وتميُّزُ كلٍّ منهم بصفاته .

وفي القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة آية بشأن المنافقين ، تفضح خبثهم وأساليبهم ، موزعة على سور (البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الأنفال ـ التوبة ـ الحج ـ النور ـ العنكبوت ـ الأحزاب ـ محمد ـ الفتح ـ الحديد ـ المجادلة ـ الحشر ـ المنافقون) ؛ إلا أن سورة التوبة أو (براءة) تعد أكثر السور التي فضحت المنافقين ومخططاتهم المشبوهة .

جاء هذا الحشد الكبير من الآيات القرآنية لتكشفهم ، وتفضح أساليبهم ، ليس ذلك في عهد القرآن الكريم فحسب ، بل هذه الأساليب هي أساليبهم في كل عصر ومصر ، وكما يقول العلماء " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " .

وفي هذا البحث سنوضح -إن شاء الله تعالى- أهم أساليب المنافقين في محاربة المسلمين في ضوء آيات القرآن الكريم .

الفصل الأول

أساليب المنافقين في موالاة اليهود والكفار على المسلمين

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : **أسلوب المنافقين في مناصرة اليهود .**
- المبحث الثاني : **حكم ولاية الكافرين ومناصرتهم .**

المبحث الأول
أسلوب المنافقين في مناصرة اليهود

إن من يريد أن يقتفي أثر فساد المنافقين خلال عهد الرسالة ، بل وفي كل زمان ؛ فعليه أن يبحث في مظانّ الحديث عن اليهود ، فأينما وُجد اليهود، وُجد المنافقون .

المطلب الأول : مناصرة المنافقين ليهود بني قينقاع :

كان النبي ﷺ عندما قدم المدينة واتخذها عاصمة لدار الإسلام ، قد أرسى دعائم الاستقرار والاستمرار لمجتمع تسوده علاقات مع الطوائف المجاورة ، أو الساكنة مع المسلمين في أرض الإسلام . وكان من هؤلاء : قبائل من اليهود ، قدم رسول الله ﷺ وهم فيها ، فأراد ﷺ أنْ يَقِيَ المسلمين شرَّهم ، فعقد معهم عهدًا يؤمِّنُهم فيه على أرواحهم وأموالهم ؛ على ألا ينقلبوا على المسلمين بغدرٍ ، أو خيانةٍ ، أو مظاهرةٍ للأعداء من خارج المدينة . ولكنَّ طبْعَ اليهود غَلَب محاولاتِ تطبيعهم ، أو تطويعهم لقيم الأمانة والوفاء ، فغدرت منهم قبيلة بني قينقاع ، وخانت العهد ، فتمّ جلاؤُهم بعد غزوة بدر الكبرى ، وبالتحديد في شوال من السنة الثانية من الهجرة[1]

روى ابن هشام: " أن امرأةً من العرب قدِمت بِجَلْبٍ لها ، فباعته في سوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغٍ ، فَرَاوَدَها على كشْف وجهها ، فأبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرَف ثوبِها فعَقَدَهُ خلف ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتُها ، فضحكوا منها ، فصاحتْ ، فوَثَبَ رجلٌ من المسلمين على الصائغ،

(١) ينظر : السيرة النبوية (٣/٣١٤)

فقتلَه -وكان يهوديًا - ، فشدّ اليهودُ على المسلم فقتلُوه ، فاستصرخَ أهل المسلم المسلمين ، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أنْ استعدّ لحربهم ، وإخراجهم من المدينة . وبدأ في حصارهم ، مستمرًّا في ذلك نحوًا من خمسٍ وعشرين ليلة ، حتى ألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم ، فطلبوا الاستسلام ، وارتضوا المصير الذي يحكم به رسول الله ﷺ جزاءَ نقْض العهد "[1].

ولكن اليهود وجدوا من يتصدَّر لهم ، ويتوسّط لإطلاقهم ؛ فطلَبَ زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول إطلاقَهم ، بدعوى أنهم كانوا حلفاءَه في الجاهلية . ووضعَ يدَه في جيب دِرْع النبي ﷺ حتى اشتدَّ غضبه ﷺ ، وقال له : (ويحَك !! أَرْسِلْنِي) قال : "لا والله ، لا أرسلك حتى تُحسِنَ في مَوَالِيَّ -وكانوا أربعمائة حاسر[2] ، وثلاثمائة دارعٍ- قد منعوني الأحمرَ والأسودَ ، وتريدُ أنْ تَحْصِدَهم في غَداةٍ واحدةٍ ؟! ، إني والله امرؤٌ أخشى الدوائر" . فقال رسول الله ﷺ : (**هم لك**)[3] . وفي ذلك نزل قوله ﷻ : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[4] .

لقد اكتفى رسول الله ﷺ منهم بالجلاء عن المدينة ، وأن لا يساكنوه فيها . فهل قَرّ قَرار النفاق بذلك ؟ وهل ارتدع بقية اليهود بذلك ؟

أبدًا ؛ كان المنافقون واليهود -ولا يزالون- هم أصل كلّ بلاءٍ ، ومحنةٍ

---

(١) المصدر نفسه (٣/٣١٥)

(٢) هو الذي ليس عليه درع . ينظر : لسان العرب (٨/٨٢)

(٣) ينظر : السيرة النبوية (٣/٣١٥)

(٤) سورة المائدة ، الآية ٥٢ . ويُنظَر :جامع البيان للطبري (٢/٤٨٠)

تقع على المسلمين في عصر الرسالة ، وفي عصرنا هذا .

ومن الرواية يتّضح مدى تشبُّث المنافقين باليهود ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما يُلاحَظ قوة الاستماتة التي أبداها في الدفاع والمناصرة عن اليهود ؛ حتى كان له ما أراد .

بل جاء في بعض الروايات الصحيحة ، أنه لم يكتف بذلك ، بل أراد من رسول الله ﷺ أنْ يقرّهم في ديارهم(١). ولا غرابة في ذلك ، فهم جميعًا مشتركون في الكفر بالإسلام ، وعداوة النبي ﷺ .

إنّ مثل هذا الموقف الذي أظْهره هذا المنافقُ ، وغيره من المواقف كشفٌ للكثيرِ من أمرهم . قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٢) .

وما يجدر بنا ذِكْرُهُ هنا : أن المنافقين بعد موقفهم هذا ظهرَ حالُهم ، وانكشف كيدُهم للإسلام والمسلمين ، فلم يكن بمقدورهم بعدها أن يمارسوا مثل هذا الأسلوب ؛ بل انقلبوا إلى الدس والمؤامراتِ الخفية . كما سيأتي في هذا الفصل .

حكمة النبي ﷺ في التعامل مع رأس المنافقين بشأن يهود بني قينقاع :

وهنا لابد من بيان الوجه السياسي لسكوت النبي ﷺ عن تصرُّفِ عبد الله بن أبي بن سلول واستجابتِهِ لطلبه : فقد كان ابن سَلولٍ ذا مكانة مرموقة

(١) ينظر : السيرة النبوية (٢/٥١ - ٥٢)

(٢) سورة النساء ، الآية ١٣٧ – ١٣٨.

في المدينة المنورة ، وقد قَدِم النبي ﷺ المدينة وإنّ قومَه لينظمون له الخَرَزَ ليتوّجوه عليهم[١] . وكان له أتباعٌ كثيرٌ ؛ يضمُّون جميعَ الحاقدين ، والمنافقين المتآمرين . وكان هؤلاء يأتمرون بأمره . وهو هنا يذكر أنّه هبّ لحمايته سبعمائةِ مسلَّحٍ منهم ، وقد استطاع يوم "أُحُدٍ" أنْ يرجعَ إلى المدينة محتجًّا على تصرُّف النبي ﷺ ، ويَرْجِعَ ومعه ثُلُث النّاس . فأمْرُ الرجل إذن ليس باليسير .

ومَنْ تلمَّسَ خُطوات النبي ﷺ السياسيةِ ؛ يجدُ أنه كان يُؤْثِرُ –دائمًا– استقرارَ الأمور في الداخل ، ويجعلُ ذلكَ مُنطَلَقَه ؛ لأنه إذا ما ساءت الأمور في الداخل ، ساء معها كل شيء . ولو لم يغضّ النبي ﷺ الطّرْف عن تصرُّف هذا المنافق ، ولو لم يُبْدِ له شيئًا من التنازلات ، لأهاج عليه الناس .

ثم ؛ علينا أنْ لا ننسى أنّ هذا المنافق كان يظهر الإسلام ، ويَتْبَعُه أناسٌ من المنافقين الذين يُظهِرون الإسلام ؛ فإذا ما وقعت الواقعةُ كانت حربًا أهليةً تُجْهِضُ الدعوةَ الإسلامية ، وتقوِّضُ أركانَ الدولة ؛ لأن الناظر إلى هذا القتال من الخارج يرى أنّ المسلمين يقتُل بعضهم بعضًا ، وسيُشاع في أرجاء الجزيرة العربية أن محمدًا يقتل أصحابه ؛ وسيُرجِفُ المرجفون بذلك . وفي ذلك إساءة لسُمعة الدولة الإسلامية ، وصَدٌّ عن دين الله. وتلك مفسدة كبيرة.

ويظهر في هذا الخبر فِقهُ النبي ﷺ السياسيّ في تعامُلِهِ مع عبد الله بن أبي بن سلول ؛ إذ لبّى له طلبه ، فقال له : (هُمْ لَكَ) ولعله كان يرجو أن تزولَ الغشاوة عنه ، فتتم هدايتُه ، فيصلُح بصلاحِه الذين يسيرون وراء

(١) ينظر : السيرة النبوية (١٣١/٣) ، المنهج الحركي للسيرة النبوية ، الغضبان ، منير محمد ، (الأردن، مكتبة المنار ، د. ت) ، (ص٢٤٧) .

زعامته، فيتماسك الصفّ ، ويلتحم ، فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام[١] .

وهناك أمر آخر ، وهو : حِرْص النبي ﷺ على تفادِي حدوث أيّ فتنة في مجتمع المؤمنين ؛ إذ إنّ بعض الأنصار كان حديثَ عهد بالإسلام ، ويُخشى أن يؤثّر فيهم رأس المنافقين عبد الله ابن أبي بن سلول ؛ لسمعته الكبيرة فيهم[٢] . لذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة ، والصبر عليه ، وعلى إساءاته ؛ تجنُّبًا للفتنة ، وإظهارًا لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ، ومواقفه عند من يجهلها ، ومِنْ ثَمّ يفرُّ الناس من حوله ، ولا يتعاطفون معه .

وقد حقق هذا الأسلوب نجاحًا باهرًا ، فقد ظهرت حقيقة عبد الله بن أبي بن سلول لجميع الناس ، حتى لأقرب الناس إليه ، ومنهم ولده عبد الله[٣]. فكانوا بعدها إذا تكلَّم أسكتوه ، وتضايقوا من كلامه[٤] ؛ بل أرادوا قتله.

كما تذكر كتب السيرة أن هناك من زعماء المدينة من سلك مسلكًا مغايرًا لمسلك عبد الله ابن أبي ابن سلول ، فقد كان بين عبادة بن الصامت[٥]رضي الله عنه وبين بني قينقاع حِلْف كالحلف الذي بينهم وبين عبد الله بن

---

(١) ينظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية ، ص (٢٤٧)

(٢) ينظر : التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ، الحميدي : عبد العزيز عبد الله ، (ط١، الإسكندرية ـ جدة ، دار الدعوة ـ دار الأندلس الخضراء ، ١٤١٨هـ) ، (٥٢-٥٣) .

(٣) الخزرجي ، كان اسمه الحباب ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . شهد بدرًا والمشاهد بعدها ، وكان ممن كتب للنبي ﷺ . استُشهِد في معركة اليمامة سنة (١٢هـ) ، ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر تحقيق : علي محمد البجاوي ،(ط١ ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٢م) ، (٣٣٦/٢) .

(٤) ينظر : الصراع مع اليهود ، (١٤٨/١)

(٥) الخزرجي ، شهد بدرًا والمشاهد بعدها ، وكان من النقباء ، وشهد فتح مصر . روى=

أبي بن سلول ، ولكن عبادة بن الصامت ﷺ ما إن رأى رسول الله ﷺ يتوجه إليهم ، حتى توجه إلى رسول ﷺ وخَلَعَهم ، وتبرّأ إلى الله ورسوله مِن حِلْفِهم، وقال : "يا رسول الله ، أَتَوَلَّى اللهَ ، ورسولَه ، والمؤمنينَ ، وأَبْرَأُ من هؤلاء الكفارِ ، وولايتِهم" . فكان ذلك من عبادة بن الصامت ﷺ آيةَ الإيمان الصادق بالله ورسوله . وقد نزل القرآن الكريم مسجلًا هذا الموقف في قوله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

المطلب الثاني : مناصرة المنافقين ليهود بني النضير :

ذكرت كتب السيرة أنّ مُسْلِمًا قَتلَ رجلين من المشركين ثأرًا لمقتل سبعين من الصحابة ﷺ قُتلوا ظُلمًا على يدِ قبائل مُشرِكَة ، دون أن يَعلم هذا الرجل المسلم الذي قتل هذين الرجلين بالعهد الذي بينهما وبين رسول الله ﷺ . فقرّر رسول الله ﷺ دفْعَ ديتهما ، وذهب بنفسه ﷺ لِطَلَبِ مشاركة يهود بني النضير في مقدار الدّية ، فتظاهروا بالقبول . وفي الوقت نفسه وجدوا أنّ وجودَ رسول الله ﷺ في حصونهم فرصةٌ ثمينةٌ لا تفوت ، فعزموا على الغدْر به عندما أغراهم جلوسُه ﷺ تحت بيتٍ من بيوتهم ، فأرادوا أن يلقوا عليه من أعلى البيت حجرًا كبيرًا ، ولكن الله ﷻ أَطْلَعَ رسولَه ﷺ على تآمرهم ، فقام رسول الله ﷺ مسرعًا عائدًا إلى المدينة ، وعازمًا على حرب بني النضير ، ثم تَبِعَهُ أصحابُه ﷺ بعدَه بقليلٍ ، وذلك في شهر ربيع الأول من العام الرابع

=عن النبي ﷺ كثيرًا . مات بالرملة سنة (٣٤هـ) على الصحيح . ينظر : الإصابة (٢٦٨/٢)

(١) سورة المائدة ، الآية ٥١ . و يُنظَر :جامع البيان للطبري (٢٧٤/٦)

للهجرة[١].

وتحصَّن اليهودُ في حصونهم ، فضرَبَ رسول الله ﷺ عليهم الحصار بسبب نقضهم العهد وغدرهم . وبينما الحصار مضروبٌ ، إذْ بالنفاق يطلُّ برأسه من جديد مناصرةً لليهود ، ومما لأةً لقتَلَةِ الأنبياء . وهذا هو ديدنهم في كل عصرٍ . فذهب وفدٌ من المنافقين إلى معاقلِ اليهود ، ليُهَدّئَ مِنْ رَوْعِهم ، ويُكَفْكِفَ لَوْعَتَهُم ، ويَعِدُهم بالوقوف معهم ، ومساندتَهم ، وبذْلَ المستطاع في نُصْرَتِهم ، ولو اقتضى الدفاع عنهم أنْ يقاتلوا في صفوفهم ضد المسلمين! ممن يحدث هذا ؟ إنّه من أناس يعيشون بين المسلمين ، وينتسبون إليهم ، ويصلُّون معهم !

لقد كان أمرًا خارجًا عن الحد الأدنى من طبائع الأُمناء الشرفاء ؛ حتى جعل القرآن الكريم ينزِل بحكاية خَبَرِ القوم . قال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[٢] .

---

(١) ينظر : المغازي ، الواقدي ، عمر بن محمد بن واقد (ت ٢٠٧هـ) ، (ط٣، بيروت ، دار الكتب ، ١٩٨٤م) (١/٣٥٦) .

(٢) سورة الحشر : الآية ١١ – ١٤ . و ينظر : جامع البيان للطبري (٢٨/٤٧)

لقد انتهى ألأمر بإجلاء بني النضير ، وإلحاقهم بإخوانهم في البُهت والسحت : بني قينقاع . وحالت عزّة الإسلام منْ أنْ يسلّ المنافقون سيوفَهم ضد المسلمين معهم ، وإلاَّ فإنهم لو تمكنوا ما تأخّروا ؛ لكنها الرهبة من الإسلام عظُمت حتى ملأت قلوب الكافرين والمنافقين جميعًا . قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

وهذه حقيقة يقررها الله تعالى بأن اليهود والمنافقين يخافون من المؤمنين أكثر من خوفهم من الله تعالى . وهذه الحال منهم ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : لا يقدّرون الله حقّ قدْرِه وعَظَمَتِه ؛ حتى يَخْشَوه حقّ خشْيتِهِ .

وضرب الله مثلًا للمنافقين الذين أغروا بني النضير بالمقاومة ، ثم خذلوهم وقت المحنة ، فقال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

ثم لما حقّت الحقائق ، ووُضِع عليهم الحصار والقتال ، تخلَّوا عنهم ، وأسْلمُوهم إلى التّهْلُكة ؛ مثالهم في ذلك الشيطانُ ؛ إذ سوّل للإنسان الكُفر ، فلما دخل فيما سوّل له تبرّأ منه ، وتنصَّل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

روى ابن هشام قال : "كان رهط من عوف بن الخزرج ؛ منهم : عدوّ الله عبد الله بن أبي ابن سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبي قوقل ، وسويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير ، أنْ اثبُتُوا ، وتمنّعوا ، فإنا لن نُسْلِمَكم ،

(١) سورة الحشر ، الآية ١٦ .

إذا قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخْرِجْتُم خرجنا معكم [١] . لكن الله ﷻ منَّ على رسوله بالنصر على اليهود ، وغَنِمَ أموالَهم وديارَهم ؛ بسبب غدْرِهم ، واعتمادِهم على وعود المنافقين الكاذبة . وما كان المنافقون يريدون لهم هذه النتيجة ، وإنما كانوا يريدون إلحاق الضرر بالمؤمنين ، فردّ الله ﷻ كيدهم في نحرهم ، ونَصَر رسولَه والمؤمنين عليهم .

المطلب الثالث : تحالف المنافقين مع اليهود لتثبيط المسلمين عن الجهاد في غزوة تبوك[٢]:

وفي غزوة تبوك نجد هذا التحالف ظاهرًا للعيان ، يؤيّد ما ذكرنا آنفًا . كان هذا التحالف قبيل خروج جيش النبي ﷺ إلى غزوة تبوك لقتال الروم .

لم يكن خافيًا على رسول الله ﷺ ولا على أحدٍ من أصحابه ﷺ ما يُضمِرهُ المنافقون من بُغضٍ وحقدٍ على المسلمين ، ورغبةٍ في إلحاق الضرر بهم ، ومحاولات مبطّنة لتدمير الأمة الإسلامية ، مع تظاهر هؤلاء المنافقين بأنهم مسلمون ، وحريصون على مصلحة المسلمين . فكان زعماؤهم (مثل عبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن قيس) يحضُرون كثيرًا من الاجتماعات التي يعقدها النبي ﷺ مع كبار أصحابه ، باعتبار أن زعماء المنافقين هؤلاء (**في الظاهر**) جزءٌ من الأمة الإسلامية .

وقد كان النبي ﷺ يتسامح معهم ، مع علمه عنهم أنهم منافقون ؛ بل

---

(١) ينظر : السيرة النبوية (٣/٢٢١)

(٢) وقعت هذه الغزوة في رجب من السنة التاسعة للهجرة . واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك نسبةً إلى مكان ؛ هو : عين تبوك ، التي انتهى إليها جيش المسلمين . ينظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٥/١٩٥) الطبري : التاريخ : (٢/١٨١) .

ويتجاوز عن كثيرٍ من تصرُّفاتِهم ما دام هذا التصرُّف لا يتجاوز التنفيس عما تُكِنّه صدورهم المريضةُ مِن بُغضٍ للنبي ﷺ وأصحابه ﷺ . وما دام أنها لا تصل إلى درجة الإضرار الفعلي بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها . أمّا حِين يصِلُ المنافقون في تصرفاتهم إلى هذه الدرجة ، فإن الرسول الحكيم ﷺ يتخذ ضدهم من الإجراءات ما يحفظ لأمة الإسلام أمنها وسلامتها .

لذلك كانت عيون المسلمين (وهو ما يسمى اليوم بأجهزة الأمن والاستخبارات) تراقب هؤلاء المنافقين . ونتيجة مراقبة أجهزة الأمن هذه للمنافقين ، تم اكتشاف نشاطاتٍ مشبوهةً واجتماعاتٍ سِرّيةً يعقدها هؤلاء المنافقون للتآمر على سلامة الجيش وأمن الأمة الإسلامية فنقل حُرّاس الأمن في المدينة إلى رسول الله ﷺ أن هناك وكرًا تلتقي فيه سرًّا عناصر النفاق وتَحيك فيه الدسائس والمؤامرات ، التي تُعرّض سلامة الجيش وأمن الأمة للخطر ، وأن هذا الوكْر على وجه التحديد هو بيت أحد اليهود ، ممّن هو في ذمة المسلمين وحمايتهم ، ومع ذلك قَبِلَ أن يكون بيتُه ملتقىً لعناصر التخريب والتآمر على الإسلام والمسلمين . هذا اليهودي اسمه"سويلم".

وعندما بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ هذا الوكر ، وما يجري فيه من دَسٍّ وتآمُر من المنافقين ، بمساندة بقايا اليهود أَمَرَ ﷺ قُوى الأمن في المدينة بأنْ تُحرق وتدمّر وكر التآمر هذا . أي : بيت سويلم اليهودي . فسارعت قوى الأمن إلى محاصرة بيت سويلم الذي كان فيه المتآمرون يعقدون معه اجتماعًا من اجتماعاتهم المشبوهة ، ثم أضْرمت قوى الأمن الإسلامية النّارَ في ذلك الوكر على من فيه من المتآمرين ، والتهمتْ النارُ البيتَ ، وكادتْ النار أن تلتهم المتآمرين المجتمعين فيه ، لولا أنهم قفزوا من النوافذ فنجَوْا من الموت . وكان الذي تولى عملية إحراقَ البيت الصحابيُّ الجليل طلحة بن

عبيد الله ﷺ .

روى ابن هشام[١] ، قال :"بلغَ رسولَ الله ﷺ أن ناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيتُه عند جاسوم[٢] ، يثبّطون الناسَ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فبعث إليهم النبيّ ﷺ طلحة بن عبيد الله ﷺ في نفر من أصحابه ، وأمره أنْ يحرق عليهم بيت سويلم . ففعل طلحة بن عبيد الله ﷺ ، فاقتحم الضحّاك بن خليفة[٣] من ظهر البيت ، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابُه ، فأفلتوا . فقال الضحاك :

كادت وبيت الله نار محمد يشيطُ بها الضحاك وابن أبيرقِ
وظلت وقد طبقت كيس سويلم أنوء على رجلي كسيرًا ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار تحرقِ

ومع ما حدث مع هؤلاء المتآمرين ، فإن رسول الله ﷺ اكتفى فقط في تأديب هؤلاء المتآمرين بحرق الوكر الذي يلتقون فيه ، وهو بيت سويلم اليهودي ، فلم يأمر باعتقال أحد ممن كان في البيت ساعة مداهمته وإحراقه . وحتى سويلم اليهودي لم يتخذ الرسول ﷺ أي إجراءٍ ضده ، سوى حرق بيته.

---

(١) ينظر : السيرة النبوية (١٩٦/٥)

(٢) بئر في المدينة . ينظر : تاريخ المدينة المنورة ، ابن شبة ، أبو زيد عمر بن شبة النمري البصري (ت ٢٦٢هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت (ط١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٠هـ) ، (٦٩/١) .

(٣) الأشهلي الأنصاري . شهد غزوة بني النضير ، وله ذِكْرٌ ، وليست له رواية عن النبيﷺ ، وقد فرَّ من البيت الذي كانوا فيه مجتمعين ، ثم تاب بعد ذلك ، وحسن حاله ﷺ . ينظر : الإصابة (٢٠٣/٢)

ويدل هذا الإجراء على مراقبة المسلمين الدقيقة ، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود ، فقد كانت أعين المسلمين يقظةً ، تُراقِب تحرُّكات اليهود والمنافقين ، واجتماعاتِهم وأوكارهم ؛ بل كانوا يطّلعون فيها على أدقّ أسرارهم واجتماعاتهم ، وما يدور فيها من حبك المؤامرات ، وابتكار أساليب التثبيط ، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال .

وقد كان علاج النبي ﷺ لدعاة الفتنة وأوكارها حازمًا حاسمًا ؛ إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين ، وأرسل من أصحابه من ينفذه ، ونفذ بحزم . وهذا منهج نبوي كريم يتعلم منه كل مسؤول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ، ومراكز الإشاعات المضلّلة ، التي تُلحِقُ الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول ؛ لأن التردُّد في مثل هذه الأمور يُعرِّض الأمن والأمان إلى خطر ، ويُنذِر بزوالِها[1].

(١) ينظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، أحمد ، مهدي رزق الله ، (ط١، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٢م) ، (ص ٢١٨) . (ص ٢١٨) .

المبحث الثاني
ولاية الكافرين ومناصرتهم

المطلب الأول : أقوال العلماء في حكم ولاية الكافرين ومناصرتهم :

إن من ضرورة البيانِ ، وكمالِ البلاغ ، التذكيرَ بخطورة موالاة المشركين ، وعقوبةَ الخروج عن هذا الأصل العظيم ، مع بيان آثاره الوخيمة على الإسلام وأهله ؛ حتى نستطيعَ أن نضعَ أيدينا على علّة وصول الأمة إلى الحالة المزرية ؛ من الخسار ، والانكسار بين يدي الأعداء ؛ جرّاءَ التفريط في القيام بحقوق هذا الأصل الأصيل .

وما نحن فيه اليوم من تسلط اليهود والنصارى والمنافقين علينا ، ومِن سلْبٍ لمقدساتنا ، وسفكٍ لدمائنا ، وحرْقٍ لمساجدنا ، وانتهاكٍ لأعراضنا من قبل اليهود والنصارى والباطنيين . ما ذلك كلُّه إلا بالوقوع في موالاة أعداء الله تعالى ، واتخاذهم أولياء من دون المسلمين ، واتخاذهم مشرِّعين من دون الله تعالى ، واتخاذِهم أصدقاء وأحبابَ ، وأخلاّءَ وبِطانةً . والله ينهى عن كلّ ذلك في كتابه ؛ حيث نهى عبادَه المؤمنين ، وحذرهم من الوقوع في ذلك قائلًا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1]

إنّ نُصرةَ الكافرين على المسلمين بأيّ نوع من أنواع النُّصْرة أو المعاونة ؛ ولو كانت بالكلامِ المجرَّدِ ، هي كفرٌ بواح ، ونِفاقٌ صُراح ، وصاحبُها كافرٌ مرتدٌّ عن الإسلام . فقد أجْمع علماء الإسلام على أنّ من

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٨

ظاهَر الكفار على المسلمين ، وساعدهم بأي نوع من أنواع المساعدة ، فهو كافرٌ مثلهم[١] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] .

وفي ما يأتي بعض أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية :

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره :" قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ ﴾ أي : يعضدهم على المسلمين ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ : بيَّن تعالى أنّ حُكمه كحكمِهم. وهو يمْنَعُ إثبات الميراث للمسلم من المرتدِّ . وكان الذي تولاهم ابنُ أُبيٍّ . ثم هذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة في قطْع الموالاة"[٣] .

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله في تفسيره: " نهى تعالى المؤمنين من موالاة اليهود والنصارى ، ينصرونهم ويستنصرون بهم ، ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين ... بعضهم أولياء بعض ، جملة من النهي مشعرة بعلة الولاية : وهو اجتماعهم في الكفر والممالأة على المؤمنين" [٤].

وقال الآلوسي رحمه الله في تفسيره : " ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب

---

(١) ينظر : نواقض الإسلام (ص٢٤) .

(٢) المائدة ، الآية ٥١

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢١٧/٦)

(٤) ينظر : البحر المحيط ، محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ) ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣م) (٢٩١/٦) .

يعم حكمه المؤمنين كافة ... ووصفهم بعنوان الإيمان ، لحملهم أول الأمر على الانزجار عن ما نهوا بقوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ فإن تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما ، أي : لا يتخذ أحد منكم أحدًا منهم وليًا بمعنى : لا تصافوهم مصافاة الأحباب ولا تستنصروهم ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، حكم صريح أن من تولى اليهود والنصارى منكم أيها المؤمنين فقد فَقَدَ هذا الوصف ، وهو وصف الإيمان ، وانتقل من طرف منكم أي : أهل الإيمان ، إلى طرف منهم أي : اليهود والنصارى ، وليس بعد هذا الحكم الإلهي حكم ، ولا بعد هذا الوضوح وضوح "[1].

وأخرج عبد بن حميد في تفسيره عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال : "ليتق أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا ، وهو لا يشعر " ، وتلا هذه الآية : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[2] .

وقال الشوكاني رحمه الله في تفسيره [3] : " قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، أي فإنه من جملتهم ، وفي عدادهم ، وهو وعيد شديد ، فإن المعصية الموجبة للكفر هي التي بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية " ،

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الآلوسي ، أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني ، (ت ١٢٧٠هـ) ، (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت) .

(٢) ينظر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٣هـ) ، (٣/١٠٠) .

(٣) ينظر : فتح القدير (٢/ ٥٠- ٥١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾[١] ، وهذا شروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن مولاة الكافرين من المسلم كفر ، وذلك نوع من أنواع الردة " .

وقد ألّف العلماء في هذه المسألة التآليف ، وأفردوا لها التصانيف ، وكلامُهم في حكم المنافقين الذين يناصرون الكفار لا يمكن حصْرُه . فنذكر منهم :

أولاً : ابن حزم –رحمه الله– :

قال : "صحّ أنّ قوله : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾[٢] إنّما هو على ظاهره ؛ بأنه كافر في جُملة الكفار . وهذا حقٌّ لا يختلفُ فيه اثنان من المسلمين"[٣] .

ثانيًا : شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– :

استُفتِي عن قومٍ ينتسبون إلى الإسلام ، وقد أعانوا التتار عندما هاجموا بلاد المسلمين ، فأفتى –رحمه اللهُ– بردّتهم عن الإسلام ، ويُقتلون قتل المرتد[٤] . وقال :"من جمز[٥] إلى معسكر التتار ولحق بهم ، ارتدّ ، وحلّ

(١) سورة المائدة ، من الآية ٥٤

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥١

(٣) ينظر : المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار ، ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر (بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، د.ت) ، (١١/ ١٣٨) .

(٤) ينظر : مجموع الفتاوى (٥٢٠/٢٨) ؛ البداية والنهاية (١٤/١٣)

(٥) أي : ذهبَ . وجاء في حديث ماعز : (فلما أذلقته الحجارة جمز) أي : أسْرَعَ ذهابًا من

دمُه"[١] .

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في هذه المسألة العقدية الخطيرة كثيرًا ، يوم ابتُلِيت الأمة الإسلامية بالتّتار ، وبالّذين ناصروهم من المنتسبين للإسلام . وله رسائل وفتاوى كثيرة في هذا الأمر . ومما قاله أيضًا: "فمن قَفَزَ منهم إلى التتار ، كان أحقَّ بالقتال مِن كثيرٍ من التتار ؛ فإن التتار فيهم المُكرَه وغيرُ المُكْرَهِ . وقد استقرَّتْ السُّنّة بأن عقوبة المرتدّ أعظم من عقوبة الكافر الأصلي ؛ من وجوهٍ متعدّدةٍ"[٢] .

ويقول أيضًا :"وإذا كان السلف قد سمّوا مانعي الزكاة مرتدين ، ومع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين ، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله ، قاتلًا للمسلمين ؟"[٣] .

ثالثًا : الإمام البرزلي -رحمه الله- :

قال في كتاب "القضاء من النوازل" : "إنّ أميرَ المسلمين يوسفُ بن تاشفين اللمتوني -رحمه الله- استفتى علماءَ زمانه - وهم من المالكية - في استنصار ابن عباد الإشبيلي حاكمِ اشبيلية بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين . فأجابَهُ جلُّهم بردّتِهِ وكُفْرِه . وهذا في حدود عام (٤٨٠هـ) تقريبًا"[٤] .

القتل . ينظر : لسان العرب (٣٢٣/٥) مادة (جمز)

(١) ينظر : مجموع الفتاوى (٥٣٤/٢٨)

(٢) ينظر : مجموع الفتاوى (٥٣٤/٢٨)

(٣) ينظر : المصدر السابق (٢٨ / ٥٣٠)

(٤) ينظر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الناصري ، أبو العباس أحمد بن

رابعًا : ابن القيم –رحمه الله– :

قالَ موضّحًا حُكمَ الله في مَنْ يوالي الكافرين : "إنّ الله قد حَكَم – ولا أحْسَنَ من حُكمِه!!– أنّه مَن تولّى اليهود والنصارى فهو منهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان أولياؤهم مِنهم بنصِّ القرآن كان لهم حكمهم . وهذا عامٌّ . وخَصَّ مِنْهُم مَن يتولاّهم ، ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام ؛ فإنه لا يُقَرُّ ، ولا تُقبل منه الجزية ؛ بل الإسلام ، أو السيف . لأنّه مُرتدٌّ بالنّصِّ والإجماع"[(١)] .

خامسًا : الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– :

ذَكَر من نواقض الإسلام [(٢)] العشرةِ النّاقضَ الثّامِنَ ، فقال :"النّاقضُ الثامن : مظاهرةُ المشركين ، ومعاونتُهم على المسلمين . والدليل : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾

وقال : إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ، ولو وحّد اللهَ وترَكَ الشّركَ ؛ إلا بعداوة المشركين . كما قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ

خالد ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، (ط١، الدار البيضاء ، دار الكتب ، ١٩٩٧م) (٧٥/٢) .

(١) ينظر : أحكام أهل الذمة ، ابن القيم ، تحقيق : صبحي الصالح ، (ط٣، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٣م) ؛ (ص٦٧/١ – ٦٩) ؛ الولاء والبراء ، القحطاني ، محمد بن سعيد ، (ط١، الرياض ، دار طيبة للنشر ١٤٠٢هـ) بتصرف يسير ، (ص٢٣٣– ٢٣٦) .

(٢) ينظر : الواجبات المتحتمات ، (ص ٥)

إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]

وقال -رحمه الله- :"أصلُ دينِ الإسلام وقاعدتُه أمران :

الأول : الأمر بعبادة الله وحدَه ، والتحريضُ على ذلك ، والموادّة فيه ، وتكفيرُ مَن تَرَكَهُ .

الثاني : النهي عن الشرك بالله في عبادته ، والتغليظ فيه ، والمعاداةُ فيه، وتكفير مَن فَعَلَهُ .

سادسًا : العلامة حمد بن عتيق -رحمه الله- :

قال : "فأمّا مُعاداةُ الكفّارِ والمشركين ، فاعْلمْ أنّ الله ﷻ قد أوجب ذلك ، وأكّد إيجابه ، وحرَّم موالاتَهم ، وشدَّد فيها ؛ حتى إنّه ليس في كتاب الله حُكم فيه من الأدلّة أكثر ولا أبْيَنُ مِن هذا الحكم ؛ بعد وجوب التوحيدِ ، وتحريم ضِدّه"[2] .

وقال :"قد دلّ القرآن والسنة على أن المسلمَ إذا حصلتْ منه موالاةُ أهل الشرك والانقياد لهم ؛ ارتدَّ بذلك عن دين الله . فتأمّل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ

(١) سورة المجادلة ، الآية ٢٢

(٢) ينظر : سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك ، حمد بن عتيق ، (ط١، الرياض ، ١٤١٤هـ) ، (ص٢٤) .

لَهُمْ ﴾[١] مع قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وأَمْعِنْ النظرَ في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[٢]

سابعًا : الشيخ عبد الرحمن بن حسن –رحمه الله– :

قال : "أجْمَعَ العلماءُ سلفًا وخلفًا من الصحابة والتابعين والأئمة ، وجميعُ أهل السنة : أنّ المرءَ لا يكون مسلمًا إلا بالتجرُّدِ من الشرك الأكبر ، والبراءةِ منه ، ومِنْ مَنْ فَعلَهُ ، وبُغضِهم ، ومعاداتِهم ؛ بحسب الطاقة ، والقدرةِ ، والإخلاص . والأعمالُ كلها لله"[٣] .

ثامنًا : الإمام سفيان الثوري –رحمه الله– :

قال : "مَنْ لاقَ لهم بالدَّواةِ ، أو بَرى لهم قَلمًا ، أو ناولَهم قِرْطاسًا ؛ فهو منهم"[٤]

(١) سورة محمد ، الآية ٢٥

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٠

(٣) ينظر : الدرر السنية (١١/٥٤٥)

(٤) ينظر : مجموع الفتاوى (٧/٦٤)

تاسعًا : الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ[١] :

قال : "التولّي كُفْرٌ يُخرِجُ من الملة . وهو كالذَّبِّ عنهم ، وإعانتِهم بالمالِ ، والبدنِ ، والرّأْيِ"[٢] .

عاشرًا : الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز –رحمه الله– :

قال :"وقد أجْمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين ، وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة ، فهو كافر مثلهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣] .

حادي عشر : أحمد محمد شاكر –رحمه الله– :

محدّث الديار المصرية . قال –في كتابه "كلمة حق"، تحت عنوان : بيان إلى الأمة المصرية خاصة وإلى الأمة العربية والإسلامية عامة ، في بيان حكم التعاون مع الإنجليز والفرنسيين ، أثناء عدوانهم على المسلمين– : "أمّا التعاون مع الإنجليز بأيّ نوع من أنواع التعاون ، قلّ أو كثُر ، فهو الردّة

(١) هو : عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب . من علماء نجد ، نشأ في الإحساء ، ودرس في الرياض ، وتتلمذ على يديه خلق كثير ، وله بعض الفتاوى والرسائل . توفي في الرياض سنة (١٣٣٩هـ) يُنظَر : تاريخ علماء نجد، آل بسام ، عبد الله بن عبد الرحمن ، (ط٢، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤١٩هـ) (٧٨/١)

(٢) ينظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، مجموعة رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام ، جمع عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمي النجدي (ت ١٣٩٢هـ) ، (ط٢ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٦٥م) (٢٠١/٧)

(٣) ينظر : العقيدة الصحيحة ، ص (٧) .

الجامحةُ ، والكُفْر الصُّراحُ . لا يُقبل فيه اعتذارٌ ، ولا ينفع معه تأوُّلٌ ، ولا يُنجي مِن حُكمِه عَصِبيَّةٌ حمقاءُ ، ولا سياسةٌ خرْقاءُ ، ولا مجاملةٌ هي النفاقُ ؛ سواءً أكان ذلك من أفرادٍ ، أو حكوماتٍ ، أو زعماءُ . كلُّهم في الكُفْرِ والرِّدَّةِ سواءٌ ؛ إلاّ مَن جَهِلَ ، أو أخْطأَ ، ثم اسْتدركَ أمرَهُ ، فتابَ ، وأخذَ سبيلَ المؤمنين . فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم ، إنْ أخلصوا لله ، لا للسياسةِ ، ولا للنّاس.

وأظنني قد استطعت الإبانة عن حكم قتال الإنجليز ، وعن حكم التعاون معهم بأي لون من ألوان التعاون أو المعاملة ، حتى يستطيع أن يفقهه كل مسلم يقرأ العربية ، من أي طبقات الناس كان ، وفي أي بقعة من الأرض يكون .

وأظنُّ أنّ كلّ قارئ لا يشك الآن في أنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى بيان أو دليل : أنّ شأن الفرنسيين في هذا المعنى شأنُ الإنجليز ، بالنسبة لكل مسلم على وجه الأرض ؛ فإنّ عداءَ الفرنسيين للمسلمين ، وعصبيتُهم الجامحة في العمل على محو الإسلام ، وعلى حرب الإسلام أضعافُ عصبيةِ الإنجليز وعدائِهم . بل هم حمقى في العصبية والعداء ، وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي لهم فيه حُكم أو نفوذٌ ، ويرتكبون الجرائم والفظائع ما تصغُر معه جرائم الإنجليز ووحشيتهم وتتضاءلُ ، فهم والإنجليز في الحكم سواء ، ودماؤهم وأموالهم حلالٌ في كلِّ مكانٍ . ولا يجوز للمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنواع التعاون ، وإنّ التعاون معهم حكمه حكم التعاون مع الإنجليز : الرِّدّةُ ، والخروجُ من الإسلام جُملةً ؛ أيًّا كانَ لونُ التعاوُن ، أو نوعُه ، أو جِنْسُه....

ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض : أنه إذا تَعاون مع أعداء الإسلام ، مستعبدي المسلمين ؛ من الإنجليزِ ، والفرنسيينِ ،

وأحلافِهم، وأشباهِهم ، بأيّ نوعٍ من أنواع التعاوُنِ ، أو سالَمَهُم فلم يحاربهم بما استطاع ؛ فضلًا عن أنْ ينصرَهم بالقولِ أو العمل على إخوانهم في الدين: إنّه إنْ فعل شيئًا من ذلكَ ثم صلى فصلاته باطلة ، أو تطهّر بوضوءٍ أو غُسلٍ أو تيمُّمٍ ، فطهورُه باطل ، أو صام فرضًا أو نفلًا فصومُه باطلٌ ، أو حجَّ فحجُّه باطلٌ ، أو أدّى زكاةً مفروضةً ، أو أخْرَج صدقة تطوعًا فزكاته باطلة مردودةٌ عليه ، أو تعبّد لربه بأي عبادة ، فعبادته باطلة مردودة عليه ، ليس له شيء من ذلك أجر ، بل عليه فيه الإثْمُ والوِزْرُ .

ألا فليعلم كل مسلم : أنه إذا ركب هذا المركب الدنيء حبط عمله ، من كل عبادة تعبد بها لربه قبل أن يرتكس في حمأة هذه الرِّدّة التي رضيها لنفسه . ومعاذ الله أن يرضى بها مسلم حقيق بهذا الوصف العظيم ، يؤمن بالله وبرسوله . ذلك بأن الإيمان شرط في صحة كل عبادة وفي قبولها ، كما هو بديهي معلوم من الدين بالضرورة ، لا يخالف فيه أحد من المسلمين ، وذلك بأن الله ﷻ يقول : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]

ألا فليعلم كل مسلم وكل مسلمة : أن هؤلاء الذين يخرجون على دينهم ، ويناصرون أعداءهم : مَن تزوّج منهم فزواجه باطل بطلانًا أصليًا ، لا يلحقه تصحيح ، ولا يترتّب عليه أي أثر من آثار النكاح ، مِنْ ثبوت نسب وميراث وغير ذلك . وأنّ من كان متزوجًا منهم بطل زواجُه كذلك . وأنّ من تاب منهم ورجع إلى ربه وإلى دينه ، وحارب عدوه ونصر أمته ، لم تكن المرأةُ التي تزوجها حال الرِّدّة ، ولم تكن المرأةُ ارتدّت وهي في عقد نكاحه زوجًا له ، ولا هي في عصمته ، وأنه يجبُ عليه بعد التوبة أن يستأنف زواجه

(١) سورة المائدة ، الآية ٥ .

بها ، فيعقِد عليها عقدًا صحيحًا شرعيًا ، كما هو بديهي واضح .

ألا فَلْتَحْتَطْ النساءُ المسلمات ، في أي بقعة من بقاع الأرض ، وليتوثَّقْن قبل الزواج من أن الذين يتقدمون لنكاحهن ليسوا من هذه الفئة المنبوذة الخارجة عن الدين ؛ حِيطةً لأنفسهن ولأعراضهن أنْ يعاشرْن رجالًا يظنّونهم أزواجًا وليسوا بأزواج ، فإنّ زواجَهم باطل في دين الله .

ألا فليعلم النساء المسلمات اللائي ابتلاهن الله بأزواج ارتكسوا في حمأة هذه الردة : أنه قد بطل نكاحهن ، وصِرْن محرَّماتٍ على هؤلاء الرجال؛ ليسوا لهن بأزواج ، حتى يتوبوا توبة صحيحة عمليةً ، ثم يتزوجوهن زواجًا جديدًا صحيحًا .

ألا فليعلم النساء المسلمات : أنّ مَنْ رَضِيَتْ منهن بالزواج من رجلٍ هذه حالُه ، وهي تعلم حالَه ، أو رضيت بالبقاء مع زوجٍ تعرف فيه هذه الرّدّةَ ؛ فإنّ حكمها وحكمه في الرّدّةِ سواءٌ . ومعاذ الله أن ترضى النساء المسلمات لأنفسهن ، ولأعراضهن ، ولأنساب أولادِهن ، ولدينهنّ شيئًا من هذا .

ألا إنّ الأمر جِدٌّ وليس بالهزل ، وما يغني فيه قانون يصدر بعقوبة المتعاونين مع الأعداء ، فما أكثر الحيل للخروج من نصوص القوانين ، وما أكثر الطرق لتبرئة المجرمين بالشبهة المصطنعة ، وباللحن في الحجة . ولكن الأمة مسئولة عن إقامة دينها ، والعمل على نصرته في كل وقت وحين . والأفراد مسؤولون بين يدي الله يوم القيامة عما تجترحه أيديهم ، وعما تنطوي عليه قلوبهم .

فلينظر كل امرئٍ لنفسه ، وليكن سياجًا لدينه من عبث العابثين ، وخيانة الخائنين . وكل مسلم إنما هو على ثغر من ثغور الإسلام ، فليحذرْ أن يُؤتى الإسلام مِن قِبَلِه . وإنما النصر من عند الله ، ولينصُرنّ اللهُ من

ينصرُه"[١].

المطلب الثاني : تحريم موالاة المنافقين :

حرّمَ اللهُ ﷻ على المؤمنين مُوالاةَ المنافقين ؛ لأنّ الولاية لا تكون إلا بين المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾[٢] فنهى –سبحانه- في هذه الآية عن موالاتهم ثلاث مرات ؛ تأكيدًا للتحذير منهم ؛ إذ ليس في وَلايتهم للمؤمنين أدنى خير أو نفع .

وفي هذا الإطار ، النهي عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾[٣]

ولمّا منع الله المؤمنين أن يتخذوا المنافقين بطانةً ؛ ذَكَرَ عِلّة ذلك النّهي، وحَصَرَها في ثمانية أمور :

---

(١) ينظر : كلمة حق ، (القاهرة ، مكتبة السنة ، د.ت) ، (ص٨٧ – ٨٩) ، بتصرف .

(٢) سورة النساء ، الآية ٨٩

(٣) سورة آل عمران ، الآيات ١١٨ – ١٢٠

١- لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا .

٢- وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ .

٣- قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ .

٤- وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ .

٥- هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ .

٦-وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ .

٧- إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ .

٨- وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا .

وهذا تحذير للجماعة المسلمة مِنْ أنْ تتخذ من الأعداء بِطانة ، أو أُمَناء على الأسرار والمصالح ؛ لِما يُضمِرونه للإسلام والمسلمين من الشّر المُبَيَّت ، والنوايا السيئة التي تملأ صدورهم

وهذا التحذير لم يكن مقصورًا على مدةٍ معيّنةٍ ؛ بل هي حقيقة دائمة تستعرضها اليوم وغداً في من حول الجماعة المسلمة من الأعداء ، الذين يتظاهرون للمسلمين بالمودة ، وهم لا يقصّرون في إيذاء المسلمين

نرى في هذا العصر كثيرًا ممن يدّعي الإسلام ؛ لا يتّخذ بطانةً ، ولا يصادق أو يوالي إلا هؤلاء المنافقين ، ولا يجالس إلا هؤلاء المشككين في الإسلام والدين . ثم يجعلون خاصّةَ مجالسهم من هذه الطبقة من المنافقين ، ويُبعِدُون عنهم كل مُوحِّد ، ويَنْفِرُون مِن كلّ مُلتزِمٍ بدين اللهِ .

إن اصطفاء المنافقين من دون المؤمنين هو إعلانُ الولاء لهم ،

ومحبّتُهم ، وودُّهم . وهو في الوقت نفسه تصريحٌ بالبراءة من المسلمين ، والعداوة لهم . فلا يجتمع في قلب مسلمٍ واحدٍ حُبٌّ لأهل الإيمان ، وحُبٌّ لأهل النفاق . فهما ضِدّانِ ، ولا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ . فإمّا الحب للإيمان والموالاةُ لأهله ، وإمّا الحبُّ للنفاق والموالاة لأهله .

إذنْ ؛ لابدّ من تحديدِ الصفّ ، وبيانِ الهُوِيّة ، وإعلانِ المنهج ، ورفْعِ رايةٍ مجرّدةٍ ، واعتناقِ دينٍ واحدٍ ؛ لكي يُعرَف المسلم الحقُّ من الكافرِ والمنافق ، ولتُحدَّدَ وتُحقَّقَ قضيةُ الولاءِ والبراءِ وتكونَ عن بيّنةٍ ؛ ليُحِقَّ اللهُ الحقَّ بكلماتِه ، ويمحقَ الكافرين ، ويَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطّيب .

يقول **الأستاذ سيد قطب رحمه الله** :"إن موالاة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله تعالى ، والنُّكولُ عن هذا الاختيار العظيم ، والتخلّي عن هذا التفضُّل الجميل "[1] ؟

إن موالاة هؤلاء المنافقين ما هو إلا حبٌّ ورِضًى بعقيدتهم ، ودخولٌ في دينهم ، والحياةُ على مِلَّتِهم ، والسيرُ على منهجهم . وهو في الوقت نفسه خيانةٌ للدين ، وخروجٌ عن الملة ، وطعْنٌ في العقيدة ، وخداعٌ للمؤمنين .

لقد نهانا الله تعالى عن ولاء المنافقين ، وأمَرَنا بِضده ؛ مِن جهادِهم : والغلظةِ عليهم ، والشِّدةِ معهم ، وازدرائِهم واحتقارهم . قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] . هذا هو أمر الله لنبيه ﷺ ، وللأمة بمجاهدة الكفار والمنافقين ، والغلظة عليهم . وقد قرَنَ ﷻ هذه الغلظة بمجاهدة الكفار ؛ فدلّ

(١) ينظر : في ظلال القرآن ، (ط١ ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٢م) ، (٩٠٨/٢) .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٧٣

ذلك على أن الغلظة على المنافقين نوع من أنواع الجهاد الذي أمر الله به . فالغلظة على المنافقين هي : إعلان البراءةِ منهم ، ومِن نفاقهم .

وكذلك يُحرم أشد التحريم تَوْلِيةُ المنافقين منصبًا في مراكز الدولة ؛ فالمنافقون لا تتوفّر فيهم الأمانة ؛ لانعدام الوازع الديني عندهم . فإنهم إذا استلموا مراكز حساسة في الدولة الإسلامية أفسدوا في الأرض .

فالمنافقون لا يُستشارون ، ولا يُوَلَّوْن مسؤوليةً ؛ بحيث يكون لهم الأمر على المسلمين . وفي التاريخ الإسلامي ما يؤيد قولنا هذا .

الفصل الثاني

أساليب المنافقين في غزوة بني المصطلق

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : **أسلوب المنافقين في إثارة النعرة القبلية بين المهاجرين والأنصار .**
- المبحث الثاني : **أسلوب الخوض في أعراض المؤمنين وتشويه سمعتهم (حادثة الإفك) .**
- المبحث الثالث : **أسلوب المنافقين في الصد عن الإنفاق والدعوة إلى البخل والجبن .**

المبحث الأول

أسلوب المنافقين في إثارة النعرة القبلية بين المهاجرين والأنصار

من المواقف التي كانت ملازمة للمنافقين ومنهجًا ثابتًا لهم على الدوام: إثارةُ الفتن والنزاعات العشائرية في مجتمع المدينة ، وفي جيش المسلمين ؛ ولا سيما عند خروج الجيش للجهاد .

ففي غزوة بني المصطلق[1] كاد زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أنْ يُشْعِلَ حربًا طاحنة بين المسلمين (المهاجرين والأنصار) وذلك أن

---

(١) غزوة بني المصطلق وقعت في شعبان من السنة (٥هـ) على ما رجّحه بعض المؤرّخين .

وبنو المصطلق : بطن من خزاعة من القحطانيين ، الذين نزحوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب ، لهم في الجاهلية وقائع مشهورة مع هذيل من القبائل العدنانية . واسم المصطلق : جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة . وتسمى الغزوة أيضاً بـ"المريسيع" وهو : ماء لبني المصطلق من ناحية قديد على الساحل ، قريب من مكة .

ينظر : الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ) ، (بيروت ، دار صادر ، د.ت) (٦٤/٢) ؛ تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ط٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣م) ، (١٠٤/٢) ؛ السنن الكبرى ، البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا (٥٤/٩) مكة المكرمة ، مكتبة دار الباز ، ١٩٩٤م) ؛ المقتضب من كتاب جمهرة النسب ، الحموي ، أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ) ، تحقيق ناجي حسن ، (ص ٢٣٤) (ط١ ، بيروت ، الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٧م) ؛ مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٦٥) ؛ زاد المعاد (١١٢/٢) ؛ فتح الباري (٤٣٠/٧)

رجلًا من غفار[١] حليفًا للمهاجرين اسمُهُ جَهْجاه[٢] ، وسنان بن وبرة الجهني[٣] تخاصما على الماء ، فصرخ الغفاري مستغيثًا : يالكنانة ! وصرخ الجهني : يا للأنصار ! وعندها أقبل جمْعٌ من الفريقين (الأنصار ، وقريش) وقد شهروا السلاح حميّةً ، فكادت تحدُث فتنةٌ دامية ، لولا أن رسول الله ﷺ بادَرَ بالخروج إلى مكان الحادث ، وقضى على الفتنة بحكمته المعروفة ؛ إذ وقف ﷺ في ذلك الحشد من المسلمين مستنكرًا ما حدث قائلًا : (**ما بال دعوى الجاهلية؟**) (أي : تلك الكلمة القبلية التقليدية : يالفلان) ، فقالوا : رجلٌ من المهاجرين ضرب رجلًا من الأنصار . فقال : (**دعوها**) أي : دعوى العنصرية الجاهلية . (**فإنها مُنْتِنَة . من ادّعى دعوى الجاهلية كان من جُثَي جهنم**) قيل : يا رسول الله ، وإن صام ، وإنْ صلّى ، وزعم أنّه مسلم . قال : (**وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم**)[٤]

وقد انتهت الفتنة ، لا سيما أن الأنصاري المضروب تنازل عن حقه لدى المهاجري ، فماتت بذلك الفتنة .

لكن انتهاء الأمور على هذا النحو ، وبهذه السرعة لم يَرُقْ لرأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذي كان موجودًا في الجيش مع المسلمين ، فقد عَدّ مثلَ هذا الحادث فرصةَ المنافقين الذهبية لإذكاء نيران الفتنة بين أصحاب النبي ﷺ ، لكن هذه الفرصة فاتت على المنافقين بتصالُح

(١) قبيلة معروفة يعود نسبها إلى كنانة بن خزيمة . ينظر: المقتضب ، ص (٨١)

(٢) ابن مسعود الغفاري رضي الله عنه . شهد بيعة الرضوان بالحديبية ، ومات بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه بسنة . ينظر : الإصابة (١/٢٣٥)

(٣) حليف بني الحارث بن الخزرج ، صحابيٌّ مُقِلٌّ . ينظر: الإصابة(٢/ ٨٤)

(٤) ينظر : السيرة الحلبية ، الحلبي ، علي بن إبراهيم (ت ١٠٤٤هـ) ،إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعرف بـ (السيرة الحلبية) ، (مصر ، ١٣٤٩هـ)، (٢/٧٦) .

الرجلين ، وانصياع الفريقين لتوجيهات نبيهم ﷺ .

فغاظ ذلك عبدَ الله بن أبي بن سلول ، فقال – وهو في رهط من قومه الخزرج في المعسكر ، وفيهم زيد ابن أرقم[١] – وكان غلامًا صغيرًا : (قال وهو في حنق وعصبية وغيظ) : "أوَ قد فعلوها ـ يعني المهاجرين ؟! ما رأيت كاليومِ مَذَلَّةً قطُّ ... قد نافرونا وكاثَرونا في بلادنا ... والله ما أعُدَّنا وجلابيبَ[٢] قريش هذه ، إلا كما قال الأول : سمِّنْ كلبَك يأكلْكَ . أما والله لئن رجعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ . ثم أقبل رأس النفاق على من حضر من قومه ، مُذْكِيًا في نفوسهم روحَ العداء للمهاجرين ، قائلًا : "هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم [٣] . ثم قال (موجّهًا كلامه للأنصار) : ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا ، فقُتِلتم دونَه (يعني : النبي ﷺ) فأيتمتم أولادَكم ، وقَلَلْتُم وكثُروا ؛ فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من عند محمد [٤].

وفي الحال نقل زيد بن أرقم ﷺ هذا الكلام الخطير الذي فاه به رأس النفاق إلى رسول الله ﷺ ، وقد غضب الرسول ﷺ لهذا الخبر غضبًا شديدًا ، وتغيّر وجهُه ، إلا أنه ﷺ ولئلا تتسع الشقة وتحدُث فتنة في المعسكر من جديد ، أراد تلطيف الأمر ، فأظْهر شَكَّه في صِدق ما نقل إليه زيد بن أرقم

(١) أبو عمرو الخزرجي ، كانت أول مشاهده الخندق ، وقيل : المريسيع ، ثم شهد باقي الغزوات مع رسول الله ﷺ نزل الكوفة ، وبنى بها دارًا . مات سنة (٦٦هـ) ، ينظر : الإصابة (٥٦٠/١)

(٢) الجلباب ، الرداء ، وهو من ملابس الفقراء ، ينظر : لسان العرب (٢٦٦/١)

(٣) ينظر : السيرة النبوية (٢٥٤/٤)

(٤) ينظر : السيرة الحلبية (٢/ ٨٩) .

ﷺ ، وكان شابًا حديث السن ، فقال له : (**يا غلام ، لعلك غضبت عليه ؟**) ، قال : والله ، يا رسول الله ، لقد سمعته منه ، قال : (**لعله أخطأ سمعك !**)

وقد لامَ الغلامَ رجالٌ من الخزرج ، فقالوا له : عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل ؟، فقال زيد بن أرقم ﷺ : والله لقد سمعت ما قال ، ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ ، وإني لأرجو أن ينزِّل الله تعالى على نبيه ﷺ ما يصدّق حديثي .

سياسة النبي ﷺ في مواجهة الموقف من إثارة الفتنة :

أولًا : كان عبد الله بن أبي بن سلول سيدًا في قومه الخزرج ، وما كانت عداوته للنبي ﷺ وبغضه للمسلمين لتخفى على النبي ﷺ ، لكن رسول الله ﷺ لم يشأ التوسع في الموضوع ، بل حاول إسدال الستار عليه ، خشية الفتنة . وعندما طلب عمر بن الخطاب ﷺ من النبي ﷺ أن يسمح له بقتله ، وهم لما يزالوا في بني المصطلق ، رفض النبي ﷺ هذا الطلب قائلًا : (**فكيف يا عمر ؟ إذا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه !**)[1] فقال عمر : "أن يقتله مهاجري ؟ فَمُرْ أنْصارِيًا يقتله . فلم يوافق النبي ﷺ على ذلك ، بل رفض هذا الاقتراح أيضًا قائلًا لعمر : (**تَرْعَدُ له إذَنْ أُنُفٌ كثيرةٌ بيثرب**)[2]

وعنى النبي ﷺ بقوله هذا : أنّ قَتْلَ عبد الله بن أبي بن سلول على هذه الصورة قد يكون سببًا في إثارة حرب أهلية بين المسلمين ؛ لأنه كان يتوقع غضب رجال كثيرين من الخزرج بسبب قتل زعيمهم ، لاسيما وأن كثيرًا منهم لا يعلمون حقيقة نفاقه .

---

(١) ينظر : السيرة النبوية (٢٥٤/٤) ؛ صحيح البخاري (١٢٩٦/٣) حديث رقم (٣٣٣٠) ؛ صحيح مسلم (١٩٩٤/٤) حديث رقم (٢٥٨٤) الطبري : التاريخ (١٠٩/٢)

(٢) ينظر : تفسير الطبري (١١٤/٢٨)

غير أن النبي ﷺ سارع -بصفته قائدًا أعلى للجيش- إلى حسم الخطر الناجم عن تطور الأحداث المتسارع ، بأن أشغل عموم الجيش عن الخوض بهذا الحديث .

ثانيًا : أمر النبي ﷺ أن يتحرك الجيش باتجاه المدينة ، وأمر بأن يسير الجيش نحوًا من ثلاثين ساعة دونما توقف . وقصد من وراء ذلك أن يتعب الناس ، فلا يجدوا فُسحةً من الوقت للحديث عن الموضوع الذي أثاره عبد الله بن أبي بن سلول ، وهم في ديار بني المصطلق . قال ابن كثير : "ثم مشى رسول الله ﷺ يومئذ حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسّ الأرض فوقعوا نيامًا . وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي "[1].

ثالثًا : لم يواجه النبي ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول ومؤامراته المدبَّرة بالقوة واستعمال السلاح ؛ حرصًا على وحدة الصف المسلم ، لأن لابن سلول أتباعًا وأنصارًا من المسلمين مغرورين ، ولو فتك به لأرعدتْ له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له ، يدفعهم حماسهم إلى تقطيع أواصر الوحدة الإسلامية ، وليس في ذلك أية مصلحة للمسلمين ، ولا للإسلام .

إنها السياسة الشرعية الحكيمة الرشيدة في معالجة المواقف العصيبة ، في حزمٍ ، وقوّةٍ ، وبُعْدِ نَظَرٍ . وهذه البراعة في الحكمة ، والسياسة ، وتدبير الأمور متفرِّعَةٌ عن كونه ﷺ نبيًا ورسولًا إلى الناس أجمعين ؛ لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة .

وقد كان لتسامح النبي ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار ، فكان عبد

(١) ينظر : البداية والنهاية (١٥٨/٤)

الله بن أبي بن سلول بعد ذلك كلما أحدث حدَثًا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنّفونه ، ويعْرِضون قتله على النبي ﷺ فيأبى ﷺ ويصفح . فأراد ﷺ أن يكشفَ الحق عن آثار سياسته الحكيمة ، فقال : (**كيف ترى ياعمر ؟ ، أما والله لو قتلته يوم قلت لي ، لأرعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم لقتَلَتْهُ**) ، فقال عمر : " قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أمري" [١] .

رابعًا : لم يَشَأْ النبي ﷺ أن يجريَ أيُّ تحقيق فيما نُسِب إلى عبد الله بن أبي بن سلول من قولٍ خطيرٍ ، أو يتّخذ أي إجراء ضده للمقالة التي قالها ، إلا أن وجوه قوم عبد الله ابن أبي من الخزرج جاءوا إليه ، وقالوا له : "يا أبا الحُباب ، إنْ كنت قلت ما نقل عنك ، فأخبر به النبي ﷺ ، فليستغفر لك ، ولا تجحدْهُ فينزل فيك ما يكذبك . وإن كنت لم تقله ، فأْتِ رسول الله ﷺ فاعتذِر له . فحلف لقومه بالله العظيم أنّه ما قال من ذلك شيئًا ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ ، وأخذ يحلف له بالله : لم يقل شيئًا مما نَقل إليه زيد ابن أرقم ﷺ [٢] .

القرآن الكريم يكذّب مقالة عبد الله بن أُبي :

وأنزل الله ﷻ سورةً من القرآن ، بعد المقالة التي قالها عبد الله بن أبي بن سلول يوضّح فيها أمر هذا المنافق الكاذب . قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣] .

قال الشوكاني -رحمه الله- مفسرًا هذه الآية كلامًا نفيسًا ، قال : " ثم

(١) ينظر :جامع البيان للطبري (١١٦/٢٨. ١١٧)

(٢) ينظر : السيرة (٢٥٤/٤)

(٣) سورة المنافقون ، الآية ٨

ذكر سبحانه مقالة شنعاء فقال : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ ، القائل لهذه المقالة ، هو عبد الله بن أبي ، رأس المنافقين، وعني بالأعز ، نفسه ومن معه ، وبالأذل ، رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع ، رجوعهم من تلك الغزوة ، وإنما اسند القول إلى المنافقين، مع كون القائل ، هو فرد من أفرادهم ، وهو عبد الله بن أبي ، لكونه كان رئيسهم ، وصاحب أمرهم وهم راضون بما يقوله ، سامعون له مطيعون ، ثم ردَّ الله سبحانه على القائل تلك المقالة فقال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أي القوة والغلبة لله وحده ، ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده ، لا لغيرهم ، اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين ، فاجعل العزة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بما فيه النفع ، فيفعلونه ، وبما فيه الضر فيجتنبونه ، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ، ومزيد حيرتهم ، والطبع على قلوبهم "[1] .

ولما نزلت هذه السورة وفيها تأكيد ما قاله زيد بن أرقم ﷺ عن عبد الله بن أبي بن سلول ، أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال مؤكدًا صدقه : (**هذا الذي أوفى الله بأُذنه**)[2]

وقد عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة من غزوة بني المصطلق في غرة شهر رمضان ، فاستغرقت غيبته عن المدينة في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يومًا .

---

(١) ينظر : فتح القدير (٣٠٨/٥) .

(٢) المصدر نفسه (١١٦/٢٨)

*** دروس مستفادة من قصة عبد الله بن عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق :**

أولًا : ظهرت حكمة النبي ﷺ وحنكته في كيفية معالجته للموضوع ، والقضاء على أسباب الفتنة . كما وضحنا ذلك آنفًا .

ثانيًا : منهج النبي ﷺ في تربية أصحابه الكرام بنبذ العصبية القبلية ؛ لأن النفس البشرية تميل دائمًا إلى الأرض ، فوجب تربيتها حتى لا تنسلخ من الدين ، وحتى لا تركن إلى الهوى وتتبع الشهوات ، وتقع في حبائل الشيطان ؛ فهو ينزغ بين المؤمنين بالتفريق بينهم ، كما حدث ذلك بين المهاجري والأنصاري ، فقال لهم رسول الله ﷺ **(دعوها فإنها منتنة)**

ثالثًا : وضوح مَدَى بُغض المنافقين لله ولرسوله ﷺ ، وللإسلام وللمؤمنين . وظهر ذلك جليًا في موقف رأس النفاق والمنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، فإنه يود أن تكون الذلة لرسول الله ﷺ ولصحبه الكرام من المهاجرين والأنصار . وحاشا ذلك لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

رابعًا : المنافقون يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين ، وينتهزون أي فرصة لإشاعة الفوضى والفرقة بينهم ، فأرادوا بهذا الموقف بين رجلين من المسلمين أن يؤلّبوا الأنصار على المهاجرين ، ويثيروا فتنة النزعة العشائرية القبليّة التي نبذها الإسلام ، وجعل هوية المسلم وجنسيته هي عقيدته الإسلامية ، التي لا شيء فوقها .

خامسًا : غيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الدين وعلى رسول الله ﷺ ، وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يرده عن الحق رادٌ ؛ فما إن سمع مقولة ذلك المنافق حتى همَّ بضرب عنقه .

سادسًا : أدَبُ الصحابة ﷺ مع رسول الله ﷺ ، وعدمُ الإقدام على فعْلِ أيّ شيءٍ حتى يأذن لهم . وفي ذلك أدبٌ جمٌّ ، وضرْبٌ لأروع الأمثلة في الولاء والطاعة للقائد الأعلى ﷺ . ويتضح ذلك في استئذان عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير ﷺ في ضرب عنق رأس المنافقين ، وفي استئذان عمر بن الخطاب وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ في قتل رأس المنافقين ، وامتناعهم حينما منعهم .

سابعًا : تغلُّب أخوة الإسلام ورابطة العقيدة على رابطة العرق والنسب والدم ، واتّضح ذلك في موقف الصحابي الجليل صاحب العقيدة والتوحيد ، وصاحب (الولاء والبراء) ، الولاء للنبي ﷺ والبراء من أبيه المنافق ، الذي همَّ بقتله ، لأنه يعلم أن العقيدة فوق القرابة والرحم . نعم ؛ لقد أمرنا الله ﷻ بصلة الرحم وخصوصًا الوالدين ، والإحسان إليهما ، والبر بهما ، وجعل ذلك قُربةً إليه ، وأخبرنا ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث الصحيح : أنّ **الرَّحِمَ مشتقة من اسم الله تعالى ، فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله** [(١)] . ولكن إذا تعارض هذا البر وهذا الإحسان وهذه الصلة مع العقيدة ، فلا مقارنةَ ولا مفاضلةَ ؛ بل يُضرب بهذه القرابة وهذه الرحم عرْضَ الحائط . فإذا كان المقامُ مقامَ التوحيد والقضيةُ قضيةَ العقيدة ، فلا يُوضع أمامها في الكفة أيُّ شيءٍ .

ظهرت هذه العقيدة واضحةً جلية في ذلك الصحابي الجليل ، عندما

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**إن الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته**) ، ينظر : صحيح البخاري (٢٢٣٢/٥) حديث رقم (٥٦٤٣) ؛ مسند أحمد (٣٢١/١) حديث رقم (٢٩٥٦) ؛ صحيح ابن حبان (١٨٥/٢) حديث رقم (٤٤٢) ، وقوله (شجنة من الرحمن) أي : مشتقة من اسم الرحمن .

استأذن النبي ﷺ في قتل أبيه . هذه هي التربية النبوية في الولاء والبراء . ولقد قتل أبو عبيدة ﷺ أباه يوم بدر ، وهمّ أبو بكر ﷺ بقتْل ولدِه عبد الرحمن ، وقتَل مصعب بن عمير أخاه عُبيدَ بن عمير ، وقتلَ عُمَرُ وحمزةُ وعلي وعبيدة بن الحارث ﷺ أقرباءَهم وعشيرتهم ؛ متجرّدين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . فكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصوُّر الروابط والقيم في ميزان الله ﷻ . إن الولاءَ عقيدة وعبادةٌ يتعبد بها المسلم لربه ﷻ ، ويدين له بها ؛ فهي من مقتضيات لا إله إلا الله . فلا إله إلا الله تقتضي أن توالي أنصارَها ومعتنقيها ، ولا إله إلا الله تقتضي البراء ، ومعاداة من يعادي هذه الكلمة ، ومحاربة من يحاربها ، ومن لم يدِنْ بها . فهذه هي العقيدة التي فهمها الصحابة ﷺ ، وهذا هو الدين الذي تلقّوْه من رسول الله ﷺ .

يقول **الأستاذ محمد قطب -حفظه الله-** :"قد أباح الله للمسلمين في حالة الاستضعاف ألاّ يُظهِروا العداوة لأعدائهم ، ولكنّه لم يبح لهم قط أن يوالوهم ... فعدم إظهار العداوة شيءٌ ، والموالاة شيء آخر . الموالاة تشملُ مودّة القلب ، والتناصر ، والمحبة" [(١)]. وهذه لا تكون إلا بين المؤمنين بعضهم لبعض . ورأينا كيف جسّد عبد الله بن عبد الله بن أبي عقيدةَ الولاء والبراء بأروع صورها .

ثامنًا : مدى حب الصحابة ﷺ لرسول الله ﷺ . ظهر ذلك في :

١ - إصرار عبد الله بن عبد الله ألاّ يدخل المنافق عبد الله بن أبيّ -وهو أبوه- المدينةَ إلاّ إذا أذن له رسول الله ﷺ .

٢ - لا يدخل عبد الله بن أبي المدينة حتى يقول عن نفسه أنه هو

(١) ينظر : لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، (القاهرة ، مكتبة السنة ، ١٤١١هـ) ، ص ١٦٤ - ١٦٥

الأذلّ ، ورسول الله ﷺ هو الأعزّ .

٣ - فعل ذلك كلّه ، وهو شاهر السيف في وجه أبيه .

تاسعًا : مدى تبرؤ الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه، وظهر ذلك في حديثه مع رسول الله ﷺ حينما جاءه ليعرض عليه قتل أبيه ، فقال له : "إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله ابن أبي ... " ولم يقل : أبي. أو : والدي . وفي ذلك براءة من ذلك المنافق ، وحتى لا يكون في ذلك تأثير على ما يريده رسول الله ﷺ .

عاشرًا : تلطُّف النبي ﷺ بأصحابه الكرام ﷺ ، فكأن النبي ﷺ عدل عن معاقبة عبد الله بن أبي كرامة وإكرامًا لابنه عبد الله ، وأيضًا مراعاة لشعور الأنصار ، وخاصة قومه ، ولا سيما أنه لم يأمر بقتل المنافقين . فقال للصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله : (**بل نرفُق به ، ونُحْسِنُ صُحبَته ما بقي معنا**) [١]

حادي عشر : التهديد والوعيد للمنافقين ، وإن كان غير صريح ، لكن لمّح به رسول الله ﷺ في قوله : (**نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**) ففيه دلالة على أنّه بعد فراق هذه الحياة فلا رِفْق ، ولا إحسان ؛ بل العذاب والهلاك . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [٢] .

---

(١) ينظر : السيرة الحلبية (٩٢/٢) .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٥

المبحث الثاني

أسلوب الخوض في أعراض المؤمنين وتشويه سمعتهم / حادثة الإفك

عند رجوع النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق ، حاك المنافقون حادثة الإفك ، بعد أن فشل كيدهم في إثارة النعرة العشائرية بين المهاجرين والأنصار . كما سبق ذكره .

تعد حادثة الإفك من أخطر الشائعات التي رُوِّجت في المجتمع المسلم ، وكان القصد منها النيل من النبي ﷺ ، ومن أهل بيته . فوُجِّهت السهام إلى أقرب الناس من النبي ﷺ وألصقهم به ، ومِن ثَمّ ترويجها في المجتمع المسلم . وقد تولى كِبَر نَشْر هذه الإشاعة عبد الله بن أبي بن سلول . قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] وتُعدّ هذه الحادثة فريدةً في نوعها ؛ لأن تاريخ الدعوة لم يشهد لها مثيلًا من قبل ، وفي الصف المسلم بالذات .

لقد كانت حادثة الإفك معركةً خاضها رسول الله ﷺ ، وخاضتها الجماعة المسلمة ضد المنافقين يوم ذاك ، وخاضها الإسلام . فهي من أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصرًا كاظمًا لآلامه الكبار ، محتفظًا بوقار نفسه ، وعظَمَة قلبه ، وجميل صبره ، فلم تُؤْثَرْ عنه كلمةٌ واحدة تدل على نفاذ صبره ، وضعف احتماله ، والآلام التي تتناوشه ، التي لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته . والخطر على الإسلام من

(١) سورة النور ، الآية ١١

تلك الفرية التي صنعها المنافقون من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه[١] .

إن الإنسان ليقف متأمّلًا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الحقبة الأليمة في حياة رسول الله ﷺ ، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة [٢] زوجه المقرّبة ، وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة . تلك السّنّ المليئة بالحساسية المرهفة ، والرقة الشفيفة . فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة ، ها هي ذي وفي برائتها ، ووضاءة ضميرها ، ونظافة تصوراتها ؛ ها هي تُرمى في أعز ما تعتز به ، تُرمى في شرفها ؛ وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع . وتُرمى في أمانتها ، وهي زوج محمد بن عبد الله ﷺ من ذرية بني هاشم . وتُرمى في وفائها ، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير ... ثم تُرمى في إيمانها ، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام ، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة ، وهي زوج رسول الله ﷺ . ها هي ذي تُرمى وهي بريئة غِرّة غافلة ، لا تحتاط لشيء ، ولا تتوقع شيئًا ، فلا تجد ما يبرئها ، إلاّ أن ترجو من جناب الله ، وتترقّب أن يرى رسول الله ﷺ رُؤيا تبرِّئُها مما رُميت به . ولكن الوحي يتلبّث في حكمةٍ يريدها الله شهرًا كاملًا ، وفي مثل هذا العذاب[٣] .

---

(١)ينظر : في ظلال القرآن (١٢٢٠/٣)

(٢) الصديقة بنت الصديق أبي بكر بن أبي قحافة التيمي القرشي ، تزوجها رسول الله ﷺ وهي ابنة تسع سنين مناقبها جمة . كانت من أفقه النساء ، عالمة بالشعر والأنساب والطب ، ماتت بالمدينة سنة (٥٧هـ) ينظر : الطبقات (٥٨/٨) ؛ الاستيعاب (١٨٨١/٤) ؛ الإصابة (٣٥٩/٤)

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (١٢٢١/٣)

عائشة –رضي الله عنها– تروي القصة المؤلمة :

ولما في هذا الحادث الخطير من عِبَرٍ وعظاتٍ ، يمكن أن يستفيد منها الذين يتسرعون في رمي الأبرياء ؛ فإنّا سندع أم المؤمنين ﵂ تروي لنا قصة هذا الألم القاتل ، الذي عاشتْهُ طوال شهر كاملٍ .

قالت رضي الله عنها : " انَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ – قَالَتْ عَائِشَةُ – ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا (**غزوة بني المصطلق**)فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي ، وَأُنْزَلُ فِيهِ مَسِيرَنَا . حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِ ، وَقَفَلَ ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ ؛ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ شَأْنِي ، أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي ، فَإِذَا عِقْدِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ(١)قَدِ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي ، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي ، فَحَمَلُوا هَوْدَجِي ، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ – قَالَتْ – وَكَانَتِ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُهَبَّلْنَ ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ (٢) مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ . فَبَعَثُوا الْجَمَلَ ، وَسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي

---

(١) نوع من الخرز ، والبلد التي ينسب إليها (ظفار) في جنوب شرق اليمن . وفي رواية : (أظفار) قال ابن حجر في توجيه هذه الرواية : " فلعل عقدها من الظفر ، أحد أنواع القسط ، وهو طيب الرائحة يتبخر به) ؛ ينظر : فتح الباري (٤٥٩/٨)

(٢) بضم وفتح ، جمع علقة ، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء . ينظر : لسان العرب (٢٦٣/١٠)

كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ . فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَنِمْتُ . وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ[١] ، قَدْ عرَّس[٢] مِنْ وَرَاءِ الجيش ، فَادَّلَجَ[٣] ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي ، وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَوَاللَّهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا ، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ[٤] . وقالت : فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ .

---

(١) صحابي معروف من السابقين إلى الإسلام ، شهد الخندق والمشاهد بعدها ، كان أميرًا على ساقة الجيش في هذه الغزوة ، لذلك كان آخر من يرتحل من رجال الجيش . مات شهيدًا بأرمينية سنة (١٩هـ) ؛ ينظر : الطبقات ابن خياط ، ابن خياط ، خليفة العصفري (ت ٢٤٠هـ) ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، (ط٢ ، الرياض ، دار طيبة ، ١٩٨٢م)ص(٥١) ؛ معجم الصحابة ، ابن قانع ، أبو الحسين عبد الباقي (ت ٣٥١هـ) ، تحقيق صلاح المصراتي ، (ط١، المدينة المنورة ، مكتبة الغرباء الأثرية ، ١٤١٨هـ) ، (١٣/٢) ؛ الاستيعاب (٢/ ٧٥٢)

(٢) التعريس ، نزول القوم من آخر الليل ، ينامون فيه نومة خفيفة ، ثم يقومون مع الفجر للمواصلة السير ، ينظر : لسان العرب (١٣٦/٦)

(٣) الإدلاج : السير الليل كله . ينظر: لسان العرب (٢/ ٢٧٣)

(٤) هو : حين تَبْلُغ الشمسُ مُنْتُهاها من الارتفاع كأنها وصَلَت إلى النَّحرِ وهو أعلى الصَّدْر . يُنظَر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير ، مجد الدين المبارك محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق طاهر الزواوي ، ومحمود الطناحي ، (ط١ ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٣هـ) ، (٥/ ٢٠٨) .

قالتْ : فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، فَاشْتَكَيْتُ[١]حِينَ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ شَهْرًا ، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ ، وَلاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي ، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ، ثُمَّ يَقُولُ : (**كَيْفَ تِيكُمْ؟**) فَذَاكَ يَرِيبُنِي ، وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ . حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَ مَا نَقِهْتُ [٢] . وَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ[٣] قِبَلَ الْمَنَاصِعِ ، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا ، وَلاَ نَخْرُجُ إِلاَّ لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ . وَذَلِكَ قَبْلَ أَنَّ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا ، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّنَزُّهِ . وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا .

انتشار الدعاية بالمدينة :

قالتْ : فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ -وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ - ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَبِنْتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا ، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا [٤] ، فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٌ . فَقُلْتُ لَهَا : بِئْسَ مَا قُلْتِ ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ؟ قَالَتْ : أَيْ هَنْتَاهُ ، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : وَمَاذَا قَالَ؟ قَالَتْ : فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ ،

---

(١) أي : مرضت . والشكوى : المرض . ينظر : النهاية (٤٩٧/٢)

(٢) نَقَهَ المريضُ يَنقهُ فهو نَاقِهٌ ؛ أي : برئ ، وأفاق ، وكان قريب العهد بالمرض ، لم يرجع إليه كما ل صحته وقوته ينظر: النهاية (١١٠/٥)

(٣) سلمى بنت أبي رهم –أنيس- ابن عبد المطلب بن عبد مناف القرشية . أسلمت ، وحسن إسلامها ، وكانت من أشد الناس على ابنها مسطح حين تكلم مع أهل الإفك . ينظر : الطبقات الكبرى (٢٢٨/٨) ؛ الاستيعاب (١٢٢٤/٣) الإصابة (٤٩٦/٤)

(٤) كساء يكون من صوف ، أو من خَزٍّ . ينظر : النهاية (٤/ ٣١٩)

فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي . فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : (**كَيْفَ تِيكُمْ؟**) قُلْتُ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ . قَالَتْ : وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا. فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

قالت : فَجِئْتُ أَبَوَيَّ ، فَقُلْتُ لأُمِّي : يَا أُمَّتَاهْ ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ ، إِلاَّ كَثَّرْنَ عَلَيْهَا - قَالَتْ - قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قَالَتْ : فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ ، لاَ يَرْقَأُ[1] لِي دَمْعٌ ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ[2] ، ثُمّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي .

استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخر نزول الوحي :

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ - قَالَتْ - فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هُمْ أَهْلُكَ ، وَلاَ نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ : لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ - قَالَتْ - فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ[3] قَالَ : (**أَيْ بَرِيرَةُ ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ ؟**) قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، إِنْ رَأَيْتُ

---

(١) رقأ الدمع : جفّ ، وانقطع . ينظر : لسان العرب (٨٨/١)

(٢) استعارةٌ عن السهر . ينظر : فتح الباري (٤٦٧/٨)

(٣) كانت مولاة لبعض الأنصار ، فاشترتها عائشة ﵂ ، ثم أعتقتها . تأخرت وفاتها إلى زمن معاوية ﵁ . ينظر : الطبقات الكبرى (٢٥٦/٨) ؛ الاستيعاب (١٧٩٥/٤) ؛ الإصابة (٤/ ٢٥١)

عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ[١] عَلَيها أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ[٢] فَتَأكُلُه .

رسول الله ﷺ يطلب كف أذى رأس النفاق :

قالَتْ : فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : (**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِيَّ أَهْلِ بَيْتِي ؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ مَعِي**)

قالت : فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه[٣] فَقَالَ : أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ . قَالَتْ : فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ[٤] رضي الله عنه وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَلَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ : كَذَبْتَ

---

(١) أي : أعيبها عليه ، وأطعن عليها به . ينظر : لسان العرب (١٦١/٧) ؛ فتح الباري (٤٨٨/٨)

(٢) كل ما يؤلف في البيوت من الطير ، وغيره . وتعني به هنا : الشاة . ينظر : لسان العرب (١٤٨/١٣) ؛ فتح الباري (٤٨٨/٨)

(٣) الأوسي الأشهلي ، الصحابي الجليل ، شهد بدرًا وما بعدها من الغزوات ، واستشهد في غزوة الخندق ، أصابه سهم كان به حتفه ، فاهتز له عرش الرحمن فرحًا بمقدمه . ينظر : طبقات ابن خليفة ، ص (٧٧) ؛ الطبقات الكبرى (٤٢٠/٣) ؛ الاستيعاب (٦٠٢/٢)

(٤) الساعدي ، نقيب بني ساعدة ، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد ، خرج إلى الشام في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومات بها سنة (١٥هـ) . ينظر : طبقات ابن خليفة ، ص (٩٧) ؛ الطبقات الكبرى (٣٨٩/٣) الاستيعاب (٥٩٤/٢)

لَعَمْرُ اللَّهِ ، لاَ تَقْتُلُهُ ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ . فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ[1] وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ : كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لَنَقْتُلَنَّهُ ؛ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ .

كادت الفتنة أن تنشب بين الأوس والخزرج :

قالت : فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا (**وهذا غاية ما يتمناه ويسعى عبد الله بن أبي بن سلول وحزبه من المنافقين واليهود**) وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يخْفِضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ .

قَالَتْ : وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ، ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي الْمُقْبِلَةَ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ . وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي . فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي ، اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَأَذِنْتُ لَهَا ، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي .

قالت : فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ جَلَسَ . قَالَتْ : وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ . وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ . قَالَتْ : فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ، ثُمَّ قَالَ : (**أَمَّا بَعْدُ ، يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ، وَتُوبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ**)

---

(١) الأنصاري الأشهلي ، صحابي جليل ، من السابقين إلى الإسلام ، كان شريفًا كاملًا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد ، ومات في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ سنة (٢٠هـ) ،ينظر الاستيعاب (٩٢/١) ؛ الإصابة (٤٩/١)

قَالَتْ : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي ، حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً . فَقُلْتُ لأَبِي : أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ . فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ لأُمِي : أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قالت عائشة : فَقُلْتُ -وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ- : إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ ؛ فَإِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ؛ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ . وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ؛ لَتُصَدِّقُونَنِي . وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلاَّ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1]

قَالَتْ : ثُمَّ تَحَوَّلْتُ ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي . قَالَتْ : وَأَنَا وَاللَّهِ حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى .

نزول الوحي ببراءة عائشة –رضي الله عنها- :

قالت : وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا رَامَ[2] مَجْلِسَهُ ، وَلاَ خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ

(١) سورة يوسف ، من الآية (١٨)

(٢) أي : برح وزال عن مكانه . ابن الأثير : النهاية (٢/٢٩٠) . ينظر : لسان العرب (١٢/٢٥٨)

الْبُرَحَاءِ [١] عِنْدَ الْوَحْي ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِ ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ . قَالَتْ : فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ : (**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ**) فَقَالَتْ لِي أُمِّي : قُومِي إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلاَّ اللَّهَ ؛ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي . قَالَتْ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] .

قالت عائشة ﵂ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي : (**مَا عَلِمْتِ أَوْ مَا رَأَيْتِ؟**) فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي . وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلاَّ خَيْرًا . قَالَتْ عَائِشَةُ : وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ

---

(١) أي : الشدّة والكرْب من ثِقَلِ الوحي . ينظر : النهاية (١/١١٣) ؛ لسان العرب (٢/٤١٠)

(٢) سورة النور ، الآيات ١١ – ٢٠

تُسَامِينِي[١] مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ[٢] تُحَارِبُ لَهَا ، فَهَلَكَتْ فِي مَنْ هَلَكَ -من أصحاب الإفك- [٣].

القضاء على الفتنة :

وبذلك انتهى حديث الإفك ، وبطلَ مفعولُه ، فقُضِي على تلك الفتنة الاجتماعية التي كادت أن تذهب بوحدة المسلمين ، بل وتثير حربًا أهلية طاحنة ، فتُزلزِل بُنيان هذا الدّين الوليد . وما قصدَتْ عُصْبةُ النفاق من تضخيم حديث الإفك وإشاعته ؛ إلا تفريقَ كلمة المسلمين ؛ بإثارة النزاعات بينهم ، لأن هذه العُصْبة تعلم أن إشاعة مثل هذا الحديث الخطير سيكون مَثارَ جدلٍ واختلاف بين المسلمين ، يصل بهم إلى درجة التلاحي ، وإثارةِ النَّعَرات القديمةِ ؛ مما يكون سببًا في إثارة حرب قبلية بين الخصمين القديمين العنيدين (الأوس والخزرج)

لقد كاد ذلك يحدُث فعلًا ؛ وتلك هي الغاية الكبرى التي هدَفَ إلى تحقيقها حِزْبُ النفاق ، الذي حمل لواءَ حديث الإفك ، وقام بطُرقٍ مدروسةٍ وملتويةٍ باشاعته . فباعثُ الحديث ، هو باعثٌ سياسي ذو مَرَامٍ بعيدةٍ .

---

(١) أي : تُعالِيني . من السموّ ؛ وهو : الارتفاع ، والعُلوّ . أي : تطلب العلو والرفعة ، والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب ، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده . ينظر : النهاية (٤٠٥/٢) ؛ فتح الباري (٤٧٦/٨)

(٢) الأسدية ، كانت زوج مصعب بن عمير ﷺ ، فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها بعده طلحة بن عبيد الله ﷺ . شهدت أُحُدًا ، فكانت تسقي الجرحى وتداويهم . ينظر : الطبقات الكبرى (٢٤١/٨) ؛ الاستيعاب (١٨١٣/٤) ؛ الإصابة (٤/ ٢٧٥)

(٣) ينظر : صحيح البخاري (١٥٢١/٤) حديث رقم (٣٩١٠) ؛ صحيح مسلم (٢١٢٩/٤) حديث رقم (٢٧٧٠) صحيح ابن حبان (٢٢/١٠) حديث رقم (٤٢١٢) واللفظ لمسلم .

ويكفي لتأكيد ما نقول : أنّ مُطْلِقَ شرارةِ الفتنة هو رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي لا يزال -منذ وَطِئَتْ قدما رسول الله ﷺ المدينة المنورة- يَحِيكُ الدسائس ، وينظّم المؤامرات ضد هذا النبي الكريم ﷺ ، وضد الدّين القيّم الذي جاء به .

كيف واجه النبي ﷺ الفتنة :

ما كان للنبي ﷺ أمامَ هذا الحدث العظيم إلاّ أنْ يصبِرَ ؛ باحثًا عن حقيقة الخبرِ ، مستشيرًا أصحابه حين تأخّر نزول الوحي في فراق أهله .

إنها حكمة النبوة في مواجهة ما حدث بِرَوِيَّةٍ . كما طلب النبي ﷺ من المسلمين أن يَعْذُروه من عبد الله بن أبي بن سلول ، قائلًا وهو على المنبر : (**يا معشر المسلمين ، من يَعْذُرني مِن رجلٍ بلغ أذاه فيَّ أهلَ بيتي ، فوالله ما علمتُ على أهلِ بيتي إلا خيرًا . ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا ، وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي**) فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : "يا رسول الله ، أنا أعْذُرُكَ منه ؛ إنْ كان من الأوس ضربتُ عنقه ، وإنْ كان من إخواننا الخزرج ، أمرْتَنا ففعلْنا فيه أمْرَك" .

ولعلّ ما رآه النبي ﷺ من ثناء أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وإصرارِ الجارية بريرة رضي الله عنها على تزكيتِها (وهي أَخْبَرُ الناس بها) علاوةً على تزكية زينب بنت جحش ، الصوّامةُ القوّامةُ ، الوَرِعةُ رضي الله عنها ، هو الذي شجع النبيَّ ﷺ أنْ يقومَ فيستعذرَ من عبد الله بن أُبيّ بن سلول .

إن مثل هذه الخطوات التي اتخذها رسول الله ﷺ لتوحي بِعِظَمِ آثار هذه الإشاعة؛ سواءً ما ظهر منها أو ما خفي ، وما عَلِقَ في النفوس منها . وما أثارتْه في القلوب من بلبلةٍ ، واضطرابٍ بين المسلمين ؛ كان -ولا شكّ- أكبرَ ، وأعْظَمَ .

جاءت فتنة الإفك منطويةً على حِكمة إلهيه ، استهدفت إبراز شخصيّة النبي ﷺ، وإظهارَها صافيةً متميّزةً على ما قد يلتبس بها .

فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًا غيرَ منفصلٍ عن شخصية النبي ﷺ ، لما عاش الرسول ﷺ تلكَ المحنة بكلِّ أبعادِها شهرًا كاملًا .

إقامة الحد على المفترين للقضاء على الفتنة :

بعد نزول القرآن بتبرئة أم المؤمنين عائشة ﵂ أُجرِي تحقيقٌ مع الذين كان لهم دورٌ في إشاعة حديث الإفك ، فأقيمَ الحدُّ على رجلين وامرأة ، وهم : حسان بن ثابت[١] ، ومِسْطَحُ بنُ أُثَاثَة ، وحِمْنَةُ بنتُ جحشٍ . وقد أُقيمَ الحدّ على هؤلاء الثلاثة ، ثمانينَ جلدةً ، وجُلِد كلُّ واحدٍ منهم .

قالت عائشة رضي الله عنها : "لمّا نزل عُذري ، قام رسول الله ﷺ على المنبر ، فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلمّا نزل أمَرَ برجلين وامرأةً فضُربوا حَدَّهم"[٢].

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها : "فأمَر برجلينِ وامرأةٍ ممّن تكلّم بالفاحشة : حسّانِ ابنِ ثابت ، ومِسْطَحِ بنِ أَثَاثَةَ ، وحِمْنَةِ بنتِ جحشٍ" [٣].

---

(١) الأنصاري النجاري ، شاعر رسول الله ﷺ . عاش مائة وعشرين سنة ، ومات قبل سنة (٤٠هـ) يُنظَر : الاستيعاب (٢٥١/١) ؛ الإصابة (٣٢٦/١)

(٢) ينظر : سنن الترمذي (٣٣٦/٥) حديث رقم (٣١٨١)

(٣) ينظر : سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت)،(١٦٢/٤) حديث رقم (٤٤٧٤)؛ سنن ابن ماجة ، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، (٨٧٥/٢) حديث رقم (٢٥٦٧) ، تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن (ت١٣٥٣هـ)=

فهذه الأحاديث صريحة بأن الذين أقيم عليهم الحد ثلاثة ، وليس فيها ذِكْرٌ لعبد الله بن أُبيّ بن سلول .

قال ابن القيم : "أُقيمَ الحدّ عليهم جميعًا ، إلاّ عبد الله بن أبي"[١].

وقد قيل في تعليل عدم إقامةِ الحدّ على عبد الله بن أبي بن سلول ، أنّه لم يصرّحْ بالقذف ؛ بل كان يجمع الحديثَ ، ويستخرجُه بالبحثِ عنه .

وممن قال بذلك القاضي عياض ؛ كما ذكر ابن حجر [٢].

وقد قيل : إنّ النبي ﷺ تركَ حدَّهُ لمصلحةٍ أعظمُ من إقامته ، كما ترك قتْلَه -مع ظهور نفاقه- خشْيةً من وقوع الفتنة بسببه ؛ لأنّه مطاعٌ في قومه[٣].

لكن القول الراجح : أنّه أُقيمَ عليه الحدُّ كغيره ممن صرّح بالإفك . وما يدلّ على ذلك : ما أخرجه الطبراني عن سعيد بن جبير[٤] ، قال : "جَلَد النبي ﷺ حسانَ بن ثابت ، وعبدَ الله بن أُبَيّ ، ومِسْطحًا ، وحِمْنَةَ بنت جحشٍ؛ كلّ واحد ثمانين جلدةً ، في قذف عائشة ﵂ ، ثم تابوا بعد ذلك ؛ غير عبد

= (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت) ، (٢٧/٩) ؛ عون المعبود شرح سنن أبي داود ، العظيم آبادي ، محمد شمس الحق ، (ط٢، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ) ، (١١٣/١٢) .

(١) ينظر : زاد المعاد (١١٤/٢)

(٢) ينظر : فتح الباري (٤٨١/٨)

(٣) ينظر : المصدر نفسه (٤٨١/٨)

(٤) الوالبي ، مولاهم ، الكوفي ، الفقيه ، أحد الأعلام . سمع ابن عباس ﵄ ، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ) ،ينظر : تذكرة الحفاظ ، الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق عبد الرحمن اليماني (حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٦) (٧٦/١)

الله بن أبيّ رأسِ المنافقين ، مات على نفاقه"[١] .

والظاهر أن هذا القول هو الأرجح ؛ لأسبابٍ ، منها :

ثبت في الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن أنّ النبيَّ ﷺ أقام الحدّ على الثلاثة المذكورين ، ولا يمكن شرعًا أن يقيمَ الحدّ على بعض القَذَفَةِ ، ويَتركَ البعضَ الآخر .

أما القول بأنّ النبي ﷺ ترَك إقامةَ الحدّ على عبدِ الله بن أبيّ بن سَلولٍ ؛ لأنّه مُطاعٌ في قومه ، فربّما حصل بسبب ذلك فتنةٌ . فهو مردودٌ ؛ لأنّه إمّا أنْ يكونَ كافرًا ، فيجبُ قتْلُه رِدّةً ؛ لإعلانِه الكُفْرَ ، ولنْ يثورَ لِقَتْلِه أحدٌ ؛ لأنّه مُرتدّ . وإمّا أنْ يكونَ مُظهِرًا للإسلام ؛ فلا بدّ من إقامة الحدّ عليهِ إذا ارتكب جريمةً ؛ كغيره من المسلمين ، ولن يثور لذلك ثائرٌ . وقد كان عبد الله ابن أبيّ ابن سلول ممّن يُظهِر الإسلام ؛ نِفاقًا . لذلك لم يقتُلْه النبيُّ ﷺ مع ظُهور أَماراتِ الكفر عليه ، واقتناعِ النبي ﷺ بذلك ؛ حتى لا يتحدّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابَه . كما سبق بيانه .

أمّا أنْ يترُك إقامة الحد عليه ؛ خوفًا من قومه فهذا ما لا يمكنُ وقوعُه؛ لأنّ كَوْنَهُ مُظْهِرًا للإيمان يستلزمُ إقامةَ الحدِّ عليه إذا عصى . ثُمّ ؛ مَن هم قومُه الذين سيثورون له ؟! أليسوا من المؤمنين ؟! وهل يثور المؤمنون إذا أُقيم حدٌّ الله على واحدٍ منهم بِحَقٍّ ؛ وإنْ كان شريفًا فيهم ؟! هذا مَا لا يمكنُ وقوعُه أَلْبَتَّةَ من مؤمن حقًا .

أمَّا ترْكُ قتْلِه مع ظهور نفاقه ؛ فإنه يختلف عن هذا ، لأنه يُظهِرُ الإيمان، فحقنَ بذلك دمَه ، وليس هناكَ سبب ظاهرٌ يستوجبُ قتْلَه .

---

(١) ينظر : المعجم الكبير (١٥٢/٢٣) حديث رقم (٢٢٨) ؛ فتح الباري (٤٨١/٨)

والرسول ﷺ هو أوّل مَنْ أنكر على الأمم السابقة إقامةَ الحدّ على ضعفائهم ، وتركِ إقامته على أشرافِهم . ففي حادثِ المرأة المخزومية التي سرقتْ ؛ قال النبي ﷺ : (**أيها الناس ، إنما أهلك مَن كان قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ . وايمُ اللهِ لوْ أنّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقتْ لقطع محمّدٌ يدَها**)[1]

فكيف ينكر النبي ﷺ شيئًا ثم يرتكبه ؟، هذا ما لا يمكن حدوثُه ، ولا يليق بمقام النبوة !

أهم الآداب والأحكام التي تؤخذ من محنة الإفك :

أولًا : تبرئةُ السيدة عائشة -رضي الله عنها- من الإفك ؛ بقرآن يُتلى إلى آخر الزمان ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

قال الشيخ ابن عاشور -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية : " والإفك: اسم يدل لى كذب لا شبهة فيه ، فهو بهتان يُفجأ الناس ، وهو مشتق من الأَفك ، بفتح الهمزة ، وهو قلب الشيء ، ومنه سُمي أهل سدوم وعمورة وأدومة وصبوييم (قرى قوم لوط) أصحاب المؤتفكة ، لأن قراهم ائتفكت ، أي قُلبت ، وخسف بها ، فصار أعلاها أسفلها ، فكأن الإخبار عن الشيء

(١) ينظر : صحيح البخاري (١٢٨٢/٣) حديث رقم (٣٢٨٨) ؛ صحيح مسلم (١٣١٥/٣) حديث رقم (١٦٨٨) صحيح ابن حبان (٢٤٨/١٠) حديث رقم (٤٤٠٢)

(٢) سورة النور ، الآية (١١) .

بخلاف حالته الواقعية ، قلبًا له عن حقيقته ، فسُميّ إفكًا " [١]

ثانيًا : **تكذيب القائلين بالإفك** ، قال تعالى : ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [٢] .

ثالثًا : **النَّهْيُ عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين** ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٣]

رابعًا : **غِيرةُ الله ﷻ على عباده المؤمنين الصادقين** ، ودفاعُه عنهم ، وتهديدُه لمن يرميهم بالفحشِ ، ولعْنُهم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [٤]

قال صاحب الكشاف عند تفسير هذه الآيات : "ولو فَلَيْتَ القرآنَ كلَّه ، وفتّشْتَ عمّا أُوعِدَ العُصاة ؛ لم ترَ الله تعالى قد غلَّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أُنزِل من الآيات القوارعِ المشحونة بالوعيدِ الشديد ، والعتابِ البليغ ، والزّجْرِ العنيفِ ، واستعظامِ ما ارتُكِبَ من

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، (تونس ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م) (١٦٩/٨) .

(٢) سورة النور ، الآية (١٣) .

(٣) سورة النور ، الآية (١٩) .

(٤) سورة النور ، الآيات ٢٣ – ٢٥

ذلك ، واستفظاعِ ما أُقدِمَ عليهِ ، ما أُنزِل فيه على طرقٍ مختلفةٍ ،وأساليبَ مفتَنَّةٍ ؛ كل واحد منها كافٍ في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث لكفى بها ؛ حيث جعَلَ القَذَفَةَ ملعونين في الدّارَيْن جميعًا ، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأنّ ألسِنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبَهَتُوا ، وأنّه يوفّيهم جزاءَهم الحقَّ الواجبَ ؛ الذي هم أهْلُه"(١) .

خامسًا : **بيانُ سُنّةٍ من سُنن الله الجارية في الكون ، وهي : أن الطّيبين يجعلُهم اللهُ من نصيب الطيبات . والطيباتُ يجعلُهم الله من نصيب الطيبين** ، قال تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(٢) .

سادسًا : **بيَّن الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء المُشِيْعين لهذه التهمة الباطلة لم يعتمدوا في اتهامهم على أصلٍ مُعتَبر شرعًا** ، حيث قال تعالى : ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ أي : هلاّ أحضروا في اتهامهم هذا أربعةَ شهداء ممن تُرضى شهادتُهم ؛ يشهدون أنهم رأوا الجريمة ! فإذْ لم يأتوا بالشهداء -كما هو الحال في أهل الإفك- فأولئك في حكم الله وشريعته هم الكاذبون ، الذين بلغوا من الكذب حدًّا بالغًا ؛ كأنّ غيرَه من الكذب لا شيءَ معه .

سابعًا : **نظرًا لخطورة هذا الأمر ، أرشدَ اللهُ المؤمنين الذين لم ينُكروا خبرَ الإفك إلى الواجب الشرعي عليهم إزاء هذا الخبر الكاذب** ، فقال تعالى:

---

(١) ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل ، الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، (٣٢٣/٣) .

(٢) سورة النور ، الآية ٢٦

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هلاّ إذْ سمعتم خبرَ الإفك أنكرتموه من أوّل وهْلةٍ ، وقلتم : ما يصحّ لنا ، ولا يستقيم مع أصول ديننا أنْ ننطقَ بهذا الخبر الكاذب !.

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية : " هذا تأديب آخر بعد الأول ، الأمر بظن الخير أي : إذا ذُكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولى ينبغي الظن بهم خيرًا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك ، وسوسة أو خبالًا ، فلا ينبغي أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال :" إن الله تجاوزلأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تقل أو تعمل " [١] ، أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ، ولا نذكره لأحد ﮋ ﯙ ﯚ ﯛ ﮊ ، سبحان الله أن يُقال مثل هذا الكلام على زوجة نبيه ورسوله وحليلة خليله " [٢] .

ثامنًا : كان موقف الصحابة ﷺ من قصة الإفك موقفًا كريمًا نزيهًا ، وقد رويت عن بعضهم كلمات في تبرئة أم المؤمنين ﵂ تدلّ على وَرعِهم ، وقوّةِ إيمانهم ، كما تدلّ على نزاهة عائشة ﵂ ومقدارِ قيمتها في نفوس المؤمنين .

ومن هؤلاء : **أبو أيوب الأنصاري** [٣]﵁ . فقد ذكرت عائشة ﵂ ،

---

(١) ينظر : صحيح البخاري (٥/٢٠٢٠) حديث (٤٩٦٨)

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧٧) .

(٣) خالد بن زيد بن كليب الأنصاري النجاري ، صحابي جليل ، كثير المناقب ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد نزل النبي ﷺ في داره مقدمه المدينة . مات بأرض الروم مجاهدًا سنة (٥٠هـ) ، ينظر : طبقات ابن خياط (ص٨٩) ؛ الاستيعاب (٢/ ٤٢٤) ؛ الإصابة(١/٤٠٥)

قالتْ: "وكانتْ أم أيوب الأنصارية[١] ﷺ قالت لأبي أيوب : أما سمعتَ ما يتحدّثُ الناسُ به ؟، فحدّثَتْه بقولِ أهل الإفك فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم[٢] .

وفي رواية : أنّ أمّ أيوب قالت : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى، وذلك الكذبُ أكنتِ يا أمّ أيوب فاعلةً؟ ، قالت : لا ، والله ، ما كنت فاعلةً . قال : فعائشةُ -واللهِ - خيرٌ منكِ[٣] .

ومنهم : **سعد بن معاذ** ﷺ ، فعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ قال : يعني : ألا قلتم مثل ما قال سعد بن معاذ الأنصاري في أمر عائشة ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾[٤] .

ومنهم : **زينب بنت جحش** ﷺ ؛ فإنّها أثْنتْ على عائشةﷺ ، ولم تتّهمْها حين استشارها رسول الله ﷺ .

تاسعًا : ترتبت على حادثة الإفك أمور هامة . ومنها : **ذلك التشريع الإلهي الحكيم المتعلق بحماية المجتمع من الفوضى والانفلات** . فإنّه لمّا كان جانب العِرْض جانبًا حسّاسًا في المجتمعات التي تحافظ عليه ، أصبح يقع بسبب انتهاكها قتْلٌ ، وتفكُّكٌ في الأُسر وتشويهٌ للسُّمْعَةِ ؛ حتى تحطّ بعض الأسر العريقة في الشرف والعلو إلى الحضيض . فأراد الله ﷻ بتقديرِه

---

(١) بنت قيس بن عمرو بن امرئ القيس الخزرجية الأنصارية ، امرأة أبي أيوب الصحابي المشهور . يُنظَر : الإصابة (٤/٤٣٤)

(٢) ينظر : المعجم الكبير (٢٣/٧٦) ؛ فتح الباري (٨/٤٧٠)

(٣) ينظر : السيرة النبوية (٤/٢٦٨) ؛ تاريخ الطبري (٢/١١٤) ؛ تفسيرالقرآن العظيم لابن كثير(٣/٢٧٣)

(٤) ينظر : المعجم الكبير (٢٣/ ١٤٤)

وقوعَ ذلك الحدَثِ أن يضرب المثَل للمؤمنين بأنّ الاتهام الكاذبَ لم يبرأ منه حتى سيد البشر ﷺ ، وأسرة أبي بكر الصديق ﷺ أفضل الناسِ بعد النبي ﷺ . حتى لا يتسرّع المؤمنون في مواجهة هذا الحدث إذا ما وقعوا فيه ، فيتصرّفوا تصرُّفًا شائنًا ؛ بالقتل ، أو الطلاق -بالنسبة لمن وقعت عليهم التهمة- ، أو بإشاعة الخبر ، والظنون السيئة -لمن سمع به من المؤمنين- .

فقدّر اللهُ ﷻ وقوعَ هذا الحدث ليتحمّل من أُصيب بمثل ذلك بالصبرِ ، ويتصرف بحكمة ورويّةٍ ، وليظنّ المؤمنون بإخوانهم خيرًا ، فيكفُّوا عن الخوض في مثل هذه الأمور التي تشتهي بعض النفوس الخوض فيها ، حتى يستقيمَ المجتمع الإسلامي ، ويتطهَّرَ من إشاعة مثل هذه الأخبار السيئة ، التي تحطم كيانه الأخلاقي .

عاشرًا : بيّن الله ﷻ في محنة الإفك : كيف يأتي بالفرج والسرور بعد الشدة والبلاء . فلمّا تحيّرت الصديقة وأبوها وأمها ﷺ بماذا يجيبون ، أتاهم الله ﷻ بما تقرّ به أعينهم من الوحي الصادق على رسول الله ﷺ ، فنزل كالغيث الذي جاء بعد القحط والشدة [1] .

قال الله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإذا كان فيها شدّةٌ وألم ، ففيها من الدروس والعبر والتربية للأمة ما يفوق هذا الشرَّ بكثيرٍ . فكم ارتفعتْ عائشة ﷺ حين نزل ببراءتها قرآنٌ يُتلى إلى يوم القيامة ؟!

حادي عشر : قال **الزمخشري** في تفسير الآية السابقة : "ومعنى كونه خيرًا لهم : أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان بلاءً مبينًا ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ، بما هو

(١) ينظر : وقفات تربوية مع السيرة النبوية ، فريد ، أحمد ، (ط٧، الرياض ، دار طيبة ، ١٤٢٤هـ) ، (ص٢٨٧)

تعظيم لشأن النبي ﷺ وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين ﷺ وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف السامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها "[١] .

ثاني عشر : ومن هذه الأحكام ما نقله **القرطبي عن الإمام مالك رحمه الله قال : " من سب أبا بكر قتل ومن سب عمر قتل ، ومن سب عائشة قُتل** ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢] ، فمن سب عائشة خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قُتل ، وكل من سبها بما برأها الله به مُكذِّب لله ، ومن كذّب الله فهو كافر بالإجماع"[٣] .

ثالث عشر : وحيث كان النبي ﷺ أطيب الطيبين وخيرة الأولين ولآخرين ، تبين كون الصديقة ﷺ من أطيب الطيبات بالضرورة ، واتضح بطلان ما قيل في حقها من قبل المنافقين والباطنيين من خرافات ، لأن الله تعالى الذي برأها من فوق سبع سموات يقول : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا

---

(١) ينظر : الكشاف (٣/٢١٧.٢١٨)

(٢) سورة النور ، الآية ١٧

(٣) ينظر : التفسير : (٦/٥٠٤) ، وينظر : الصواعق المحرقة على أهل البدع والضلال والزندقة ، الهيتمي ، أحمد ابن محمد بن علي بن حجر (ت ٩٧٤هـ) ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت) ، ص (٣٨٤)

﴿ يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وهو : الجنّة [١] .

قال **ابن كثير** : أي : ما كان ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ، لأنه أطيب من كل طيّب البشر . ولو كانت خبيثةً لما صلُحت له شرعًا ، ولا قدَرًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي : عما يقول أهل الإفك ، والعدوان [٢] .

رابع عشر : أزواجُ النبي ﷺ هنّ من أهل بيته ، كما دل عليه سياق آية الأحزاب ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [٣] .

وهذه الآية من أوضح الأدلة على دخول أزواج النبي ﷺ في أهله .

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية ، مستدلًّا بدخول أزواجه ﷺ في أهل بيته ،" في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ : فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن ، لأن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ﴾ ثم قال في الخطاب نفسه لهن : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، ثم قال بعده : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي

---

(١) ينظر : محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم ، القاسمي ، جمال الدين محمد (ت ١٩١٤م) ، (ط١، بيروت ، دار إحياء العربي ، د.ت) ، (١٠٢/١٢) .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٣٧٨/٣)

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣

﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ ، وقد أجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول ، فلا يصح إخراجها بالمخصص " [١].

ومذهب أهل السنة والجماعة أنهم يتولَّوْن جميع أزواج النبي ﷺ ، ويترضون عنهنّ ، ويؤمنون أنهنّ أزواجه في الدنيا والآخرة ، وأنهنّ أمهات المؤمنين في الاحترام ، والتعظيم ، وتحريم نكاحِهن ، وأنّهن مطهّراتٌ مبرّآت من كل سوء . ويتبرؤون ممّن آذاهنّ ، أو سبّهُنّ . ويحرِّمون الطّعن فيهنّ ، وقذْفَهنّ ؛ ولا سيما خديجةُ ﵂ أمّ أكثر أولاده ، وأوّل مَن آمن به وعاضدَه في أمره ، وكانَ لها من المنزلةُ العالية .

وكذلك الصّدّيقة بنت الصديق ﵂ التي قال فيها النبي ﷺ : (**كَمُل من الرجال كثيرٌ ، ولم يكمُل من النساء إلا مريمُ ابنة عمران ، وآسيةُ امرأة فرعون ، وإنّ فضْلَ عائشة على النساء كفضْل الثريد على سائر الطعام**)[٢]

---

(١) ينظر : أضواء البيان (١١٢٢/٤) . وقد استدل ابن القيم رحمه الله بأدلة كثيرة واضحة في دخول الأزواج في الآل في كتابه (جلاء الأفهام) فقال : " وإنما دخل الأزواج في الآل ، وخصوصًا أزواج النبي ﷺ لذلك السبب ، لأن اتصالهن بالنبي غير مرتفع ، وهن محرمات على غيره في حياته وبعد مماته ، وهن زوجاته في الدنيا والآخرة ، فالسبب الذي لهن بالنبي ﷺ قائم مقام النسبية ، وقد نص النبي ﷺ على الصلاة عليهن ، وإن الصدقة تحرم عليهن ، لأنها أوساخ الناس ، وقد صان الله تعالى ذلك الجناب الرفيع وآله من كل أوساخ بني آدم . ينظر : جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ٢٠٠٣م ، ص ١٢٨ .

(٢) ينظر : صحيح البخاري (١٢٥٢/٣) حديث رقم (٣٥٥٨) ؛ صحيح مسلم (١٨٨٦/٤) حديث رقم (٢٤٣١) السنن الكبرى للنسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ) ، تحقيق : عبد الغفار البنداري وسيد كسروي ، (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩١م) ، (١٦١/٤) حديث رقم (٦٦٩٢) ؛ سنن ابن ماجه (١٠٩١/٢) حديث رقم (٣٢٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ .

ومن زوجاته :

- حفصة أم المؤمنين بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ .
- أم سلمة . ذات الهجرتين التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة.
- زينب أم المؤمنين ، التي زوّجهُ الله إياها من فوق سبع سماوات .
- صفية بنت حيي . من ولد هارون بن عمران عليه السلام .
- جويرية بنت الحارث . زعيم بني المصطلق .
- سودة بنت زمعة . التي نزلت بسببها آية الحجاب .
- أمّ حبيبة بنت أبي سفيان . زعيم قريش . التي هاجرت الهجرتين أيضًا .
- ميمونة بنت الحارث .

رضي الله عنهن أجمعين .

خامس عشر : وأخيرًا ؛ بيّن الله تعالى فظاعة هذا العمل ، وحذّر عبادَه المؤمنين من أن يعودوا لمثل هذا التصرُّف ، فينتهكوا أعراض إخوانهم المؤمنين بلا بينة ، ولا برهان : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

فضائل السيدة عائشة -رضي الله عنها- :

حفلت كتب الحديث النبوي الشريف بطائفة طيبة من فضائل أم المؤمنين ، الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها . كيف لا وقد نزل الوحي من فوق سبع سموات ببرائتها وطهارتها مما رماها به المنافقون ؟!

١- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : (**أُرِيتُكِ في المنام ثلاثَ ليال ؛ جاءني بك المَلَكُ في سُرقةٍ من حرير ، فيقول : هذه امرأتُك ، فأكْشِفُ عن وجهكِ ، فإذا أنت هي ، فأقول : إنْ يكنْ هذا من عند الله يُمْضِهِ**)[١]

٢- عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**)[٢]

٣- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ يومًا : (**يا عائشُ ، هذا جبريل يقرئك السلام**) . فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ؛ تَرى ما لا أرى)[٣]

٤- عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان النّاس يتّحرَّوْن بهداياهم يومَ عَائشةَ ، فاجتمعن صواحبي إلى أم سلمة ، فقُلن : يا أم سلمة ، إنّ الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة ، وإنّا نريد من الخير كما تريد عائشةُ ، فقولي لرسول الله ﷺ يأمرُ النّاسَ ، فيُهْدُون إليه أينما كان . فذكرتْ ذلك أمُّ سلمة ، فأعرض عنها ، ثم عاد إليها ، فأعادت الكلام ، فقالت : يا رسول الله ، إن صواحبي قد ذكرْن أنّ الناس يتحرَّوْن بهداياهم يوم عائشة ، فَأْمُرِ الناسَ أن يُهْدُوا أينما كنت . فلما كانت الثالثة ، قالت ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : (**يا أم**

---

(١) ينظر : صحيح البخاري (١٤١٥/٣) ، حديث رقم (٣٦٨٢) ؛ صحيح مسلم (١٨٨٩/٤) ، حديث رقم (٢٤٣٨)

(٢) ينظر : مسند أحمد (١٥٦/٣) حديث رقم (١٢٦١٩) ؛ صحيح البخاري (١٣٧٥/٣) حديث رقم (٣٥٥٩) ؛ صحيح مسلم (١٨٩٥/٤) حديث رقم (٢٤٤٦)

(٣) ينظر : مسند أحمد (٢٠٨/٦) حديث رقم (٢٥٧٨٧) ؛ صحيح البخاري (١٣٧٤/٣) حديث رقم (٣٥٥٧) ؛ سنن الترمذي (٥٥/٥) ، حديث (٢٦٩٣)

سلمة ، لا تؤذيني في عائشة ، فإنّه ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها)[١]

٥- عن ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها ، قال : استأذن ابنُ عباس رضي الله عنهما على عائشة رضي الله عنها ، وهي تموت ..... فسلّم ، ثم جلس ، فقال : "أبشري يا أمّ المؤمنين .... كنتِ أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه ، ولم يكن ليحبّ إلا طيبًا ، وأنزل الله ﷻ براءتَك من فوق سبع سموات، فليس في الأرض مسجدٌ إلا وهو يُتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار ، وسقطت قلادتُك ليلة الأبواء ، فاحتبس النبيّ ﷺ في المنزل والناسُ معه في ابتغائها ؛ حتى أصبح القوم وليسوا على ماء ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فكان ذلك رُخصةً للناس عامة في سبيلك ، فواللهِ إنك لمبارَكةٌ" [٢] .

٦- عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنْ كان رسول الله ﷺ ليتعذّر في مرضه : أين أنا اليوم ؟ أين أنا غدًا ؟ استبطاءً ليوم عائشة . فلما كان يومي ، قبضَهُ الله بين سحري ونحري ، ودُفِن في بيتي [٣] .

---

(١) ينظر : مسند أحمد (٢٩٣/٦) حديث رقم (٢٦٥٥٥) ؛ صحيح البخاري (١٣٧٦/٣) (٣٥٦٤) ؛ صحيح مسلم (١٨٩١/٤) حديث رقم (٢٤٤١) ؛ سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين ، (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م) ، (٧٠٣/٥) حديث رقم (٣٨٧٩) ؛ السنن الكبرى للنسائي (٢٨٤/٥) حديث رقم (٨٨٩٨)

(٢) ينظر : فضائل الصحابة (٨٦٨/٢) حديث رقم (١٦٣٩)

(٣) ينظر : صحيح البخاري (٤٦٨/١) حديث رقم (١٣٢٣) ؛ صحيح مسلم (١٨٩٣/٤) حديث رقم (٢٤٤٣)

٧- عن عائشة رضي الله عنها قالت : "قُبض رسول الله ﷺ في بيتي ، وفي يومي ، وعلى صدري ، وكان آخرَ ما أصاب من الدنيا ريقي ، مَضغْتُ له السواك ، فناولته إياه"[١] .

(١) ينظر : فضائل الصحابة (٨٧٧/٢) حديث رقم (١٦٤٩)

المبحث الثالث

أسلوب المنافقين في الصد عن الإنفاق والدعوة إلى البخل والجبن

وصف الله ﷻ المنافقين بأنواع من الأخلاق المذمومة . منها ما هو موسوم في هذه الآية الكريمة : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1] أي : إنّ المنافقين يشحُّون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصّدقة ، والصّلة ، والجهاد . فالقبضُ كناية عن البخل والشح ، كما البسط كناية عن الكرم والجود .

فالإنفاق في طاعة الله معروف ، وهو منهيٌّ عنه في عقيدة المنافقين . والبخل في طاعة الله مُنكَر ، وهو مأمورٌ به في منهج المنافقين . فوصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ ﴾ مما يفيد أن المنافقين بخلاء ، ويدعون غيرهم إلى البخل .

ولعل أكبر دليل على أن المنافقين بخلاء ويدعون غيرهم إلى البخل في طاعة الله ؛ صدًا عن الإنفاق في سبيل الله ما بيّنه القرآن الكريم في هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[2] ؛ فالنهي عن بذل المال في سبيل الله للقتال دلالة على النفاق ؛ لأنه شرُّها

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ٧ .

وأضرُّها وأقواها ، كما إن الإنفاق في سبيل الله أعظم دلالة على الإيمان . كان المنافقون في المدينة يقولون للأنصار : لا تطعموا محمدًا ولا أصحابه ؛ حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين يعضهم الجوع بأنيابه .

قال **سيد قطب –رحمه الله–** في تفسير هذه الآية :"وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية ؛ لينفضّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الجوع. وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من البطاقات التموينية ؛ ليموتوا جوعًا ، أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة . وهي خطة غيرهم ممّن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام ؛ بالحِصَار ، والجوع"[1] .

إن خطة المنافقين التي يمارسونها ضد أهل الحق ، ويتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ؛ إنما هي تعبيرٌ عن خسة مشاعرهم ، إذ يحسبون أن لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم ، فلذلك يحاربون المؤمنين .

إنها هي خطة المنافقين في حربهم لرسول الله ﷺ ، وهي خطة غيرهم ممن يحارب الدعوة إلى الله والدعاة والمجاهدين في سبيل الله . وهكذا يتواصى على هذه الخطة الخبيثة كل خصوم الإسلام ، من قديم الزمان إلى وقتنا الحاضر .

إن خطة المنافقين في التجويع لا يفكر بها إلا أخس الأخساء ؛ لذلك نجد أعداء الإسلام يكرّرون مثل هذا الأسلوب في كل زمان ومكان . وما هو جارٍ اليوم على شعوبنا الإسلامية في الصومال ، وأفغانستان ، وفلسطين ، وغيرها ؛ من الحصار الاقتصادي من قبل الصليبين ، ومَنْ معهم من

(١) في ظلال القرآن (٣٥٧٩/٦)

المنافقين؛ لأكْبر شاهدٍ على ما نقول .

أمّا موقف المنافقين المنحرف من الباذلين أموالهم في سبيل الله ، فهو اللّمز والهمْزُ ، فمن تصدق من المؤمنين بالمال الكثير في سبيل الله ، قالوا عنه مرائي ، ومن تصدّق باليسير ، قالوا : إن الله لَغَنِيٌّ عن صدقة هذا . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١]

فهذا من أعظم الأضرار على الجهاد والمجاهدين ، وعلى المجتمع المسلم الذي يواجه التحديات من الداخل والخارج .

فصفة البخل المذمومة للمنافقين مقرونةٌ بصفة الجبن . فالمنافقون بخلاء جبناء ، وأمّا المؤمنون الصادقون فهم كرماء وشجعان ؛ لذلك جمع النبي ﷺ وأصحابه الكرام بين صفتي الكرم والشجاعة ، فكان ﷺ أشجع الناس وأكرمهم . ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال : (**كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس**)[٢] .

وعن ابن عمر ﷺ قال : (**ما رأيتُ أحدًا أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضْوءَ من رسول الله ﷺ**)[٣] .

وعن البراء بن عازب ﷺ قال : (**كنّا إذا احمرَّ البأس نتقي به ، وإنّ**

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٧٩

(٢) ينظر : صحيح البخاري (١٠٦٥/٣) حديث رقم (٢٧٥١) ؛ صحيح مسلم (١٨٠٢/٤) حديث رقم (٢٣٠٧) ؛ صحيح ابن حبان (٢٨٤/١٤) حديث رقم (٦٣٦٩)

(٣) سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي (ت ٢٥٥هـ) ، (ط١، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ) ، (٤٤/١)

الشجاع منا يحاذي به)[١] يعني : رسول الله ﷺ .

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : (**لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس بأسًا ، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه)**[٢]

وذمّ النبي ﷺ صفتي البخل والجبن ، فقال ﷺ : (شرُّ ما في المرء ، شُحٌّ هالعٌ ، وجُبْنٌ خالِعٌ)[٣]

وقد وضح ﷺ خطورة صفة البخل في الأفراد ، وبيّن ﷺ أن البخيل لا يصلح أن يكون رأسًا على قومه . قال ﷺ : (**مَن سيّدُكم يا بني سلمة ؟**) فقالوا : الجد بن قيس ، على أنا نزنه بالبخل . فقال ﷺ : (**وأي داءٍ أدوى من البخل ؟ إن السيد لا يكون بخيلًا . بل سيّدكم الأبيض بِشر بن البراء بن معرور)**[٤] . وقد قال النبي ﷺ لما سأله الأعراب حتى اضطروه إلى سَمُرَة

---

(١) ينظر : مصنف ابن أبي شيبة ، ابن أبي شيبة ، محمد بن عبد الله (ت ٢٣٥هـ) = =تحقيق كمال يوسف الحوت ، (ط١، الرياض ، مكتبة الرشد ١٤٠٥هـ) (٤٢٦/٦) حديث رقم (٣٢٦١٥) ؛ صحيح مسلم (١٤٠١/٣) حديث رقم (١٧٧٦)

(٢) ينظر : السنن الكبرى للبيهقي (٤٥٧/٥)

(٣) ينظر : مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٢/٥) حديث رقم (٢٦٦٠٩) ؛ سنن أبي داود (١٢/٣) حديث رقم (٢٥١١) صحيح ابن حبان (٤٢/٨) حديث رقم (٣٢٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ . وشح هالع ، أي : يجزعُ فيه العبد ، ويحزن . وجبن خالع ، أي : شديدٌ ، كأنه خلع فؤادَه من شدة الخوف . ينظر: لسان العرب ، مادة (هلع) و (خلع)

(٤) ينظر : الأدب المفرد ، البخاري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، (ط٣ ، بيروت ، دار البشائر الإسلامية ، ١٤٠٩هـ) ، (ص٧١) ، المعجم الكبير (٣٥/٢) حديث رقم (١٢٠٣) ؛ مستدرك الحاكم

(المستدرك على الصحيحين) ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (ت

فتعلّقت بردائه ، فالتفت إليهم وقال : (**أُعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة نَعَمًا لقسمته عليكم ، ثم لا تجدوني بخيلًا ، ولا جبانًا ، ولا كذوبًا**)[١]

وكذلك قول جابر بن عبد الله ﷺ لأبي بكر ﷺ : إما أن تعطيني ، وإما أن تبخل عني ؟ ، فقال : تقول : وإما أن تبخل عني ! وأي داء أدوى من البخل ؟ [٢] . فجعل البخل من أعظم الأمراض .

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : قسّم النبي ﷺ قسمًا ، فقلت : يا رسول الله ، والله لغير هؤلاء أحق به منهم ، فقال : (**إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش ، وبين أن يبخلوني ولست بباخل**) [٣]

يقول : إنهم يسألوني مسألة لا تصلح ، فإن أعطيتهم ، وإلا قالوا : هو

٤٠٥هـ) ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠م) (٢٤٢/٣) حديث رقم (٤٩٦٥) وقد ورد في بعض الروايات (عمرو بن الجموح) بدلًا من (بشر بن البراء بن معرور) ورواية (عمرو بن الجموح) هي= =الأصح ، والله أعلم ، فقد حسنها الحافظ العراقي في (المغني على هامش الأحياء) (٤٢/١٠) طبعة دار الغد العربي ، كتاب ذم البخل . وصححها الألباني في صحيح الأدب المفرد ، محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ) ، (ط٤ ، الجبيل الصناعية ، مكتبة الدليل ، ١٩٩٧م) ، (ص١٢٥) أما رواية (سيدكم بشر بن البراء بن معرور) فقد قال عنها الحافظ :"ورجال هذا الإسناد ثقات ، إلا أنه اختلف في وصله وإرساله عن الزهري ، ثم قال رحمه الله :"ويمكن الجمع بأنه تحمل قصة بشر على أنها كانت بعد قتل عمرو بن الجموح ﷺ و جمعًا بين الحديثين"، ينظر : فتح الباري (٥/ ١٧٩)

(١) ينظر : صحيح البخاري (١٠٣٨/٣) حديث رقم (٢٦٦٦) ؛ صحيح ابن حبان (٨٥/١٣) حديث رقم (٥٧٧٢)

(٢) ينظر : صحيح البخاري (١١٤٢/٣) حديث رقم (٢٩٦٨)

(٣) مسلم : الصحيح (٧٣٠/٢) حديث رقم (١٠٥٦)

بخيل ، فقد خيروني بين أمرين مكروهين لا يتركوني من أحدهما : المسألة الفاحشة ، والتبخيل . والتبخيل أشد ؛ فأدفع الأشد بإعطائهم .

والبخل جنس تحته أنواعٌ : كبائرُ ، وغير كبائرٍ . قال تعالى في وصف المنافقين بالبخل : ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] .

وقال : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[2]

وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[3]

وكذلك ذم الله الجبن في المنافقين في قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٧٥- ٧٦

(٢) سورة محمد ، الآية ٣٨

(٣) سورة النساء ، الآية ٣٧

(٤) سورة التوبة ، ألآية ٥٧

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[١]

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[٢]

يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-**[٣] :"لمّا كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم ؛ بيّن الله ﷻ أنه من تولّى عنه بترك الجهاد بنفسه يُبدِّل الله من يقوم بذلك ، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدله الله به من يقوم بذلك ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٤] وبالشجاعة والكرم فضّل الله السابقين الأولين ، فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ

---

(١) سورة محمد ، الآية ٢٠

(٢) سورة النساء ، الآية ٧٧

(٣) ينظر : الربانيات والإلهيات ، (مصر ، المكتبة الإسلامية ، د.ت) (ص٨٣)

(٤) سورة التوبة ، الآيتان ٣٨ - ٣٩

وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] .

وخلاصة القول :

يظهر لنا مما سبق ذِكْرُه من النصوص : أنّ الجبن والبخل والدعوة إليهما أسلوبٌ ثابت للمنافقين قديمًا وحديثًا ، وأن الشجاعة والكرم منهجٌ سار عليه النبي ﷺ ، وحثّ عليه أصحابُه الكرام ﷺ فالكرم والشجاعة أعظمُ دلائل الإيمان ، والبخلُ والجبنُ أعظم دلائل النفاق .

(١) سورة الحديد ، الآية ١٠

الفصل الثالث

أساليب المنافقين في التخذيل والتثبيط عن الجهاد

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : **أسلوب المنافقين في تخذيل المسلمين في المواقف الجهادية الحرجة .**
- المبحث الثاني : **أسلوب المنافقين في إرجاف وتثبيط المجاهدين في غزوة الأحزاب .**
- المبحث الثالث : **الصد عن الجهاد ومحاربة المجاهدين أسلوبٌ ثابتٌ للمنافقين قديمًا وحديثًا .**

المبحث الأول

أسلوب المنافقين في تخذيل المسلمين في المواقف الجهادية الحرجة

المطلب الأول : في غزوة أحد :

بعد أن عزمت قريش على الثأر لهزيمتها في معركة بدر الكبرى سنة(٢هـ) عَلِمَ رسول الله ﷺ بنواياهم وتحرُّكاتِهم . واستقرّ الأمرُ -بعدَ المشورة- على أن لا يمكث المسلمون في المدينة للدفاع عنها ، بل يخرجوا للقاء قريشٍ قبل أن تهجم على المدينة . وهذا ما لم يكن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول راغبًا فيه .

وجاءت قريش في جمعٍ حاشدٍ من ثلاثة الآف مقاتل ، في كامل الإعداد ، والعُدّةِ ، والعتاد . وكان جيش المسلمين آنذاك ألفَ مقاتل ، وهم في موقف دفاعٍ . وبينما كان الفريقان يستعدّانِ للنزالِ في معركةٍ فاصلةٍ إذ بزعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول ينسحب بنحو ثلثمائةِ مقاتل ليعود بهم إلى المدينة ، معللا خذلانه للمسلمين في هذا الموقف بقوله عن رسول الله ﷺ : "أطاعهم وعصاني" . ولحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام[١] يناديهم : "يا قوم ، أُذكِّركم اللهَ ألا تخذلوا قومَكم ، ونبيَّكم عندما حضر العدوّ" . ولكن هيهات أن يستجيب لدعوات الرجولة والمروءة قوم ينتظرون ظرْف الانتقام من الدعوة وأهلها . ولهذا قال لهم ذلك الصحابي لما علم

(١) الأنصاري الخزرجي ، الصحابي الجليل ، شهد بيعة العقبة ومعركة بدر ، وكان من النقباء ، واستشهد في معركة أحد وهو والد الصحابي المشهور جابر ، ينظر : الإصابة (٢/٣٥٠)

خِسَّتهم وانتهازِيّتهم : "أبْعَدَكُم اللهُ أعداءَ الله" (١)

إنّ مصالحَهم الأنانيةَ الآنية الشخصيةَ ، وسوءَ ظنهم بالله تعالى ، جعلَهم يخذلون المسلمين في هذا الظرف الحرج ، متعللين بأنّ رأيَهم لم يُحترم ، وكلامَهم لم يُؤْخَذْ به ؛ ولهذا فإن مشاركتهم لن تتمّ . وكأن الشورى يُشترط فيها ترجيح قولهم على أقوال غيرهم !

ويصور القرآن الكريمُ هذا المشهدَ ، ويحكي هذا التصرُّفَ ؛ في مَعْرِضِ حديثه عن غزوة أحد . قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (٢)

ولقد عدّ القرآنُ الكريم هذهِ المواقف من المنافقين أكبرَ من مجرَّدِ جُبنٍ الجبناء ، أو التخلّي عن المسؤولية . إنّ الأمرَ أخطر من ذلك ، إنه خيانةٌ لأهل الإسلام ؛ وذلك بِإِسْلامِهم إلى الأعداء ، وتعريضِ الدين إلى خطر الضياع أو الضعف ، وتعريضِ حَمَلَتِه إلى الاستئصال . ومن أجل هذا عُدَّت إعانةُ الكفار على المسلمين ، أو تمكينهم منهم مُسارعةً إلى الكُفر ، ونُصرَةً له . ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ بعد أن سجّل على المنافقين جُرمَهم : ﴿وَلَا

(١) ينظر : السيرة النبوية (٣/٦٤)

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤

يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١]

ويشاء الله ﷻ أن تجري المقادير في غزوة أحد على نحوٍ لم يَفْرحْ به المؤمنون ، ولكن كان وراء ذلك حكمةٌ بالغةٌ ؛ سِيْقت في مَعْرِضِ الخطاب القرآني عن ما أصابهم في معركة أُحُد ، فقال تعالى ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[٢]

قال ابن كثير –رحمه الله– : " أي لا بد أن يعقد سببًا من المحنة ، يظهر فيه وليه ، ويفضح به عدوه ، يُعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أُحد ، الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستر المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونُكولهم عن الجهاد ، وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾[٣] ، قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد ، وقال قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة "[٤]

كان هدفُ عبد الله بن أبي بن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين أن يُحْدِث بلبلةً واضطرابًا في جيش المسلمين ، لكي تنهار معنوياتهم ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٦

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٩

(٣) سورة آل عمران ، من الآية ١٧٩

(٤) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٥٩٢/١) ؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨٤/٢) .

ويتشجع العدة ، وتعلُو هِمَّتُه . وعملُه هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام ، وغدرًا به في أحلك الظروف . وقد حاول عبدُ الله بن عمرو ابن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال ؛ إلا أنهم رفضوا دعوته . وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[1]

ومع خطورة الموقف ، وحاجةِ المسلمين لهذا العدد ؛ لقلّة جيش المسلمين ، وكَثْرة جيش قريش ؛ إلا أن الرسول ﷺ ترَك هؤلاء المنافقين وشأنَهم ، ولم يُعِرْهُم أيّ اهتمامٍ ، واكتفى بفضْحِ أمرهم أمام الناس . وكان لهذا الأسلوب أثرُه في توبيخ ابن سلول وإهانته ، فعندما رجع رسول الله ﷺ من غزوته من حمراء الأسد[2] أراد عبد الله بن أبي بن سلول أن يقوم – كعادتِه- بحثّ الناس على طاعة رسول الله ﷺ . فتجاذبَه القوم يقولون : يا عدوّ الله .

يحكي لنا الإمام الزهري[3] – رحمه الله - هذه الواقعة ، فيقول :

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١٦٦-١٦٧

(٢) ينظر : السيرة النبوية (٥٢/٤) ؛ تاريخ الطبري ، (٢/ ٧٥) .

(٣) أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب ، الإمام ، أعلم الحفاظ ، ومناقبه جمة . ترجم له الحافظ ابن عساكر ترجمة طويلة . مات سنة (١٢٤هـ) يُنظَر : تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله (ت ٥٧١هـ) ، تحقيق عمر غرامة العمري (ط١، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٩٥م) ، (٢٤٩/٥٥) ؛ تذكرة الحفاظ (١٠٨/١) .

"كان عبد الله بن أبي بن سلول له مقام بقومه كل جمعة ، لا ينكسر له شرف في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفًا ، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ، ورجع الناس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا : اجلس ، أي عدو الله! والله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ! ، فخرج يتخطى رقاب الناس ، وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجْرًا[١]، إنْ قمتُ أَشْدُدُ أمْرَه . فلقيَه رجال من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا : ويلك ، مالك ؟ فقال : قمتُ أَشْدُدُ أمْرَه ، فقام رجال من أصحابه يجذبونني ، ويعنّفونني ، لكأنّما قلتُ بُجْرًا ، إنْ قُمْتُ أَشْدُدُ أمْرَه . قالوا : ويلك ، ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله . قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي"[٢]

المطلب الثاني: تخلف المنافقين عن غزوة تبوك واعتذارهم باعذار شتى:

مع انحسار نفوذ زعماء المنافقين شيئًا فشيئًا في المدينة ، بقي بعض النفوذ بين العناصر المغرَّر بها . فكان عبد الله بن أبي ابن سلول ، والجدّ بن قيس (**وهما رأسا النفاق**) لا يزالان على قيد الحياة عندما اعتزم الرسول ﷺ أن يتحرك بالجيش إلى الحدود الشمالية ؛ لإرهاب الروم . وقد بذل زعيما النفاق هذانِ كلَّ جُهد لتمزيق وحدة المسلمين ؛ ونشر الشائعات المغرضة ، بهدف إحداث الفوضى والبلبلة داخل صفوف الجيش ، الذي تقرر أن يتحرك

(١) أي شرًّا ، يقال : ذَكر عُجْرَهُ وبُجْرَهُ . أي : عيوبَه ، وأمرَه كلَّه . ينظر : لسان العرب (٣٩/٤)

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٥٣/٤) .

من المدينة إلى تبوك بقيادة رسول الله ﷺ .

أما الجد بن قيس بصفته زعيم من زعماء المسلمين (في الظاهر) فقد حاولَ رسول الله ﷺ أنْ يتألّفه ، لعلّ سريرته تنقي ، ويشترك بإخلاص في هذه الحملة العسكرية التاريخية . فالرسول ﷺ (دائمًا) لا ييأس من إصلاح النفوس التي اعتادها الخراب ، فهو رسول رحمةٍ ومحبةٍ ، وإصلاح للنفوس . لذلك قال للجد بن قيس هذا -بأدبٍ رفيعٍ- : (**هل لك العامَ تخرُج معنا؟**) وبلهجة فيها شيء من المداعبة ، قال له : (**لعلّك تحتقب من بنات بني الأصفر!**) وكان الإسلام يبيحُ سبي نساء الأعداء ، وتسرّيهن كعمل حربي (مقابل لا بد منه) لأن الأعداء إذا ما سبوا نساء المسلمين استرقّوهن وتسرّوهنّ . فقال الجدّ بن قيس للنبي ﷺ ، بلغةٍ منافقةٍ خبيثةٍ ماكرة : أو تأذن لي ، ولا تفتني ، فو الله لقد عرف قومي ما أحَدٌ أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني لأخشى إنْ رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنّ .

ولقد استاء الرسول ﷺ لهذا الجواب الخبيث ، غير أن الرسول ﷺ بما جُبِلَ عليه من أدب رفيع جم ، لم يعبّر عن استيائه من هذه الإجابة التي تحمل أكثر من معنى من معاني الخبث والنفاق ، ولم يعبر عن استيائه بأكثر من أنه (فقط) أعرض عن الجدّ بن قيس ، وذهب في الحِلم عن هذا المنافق إلى أنْ أذن له في التخلف عن الجيش ، قائلًا له : (**قد أَذِنْتُ لك** !)[١]

ومن عجائب المفارقات التي تصنعها العقيدة : أن لهذا المنافقِ الجدِّ بن قيس ، ابنًا صالحًا شديدَ الإيمان ، كان قد شهد بدرًا مع المسلمين ، هو : عبد الله[٢] . هذا الشابُّ الثابت العقيدة ، الصالح المؤمن ، لمّا بلغتْهُ مقالةُ أبيه

(١) ينظر : المغازي (٩٩٢/٣) ؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥٨/٨)

(٢) السلمي الأنصاري ، شهد بدرًا وأحدًا ، ، وكان من سادات بني سلمة . ينظر :

النابية لرسول الله ﷺ ذهبَ إليه ليقدِّم له النُّصحَ ؛ كي يتوب إلى الله تعالى مما فاهَ به من مُنكر القول أمام رسول الله ﷺ ، ولينفِرَ ضمن الجيش مع رسول الله ﷺ إلى حيث يريد ، ولاسيما أنه غني من أغنياء المدينة ، وسيد من سادات الخزرج المرموقين . والمفروض فيهم أن يكونوا في مقدمة الجيش النبوي الغازي .

فقد قال هذا الشاب المؤمن الطيب عبد الله لأبيه الباطني المنافق الجد بن قيس، متسائلًا في استنكار : لِمَ تَرُدُّ على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالًا منك ، ولا تخرُجُ ، ولا تحملُ أحدًا (أي : لا تساعد أحدًا من المجاهدين المعوزين) بِخَيلٍ ، ولا رِكابٍ يركبُها في هذه الغزوة ؟ فقال الجد المنافق لابنه المؤمن الصادق : يا بني ، ما لي وللخروج في الرّيح، والحرّ ، والعسرة إلى بني الأصفر؟ ثم اندفع يتحدّثُ بِلُغة الإرجاف ، والتخوُّف من قوة الرومان ؛ لعلّه يؤثر في معنويات ابنه المؤمن ، ومن يسمع قولَه الخبيث ، فيخافون ، فيقعدون مثله مع الخوالف . فقال ، وهو يحاور ابنه : والله ما آمَنُ من بني الأصفر وأنا في منزلي بِخِرَبِي ، فأذهب إليهم فأغزوهم ؟! وإني والله يا بني عالِمٌ بالدوائر .

وهنا تفاعلت عوامل الغضب لله ورسوله في نفس الشاب المؤمن الصادق ، فوضعَ اعتبار العقيدة فوق كل اعتبار ، فداس في سبيل نصر عقيدته على عاطفة الأبوة ، فخاطب أباه كما يخاطب المنحرفين الضّالين الخبثاء ؛ إذ صارحه بأنه منافق ، وأنّ باعثَ تخلُّفه عن رسول الله ﷺ ، لم يكن الخوف من بني الأصفر (كما زعم) ولكنه الرغبة في الكيد للإسلام ، وتثبيط المسلمين عن الغزو . إذ قال له : ولكنّه النفاق ، والله لينزلنّ على رسول الله ﷺ فيكَ

الطبقات الكبرى (٣/٥٧١) الإصابة (٢/٢٨٦)

قرآنٌ يقرؤونه . فغضب المنافق الكبير لمقالة ابنه ، فضربه بالنعل على وجهه، وكان ابنه به بَرًّا ، فصبر الابن المؤمن الصادق ، وانصرف من مجلس أبيه ، ولم يتكلم[١].

وازداد المنافق الكبيرُ عنادًا وكفرًا ، فاستمرّ بإرجافه برسول الله ﷺ ، وتشكيكِه الناسَ في دين الله ، وتجسيمِه ما سيلاقونه في غزوتهم الطويلة الشاقة من مشاقّ الحر الشديد . وذلك عن سبق إصرارٍ دنيءٍ ، ورغبة خبيثة في التأثير على المسلمين ؛ لعلّهم يتأثرون بإرجافه ، فيعدلون عن المشاركة في الجهاد ، فيصيبُ التصدُّعُ والتفكك الجيشَ النبوي ، الذي بدأ استكماله لحشده ، وتجهيزه ؛ استعدادًا للتحرك إلى تبوك .

وقد ذكر أصحابُ السِّيَر والحديثِ أن الجد بن قيس المنافقَ هذا وجَّه نداءً إلى قومه بني سلمة ، وفي مقدمهم جبّار بن صخر[٢] ؛ يحثّهم فيه على التخلُّف عن رسول الله ﷺ ، لأن الفصل فصلُ حَرٍّ شديد . فقال لجبار بن صخر ﷺ ونفرٍ من بني سلمة : يا بني سلمة ، لا تنفروا في الحر . قال الواقدي :"لا تخرجوا في الحرّ ؛ زهادةً في الجهاد، وشكًّا في الحق ، وإرجافًا برسول الله ﷺ"[٣] .

لكن مسعى الخبيث فَشِلَ ، وأنزل الله فيه قرآنًا فضحه فيه (كما توقع ابنُه المؤمن) قال تعالى : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ

(١) ينظر : المغازي (٣/٩٩٣)

(٢) الأنصاري الخزرجي ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، شهد بيعة العقبة وبدرًا وما بعدها من المشاهد ، ومات سنة (٣٠هـ) ، ينظر: الطبقات الكبرى (٣/٥٧٦) ؛ الاستيعاب (١/٢٢٨) ؛ الإصابة (١/٢٢٠)

(٣) المغازي (٣/٩٩٤)

ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[١] وفي مقالة المنافق الجد بن قيس لرسول الله ﷺ بشأن بنات الروم : أو تأذن لي ولا تفتني . أنزل الله قرآنًا أكّد فيه أن هذا المنافق وأضرابَه واقعون في فتنةٍ أعظم ، فقال تعالى : ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٢] .

فلما نزلت هذه الآية الكريمة التي تفضح الجد بن قيس وأمثاله ، وتُشْهِرُ نفاقَهم، ذهب إليه ابنه عبد الله ، فقال له مكررًا لومَه له على موقفه السيئ من رسول الله ﷺ : ألم أقل لك إنه سينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون؟ لكن الأب المنافق تمادى في غيه ، وازداد النفاق في نفسه الخبيثة ، فأظهر شديدَ غضبه على ابنه المؤمن لتكراره النصح له ، وأعلن أنه سيقطع عنه كل صِلة ؛ إذ قال له : اسكت يالُكَع[٣]! والله لا أنفعك بنافعةٍ أبدًا ، **والله لأنتَ أشدُّ عليَّ من محمّد!!**[٤].

المطلب الثالث : الإرجاف والتخريب داخل الجيش الإسلامي :

أمّا رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذي هو سيد من سادات

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٨١ – ٨٢

(٢) سورة التوبة ، الآية ٤٩

(٣) اللكع عند العرب ، العبد ، ثم استعمل في الحمق والذم ، وأكثر ما يقع في النداء ، واللكع اللئيم ، وقيل الوسخ ، وقد يطلق على الصغير ، فإن أطلق على الكبير ، أريد به صغير العلم والعقل ، ينظر : النهاية (٢٦٨/٤) ؛ لسان العرب (٣٢٢/٨)

(٤) ينظر : المغازي (٦٩٣/٣)

الخزرج ، فقد أدّى أكبرَ الأدوارِ في محاولة الإرجاف والتخريب داخل صفوف الجيش ، الذي تقرّر أن يتحرّك من المدينة إلى تبوك لمواجهة الروم .

فإذا كان دور المنافق الكبير الثاني الجد بن قيس ينحصر في تثبيط وتوهين عزائم المسلمين ، بتخويفهم من العسكرية الرومانية ، وما هي عليه من قوة وبأس ، وتوجيه النداء إلى قومه بأن لا ينفروا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ، لأن الحر شديد؛ فإن دور عبد الله ابن أبي ابن سلول في مجال التخريب ، وتمزيق الكلمة أخطر وأعظم .

ذلك أن عبد الله بن أبي ابن سلول ، لم يكتفِ بالتشويش وأعمال التثبيط والتوهين القولي فحسب ؛ بل قاد عملية تمرُّدٍ داخل الجيش النبوي ، بعد أن انتظم عَقْدُه، وتمّ حشْدُهُ ، وتجهيزُه .

فقد كان عبد الله بن أبي بن سلول وجماعتُه الباطنيين (باعتبارهم يحملون الهوية الإسلامية في الظاهر) قد انخرطوا في سلك الجيش الإسلامي بأعداد كبيرةٍ حين أعلن الاستنفار العام ؛ لا لإسناد هذا الجيش وتقويته ، وإنما بقصد إحداث الفرقة والتشويش والبلبلة داخل صفوفه ، وذلك بالانفصال عن هذا الجيشِ ، والرجوع إلى المدينة عندما يبدأ الجيش بالتحرك نحو وُجهتِه .

وقد أعادَ عبد الله بن أبي ابن سلول (مع الجيش النبوي المتحرّك إلى الشمال) تمثيلَ دورَه يوم أُحدٍ حين واجه المسلمون مشركي قريش ؛ حيث رجع إلى المدينة من منتصف الطريق بِرَتْلِه ، وكانوا حينئذٍ يمثلون نحوًا من ثلث الجيش ، الأمر الذي كان له أسوأُ الأثر في نفوس المؤمنين ؛ بل كاد أن يؤدي إلى تمرُّدٍ آخر في الجيش النبوي أخطر وأعظم ؛ إذ كادتْ قبيلتان من الأنصار تحذُوانِ حذْو عبد الله بن أبي ورَتْلِه ، فترجعَ إلى المدينة ، وتتركَ

الاشتراك مع النبي ﷺ في القتال . ولولا أن الله تعالى ثبّت رجال هاتين القبيلتين ، فثبتُوا على إيمانهم ، واستمروا في مساندة الرسول ﷺ حتى نهاية المعركة .

ففي غزوة تبوك خرَج عبد الله بن أبي بن سلول في جيشٍ كبير من أصحابه المنافقين ؛ على أنه جزءٌ من الجيش النبوي . غير أنّ رأس النفاق لمّا بدأ الجيش النبوي في التحرُّك مِن ثَنِيَّة الوَدَاعِ[1] ، حيث كان يعسكر ، قام بما يمكن تسميته بالتمرُّد ؛ حيث رجع إلى المدينة مع مجموعةٍ كبيرة من المحاربين ، الذين كانوا قد انتظموا في صفوف الجيش النبوي . وكان الذين رجعوا مع رأس النفاق هم بالتأكيد ممن كان على النفاق مثله .

كان الهدف واضحًا من تصرُّف رأس النفاق هذا ، وهو محاولة تمزيق وحدة الجيش النبوي ، بإغراءِ وحداته الأخرى بأن تصنع صنيعه . وكان عبد الله بن أبيّ بن سلول عندما تمرّد برتله ، تفوَّهَ بكلمات فيها تخويفٌ لمن بقي ثابتًا حول النبي ﷺ من الجيش ، وتحريضٌ لوحدات الجيش الأخرى على التمرد والرجوع إلى المدينة ، وترْك النبي ﷺ وشأنَه . ولكن محاولات المنافق الكبير هذه باءت بالفشل ، فلم يتّبعه في الانسلاخ من الجيش والرجوع إلى المدينة سوى رَتْلِهِ الخاصّ ، الذي كل أفراده منافقون مثله . ومع ذلك فقد بقي الجيش النبوي متماسكًا ، كأقوى وكأعظم ما يكون ؛ إذ بقي تحت قيادة الرسول ﷺ ثلاثونَ ألفِ مقاتلٍ ، تحرَّك بهم إلى الشمال ،

---

(١) الثنية : العقبةُ ، أو طريقها ، أو الجبل ، أو الطريق فيه ، أو إليه . وسُمِّيت بذلك ؛ لأن النبي ﷺ ودّع بها المقيمين في المدينة . وقيل : هي اسمٌ جاهلي . وتقع إلى الشمال من المدينة . ينظر : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، البكري ، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ) ، تحقيق مصطفى السقا (ط٣، بيروت عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ) ، (١٣٧٢/٤) .

وتحقّقت بهم الأهداف التي من أجلها تحرّك بهم . ولم يَجْنِ عبد الله ابن أبي بن سلول وبقيةُ عصابة المنافقين سوى الخيبة والخسران .

ومع أن عبد الله بن أبي بن سلول قد انسلخ عن الجيش بوحداته التابعة له ، بقصد الإضرار بوحدة هذا الجيش ، وبقصد تحريض المسلمين على الانفضاض من حول الرسول القائد ﷺ ، كي يُفشِل خطّة النبي ﷺ في غزوته التاريخية تلك = فإنّ الرسول الحكيمَ الحليم ﷺ لم يتّخذ أي إجراء تأديبي ضد عبد الله بن أبي بن سلول ورَتْلِهِ المتمرّد . وتلك دائمًا عادة النبي ﷺ الحكيمة إزاءَ مثل هذه التصرفات الشائنة ، التي يلجأ إليها كل المنافقين ؛ بقصد تمزيق وحدة المسلمين ، والنكير على الرسول العظيم ﷺ .

قال الواقدي يصف تآمر عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه المنافقين يوم تحرك الجيش النبوي إلى تبوك :"وأقبل عبد الله بن أبي بعسكره فضربه على ثنية الوداع بحذاء ذباب[1] ، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه ، فكان يقال له : ليس عسكر ابن أبي بأقلّ العسكرين . وأقام ما أقام رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يستخلفُ على العسكر أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصلّي بالناس ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلَّفَ ابن أبي عن رسول الله ﷺ فيمن تخلَّف من المنافقين ، وقال مستهزئًا : يغزو محمد بني الأصفر مع جَهْد الحال ، والحرّ ، والبلد البعيد ، إلى ما لا قِبَلَ له به ، يحسب محمدٌ أن قتال بني الأصفر اللّعبَ ؟ ونافقَ معه من هو مثلُ رأيه .

ثم قال الخبيث متمنيًا الهزيمةَ والانكسارَ للنبي ﷺ وجيشِه : والله لكأني أنظرُ إلى أصحابه غدًا مقرّنين في الحبال . إرجافًا برسول الله ﷺ ،

(١) جبل بالمدينة المنورة ، ينظر : معجم البلدان (٣/٣)

وأصحابه"[١] .

ولا شك في أن العناصر الطيبة المخلصة في الجيش النبوي قد تألّمت للتصرف المشين الذي تصرَّفَهُ عبدُ الله بن أبي بن سلول ، فساءَها أن ينخذل عن رسول الله ﷺ ، فيرجع بوحداته العسكرية الخاصة ، قاصدًا إحداث الفرقة وإشاعة البلبلة داخل الجيش النبوي . ومن المحتمل أن بعض القادة المخلصين قد رغبوا أن يقوم الرسول ﷺ بتصفية عبد الله ابن أبي وعصابته المتمردة تصفية جسدية ؛ بحيث يقتلهم ويقضي عليهم قبل أن يتحرك لمواجهة الرومان ، ويترك المدينة وفيها هذا الوباء المتمثل بهؤلاء المنافقين المسلّحين ، الذين دفعتهم الرغبة المجنونة في إلحاق الضرر بالقوات النبوية المسلحة ، إلى الانسلاخ عن هذا الجيش ، والرجوع بِرَتْلِهم إلى المدينة ، معلنين أن النبي ﷺ حين يتحرك لمواجهة الروم في الشمال ، إنما يقدّم أصحابه ليُوثِقَهم بنو الأصفر في الحبال ، لأن النبي ﷺ (في زعم رأس النفاق) لم يقدّر قوّة الرومان حق قدرها"يحسب محمّد أن قتال بني الأصفر اللّعب ؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدًا مقرّنين في الحبال".[٢]

(١) ينظر : المغازي : ٩٩٦/٣)؛ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ ، الصالحي ، محمد بن يوسف الشامي (ت ٩٤٢هـ) تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، (ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ) (٤٤٣/٥)

(٢) ينظر : المصدر السابق .

المبحث الثاني

أسلوب المنافقين في ارجاف وتثبيط المجاهدين في غزوة الأحزاب

كشفت غزوة الأحزاب[١] حقيقةَ صِدق إيمان المؤمنين ، وحقيقة كذب وادعاء المنافقين . ففي غزوة الأحزاب ظهر إرجافُ المنافقين ، ونقضُهم للعهود واضحًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾[٢] . فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب لإثابة المؤمنين ، وتعذيب المنافقين ، أو يتوب عليهم : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٣]

---

(١) وقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة للهجرة ، وسميت هذه الغزوة بغزوة الخندق ، لأجل الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ، وسميت بغزوة الأحزاب لاجتماع المشركين والمنافقين واليهود على غزو المسلمين ، وقد أنزل الله تعالى صدر سورة الأحزاب وكانت مدة الحصار نحوًا من عشرين يومًا ، ابن هشام : السيرة النبوية (١٧٠/٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى (٦٥/٢) ؛ تاريخ الطبري (٩٠/٢)

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١٥

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٤

وسنة الله في عباده المؤمنين هي ابتلاؤهم بأعدائهم ؛ لتمحيصهم . قال تعالى ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[1]

فكانت حال المؤمنين في الحصار شديدةً ، وزادَ مِنْ شِدَّتِها نقْضُ المنافقين ويهود بني قريظة العهدَ ، وتحالفُهم مع المشركين . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[2]

والذي يهمنا هنا هو : إبراز دور المنافقين في هذه الغزوة .

المطلب الأول : مواقف المنافقين في أثناء حصار الأحزاب :

الموقف الأول : استبعاد النصر وإشاعة اليأس في النفوس :

بدأ بعض المنافقين يتسلّلون ، ويرجعون إلى المدينة ، بعد إظهار التثاقُل والسآمة، وشكّك بعضُهم في فكرة الخندق نفسِها ، وأطلق آخرون عبارات التثبيط وإشارات الوهَن ؛ لترويج الشائعات ، وبثّ الفرقة . فهذا (معتب بن قشير) قال في ساعات الخوف والزلزلة - بعد أن سمع بُشريات رسول الله ﷺ بالفتح المبين لهذا الدين في أقطار الأرض- : "يَعِدُنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدُنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته ، ما وعدنا

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٢

(٢) سورة الأحزاب ، الآيات ٩ - ١١

الله ورسوله إلا غرورًا" [١] .

وطبيعة هذا القول تشي بأنه قولٌ مخنوقٌ يُقال في الخفاء ، بين مجموعة موثوقة تقبل هذا المعنى على الأقل ، ويحسب هؤلاء أن أمرَهم لن يظهر ، وقولَهم لن يُكشَف ؛ لكنّ القرآنَ الكريمَ لاحَقَ مؤامراتِهم ، وكَذِبَهم في كل جُحرٍ يلْتقُون فيه .

الموقف الثاني : الفرار وقت الشدائد والظهور وقت الرخاء :

ويتبجّح آخرون بضرورة الرجوعِ لحماية الحُرماتِ ، بأعذارٍ واهيةٍ ، فقالوا : "إن بيوتنا عورة ، وليس دارٌ مِن دُورِ الأنصار مثل دارنا ، ليس بيننا وبين غطفان[٢] أحدٌ يردّهم . فأْذَنْ لنا فلنرجعْ إلى دورنا ، وذرارينا ، ونسائنا . فأذن لهم رسول الله ﷺ . فبلغ سعدَ بن معاذٍ لك ، فقال : يا رسول الله ، لا تأذنْ لهم ، إنّا والله ما أصابنا وإياهم شدّة ، إلا صنعوا هكذا "[٣] .

ويتحدث القرآن الكريمُ عن جُبنهم وهَلَعِهم : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا

(١) ينظر : السيرة النبوية (٥٥/٣) ؛ جامع البيان للطبري (١٣١/٢١)

(٢) بطن عظيم متسع ، كثير الشعوب والأفخاذ ، من قيس عيلان ، من العدنانية . كانت منازلهم مما يلي وادي القرى وجبل طيء ، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية ، ينظر : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، كحالة ، عمر رضا ، (ط٢، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٣٨٨هـ) ، (٨٨٨/٣) .

(٣) ينظر: المغازي (٤٦٢/٢) ؛ إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة ، المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) ، صححه وشرحه : محمود محمد شاكر ، (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، د.ت) ، (٢٢٩/١) .

﴿ هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١)

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وأمة ، وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء ، فهم أنموذج مكرر في الأجيال والجماعات والأمم ، وعلى مدار الزمان (٢)

قال الشيخ السعدي في تفسيره : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ : " أي عليها الخطر ، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ، ونحن غُيَّبٌ عنها ، فأذن لنا أن نرجع إليها ، فنحرسها ، وهم كذبة في ذلك ، ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ﴾ أي مقصدهم ﴿إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ولكن المنافقين جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذرًا لهم ، فهؤلاء قلَّ إيمانهم ، وليس لهم ثبوت عند اشتداد المحن" (٣) .

الموقف الثالث : الدعوة إلى تثبيط المجاهدين وتكثير صفوف القاعدين والمعوقين :

أمّا أشدُّهم خِسَّةً ، وأبْلَغُهم وَضاعَةً ، فأقوامٌ لم يكتفوا بجُبنهم وتشكيكهم في شجاعة الشرفاء بل ندبوا أنفسهم إلى جَرِّ مَن يستطيعون إلى صفوف القاعدين ؛ هؤلاء هم المنافقون المعوّقون : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٤) أي : لا يأتون القتال إلا إيتاءً قليلًا ، خوفًا من الموت .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (١٣) .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (٢٨٣٨/٥) . بتصرف .

(٣) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ص (٦٦٠) .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ١٨

فهم يخرجون مع المؤمنين ، يوهمونهم أنهم خرجوا معهم للقتال ، ولكنهم في الواقع لا يبارزون ، ولا يقاتِلون ، إلا شيئًا قليلًا إذا اضطروا إليه . وهذه الآية نزلت في قومٍ من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم : "ما كان محمد وأصحابه إلا أَكَلَةَ رأسٍ ، ولو كانوا لحمًا لَالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك "[1] .

كلُّ هذا قبل أن يأتيَ الموت الحقيقي ، فلما جاء كانوا كما وصفهم الله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2]

طارت قلوبهم من صدورهم رعبًا . وهؤلاءِ حَكَم القرآن عليهم أنهم غير مؤمنين ، وهم على استعدادٍ أن يتركوا المدينةَ ومَن فيها ، إذا جاء الخوف ، واشتدت المصيبة .

لقد بدأتْ تظهر أبعاد مؤامرة المنافقين ، وتبين أن قوى التحالف المعادي للإسلام قد قذفت إلى حدود المدينة نحوًا من أربعة آلاف من أشداء قريش ، ومَن عاونها من قبائل العرب ، ونحوًا من ستة آلاف من قبائل غطفان ومن عاونها من قبائل العرب ، علاوةً على جموع من اليهود الذين حزَّبوا الأحزاب ، ودبَّرُوا الغارة ، وأوقدوا الفتنة .

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (١٣٩/٢١)

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتان ١٩ – ٢٠

لقد استغلّ الجميع الفرصة ، وأحاطوا المدينة من جوانبها ، وحاصروا المسلمين وراء الخندق الذي لم يقدروا على اقتحامه .

وطال الحصارُ قريبًا من شهر ، حتى نزل بالمسلمين الخوفُ ، والجوعُ ، والبرْدُ ، والبلاءُ

وصوَّر القرآن هذه المشاهد في تلك اللحظات الرهيبة : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾(١) .

كان المتصوَّر من جميع المنافقين الساكنين مع المسلمين أن يتماسكوا ، أو يتظاهروا بالتماسك في تلك اللحظات العصيبة المصيرية ، ولكنهم مضوا يخذّلون ويخدّرون ، ويشكّكون في كل شيء ، حتى في الوعد الصادق من الله ورسوله ﷺ : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٢) .

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ، أي باطلًا من القول ، وذلك أن طعمة بن أبيرق ومعتب بن قُشير وجماعة نحو سبعين رجلًا قالوا يوم الخندق : كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ ، وإنما قالوا ذلك لما فشا في أصحاب النبي ﷺ من قوله

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان (١٠ ـ ١١) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١٢

عند ضرب الصخرة [١] ، وسيأتي الحديث في المطلب القادم .

آياتٌ ، وعِظاتٌ تحكي واقعةَ الأحزاب ، وحالَ المنافقين ، ومواقفَهم الخيانية نحو الإسلام والمسلمين . إنها شخصيةُ ونفسيةُ المنافقين في كل زمان ومكان ؛ خيانةٌ ، وتآمُرٌ ، ووَضَاعَةٌ ، وتَخاذُلٌ ، وشَكٌّ فيما وعد اللهُ به ، ونقْضٌ لما عاهدوا الله عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

ولكن هذا الجبن المستحكم سرعان ما يتحول إلى شجاعة مصطنعة ، وجَسارةٍ جبّارةٍ تقذفُ السمومَ من أفواه المنافقين على الصادقين العاملين ، الذين لا يرجون إلا رضا الله . ولا يكون ذلك الهجوم من المنافقين إلاّ بعد أن يولّي الخطرُ ، وينقشع الغبار . قال تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [٢] .

أيْ : إذا كان الأمْنُ تكلّموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا ، وادّعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون في ذلك ؛ آذَوْكُم بالكلام الشديدِ . **والسّلْقُ** : الأذى . فعند الغنيمة هم أشحّ القوم ، وأبسطهم لسانًا ، ووقت البأس أجبنُ قومٍ ، وأخْوَفُهم .

ومِن صفات المنافقين القبيحة في الجبن والخور ، والتي ظهرت بجلاء يوم الأحزاب : أنهم لا يصدّقون بهزيمة الكفار . قال تعالى :

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤٧/١٤) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (١٩) .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١) أي : لم ينهزموا بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود ، وأنّ لهم عودةً إليهم ؛ يظنون هذا الظن لِخَوَرِهم ، واضطرابهم .

إنّ المحنة هي التي تمحِّصُ القلوبَ ، وتكشف ما في الصدور من إيمانٍ ، أو نفاقٍ ، أو كُفرٍ . وقد يتزلزل المؤمن ؛ لكنه لا يفقد إيمانَه . وأما المنافق المتجلبب بجلباب الإسلام ؛ فإنه حين يكشف الغطاء ، ويرى أن دولة الإيمان على وشك الزوال يكشفُ خبيئة نفسه ، ويُظهِر نَتَنَ قلبه ، ويُعلِن شكّه بربّه . وهؤلاء لم يؤمنوا ؛ فأحبط اللهُ أعمالهم في الدارين .

المطلب الثاني : الحذر من المنافقين ، وكيف واجه النبي ﷺ إرجاف المنافقين وتشكيكهم ؟

الحذر من المنافقين :

على جماعة المسلمين أن تعلم يقينًا أنّ بعض المنافقين يمكنُ أن يتسلّلوا إلى صفوف الجماعة المسلمة ، فليسوا هم بأفضل من جماعة المسلمين الأولى ، وقد تسلل بعض المنافقين في صفوفها ، مع وجود النبي ﷺ وتنزُّل الوحي عليه ؛ لفضْحِهم ، وبيان خبايا نفوسهم . فحدوثه الآن بين صفوف الجماعة المسلمة أقربُ احتمالًا ، وأيْسَرُ وقوعًا . فعلينا جميعًا أنْ نرصُد المتّصفِين ببعض صفاتِ المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم ؛ وبخاصة في معركة الأحزاب ، حتى يحْذرَهم المؤمنون ، ولا يتأثروا بإرجافهم وتخذيلهم للمؤمنين .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٠

فمن أساليبهم : استبعاد النصر لدعوة الإسلام ودعاته ، وإشاعة اليأس في النفوس ، وأنّه لا جدوى من الدعوة ومن العمل للإسلام . وهم في وقت الشدائد يفرّون ، وفي وقت الرخاء يدّعون لأنفسهم الدعاوى الباطلة من الشجاعة والإقدام ، والحرصِ على الدعوة ومصلحتها .

فعلينا أنْ نرصُد المنافقين من صفاتهم وأقوالِهم ، ونحذِّر المؤمنين والدعاةَ والمجاهدين منهم حتى لا يتأثروا بإرجافهم وأقوالهم .

كيف واجه النبي ﷺ تشكيك المنافقين وإرجافهم ؟

سِمَةُ هذا الأسلوب : التبشير بنصر الله . فما عرف التاريخ قوّةً بشريّةً أعظمَ من الرسول ﷺ ولا أقوى تأثيرًا في صفوف الجيش ؛ مثل الرسول ﷺ .

لقد كان دائمًا في المحنة رَجُلَها الأوّل ، وبكلمات قلائل ينفخُ في جنده روح الاستبسال والجهاد ويتحدّث عن النصر حين يفقد الناس أملهم فيه . لهذا أمرنا الله تعالى بالتأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله كلها ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1] .

هذه الآية أصْلٌ كبير في التأسي برسول الله ﷺ . نزلت هذه الآية يوم الأحزاب ، في الوقت الذي أخذ المنافقون يشكّكون بنصر الله ، وفي ساعة الضيق والحرج والعسرة ، واجتماع الأحزاب من كل مكان ، والمسلمون محاصرون في المدينة ، يواجهون المشاقّ والخوفَ والجوعَ .

نعم ، أمَرَنا الله تعالى بالاقتداء به ، والسير على منهجه الحكيم في صبره ومصابرته ، ومرابطته ومجاهدته للكافرين والمنافقين . فمنهجُه ﷺ –

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١

وهو القائدُ ، الأسوةُ الحسنةُ- تجسّدَ يوم المحنة الكبرى ، يوم الأحزاب يوم اجتماع المشركين والمنافقين واليهود ؛ هو : التبشير بالنصر ، وبأن النصر سيتجاوز حدود أرض العرب ؛ بل سيشمل الأرضَ كلَّها . يقول لجيش محاصَرٍ من كل الجهات : سيفتح الله لكم وبكم الشامَ ، وفارسَ ، واليمن ؛ حيث يقع العدو في الشمالِ، والشّرق ، والجنوب ، وسَتَدِينُ الأرضُ كلُّها للهِ.

قال البَرَاءُ بن عازب[١] ﷺ : "عَرَضَ لنا في بعض الخندق صخرةٌ لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء فأخذَ المِعْوَل ، فقال : باسم الله ، فضربَ ضربةً فكسر ثلثها ، وقال : (**الله أكبر ، أُعطِيتُ مفاتيح الشام . واللهِ ، إني لأُبصِر قصورَها الحمراءَ السّاعةَ**) . ثم ضرب الثانية ، فقطع الثلث الآخر ، فقال : (**الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله ، إني لأُبصِر قصر المدائن الأبيض**) ثم ضرب الثالثة ، وقال: (**باسم الله**) فقطع بقية الحجر ، فقال : (**الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله ، إني لأُبصِرُ أبواب صنعاء**) ففرح المسلمون ، واستبشروا"[٢] .

وكان يقول ﷺ يوم الأحزاب مبشّرًا أصحابه المؤمنين ، ورادًّا على تشكيك المنافقين ، وإرجاف المرجفين ، وتثبيط المثبطين : (**لا إله إلا الله وحدَه ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده**)[٣]

---

(١) الأوسي الأنصاري . له ولأبيه صحبة . شهد أحدًا والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ وهو الذي فتح إقليم الري سنة (٢٤هـ) وشهد مع أمير المؤمنين علي ﷺ الجمل وصفين وقتال الخوارج ، ونزل الكوفة ، ومات بها سنة (٧٢هـ) ، ينظر : طبقات ابن خياط ، ص(٨٦) ؛ الطبقات الكبرى (٣٦٤/٤) ؛ الإصابة (١٤٢/١)

(٢) ينظر : مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٨/٣) حديث رقم (٣٦٨٢٠) ؛ مسند أحمد (٣٠٣/٤)

(٣) الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ) ، المصنف ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي (٢٨٢/٩) (ط٢، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ) أحمد : المسند

وكان موقف المؤمنين يوم الأحزاب من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[1] .

أما موقف المنافقين المرجفين ، الذين سخروا من هذه البشارة ، فقد فضحه القرآن الكريم ، بقوله عنهم : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2]

وصورت الآيات من (١٣ ـ ٢٠) من سورة الأحزاب نفسيّة المنافقين تصويرًا دقيقًا وحَكَتْ أقوالَهم في الإرجاف والتخذيل ، وأساليبَهم في التهرُّب من العمل وجهاد العدو . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

(٤١١/٥) حديث رقم (٢٣٥٤٠) أبو داود : السنن (١٨٥/٤) حديث رقم (٤٥٤٧)

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٢

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١٢

أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُۥنَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] .

إن الواجب على المسلمين من الدعاة والمجاهدين ، ألا يعبئوا بأراجيف المرجفين ، وألاّ يؤثّر تخذيلُهم في صدورهم ، وألاّ تُحزِنهم وتُخيفهم أكاذيبهم وافتراءاتهم ولومُهم في وسائل إعلامهم ؛ لأن هذا هو منهج المنافقين في كل زمان ومكان . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] .

إن من أعظم خصال أهل الإيمان أن يوقن المؤمنون بوعد الله ، ونصرِه ، وتمكينه لعباده المؤمنين الصادقين المجاهدين . وقد أكّد الله تعالى هذه الحقيقة بقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[3]

وإذا كان النّصْرُ في الآخرة لا يجادلُ فيه مؤمن ؛ فإنّ النّصر في الحياة الدنيا به حاجةٍ إلى جلاءٍ ، وبيانِ أنّ وعْدَ الله قاطعٌ جازمٌ . قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ١٣- ٢٠

(٢) سورة يونس ، الآية ٦٥

(٣) سورة غافر ، الآيتان ٥١ - ٥٢

عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾[١]

هذا هو شأن الكافرين في كل زمان ومكان ، ينفقون أموالهم ، ويبذلون جهودهم في الصد عن سبيل الله ، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين ، وفي حرب أهل الإيمان ، وستعود عليهم أموالهم بالحسرة ، ويُهزمون شرّ هزيمة ، وينتصر الحق في هذه الدنيا .

قال الشوكاني -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " إن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم عليها ، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب ، فإن الرؤساء كانواينفقون أموالهم على الجيش... " [٢] .

قال سيد قطب -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية أيضًا : " إن المعركة لن تكف ، وأعداء هذا الدين لن يدعوه في راحة ، ولن يتركوا أولياء هذا الدين في أمن ، وسبيل هذا الدين أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ، ثم لإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت . والله سبحانه وتعالى ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، بأنها ستعود عليهم بالحسرة ، إنهم سينفقونها لتضيع في النهاية ، وليغلبوا هم وينتصر الحق في هذه الدنيا ، وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم ، فثم الحسرة الكبرى " [٣]

إن التحالُف الإجرامي الآثم ، الذي يجمع الصليبيين ، واليهود ، والمرتدّين ، والمنافقين ، والباطنيين على حرب الإسلام ، والمسلمين ،

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٦

(٢) ينظر : فتح القدير (٢/٤٤٠) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (٣/١٥٠٧) .

والمجاهدين ليس لعرض من أعراض الدنيا ، وإنّما يعادونهم لإيمانهم بالله تعالى ، ولتمسكهم بإسلامهم ، وإخلاصهم العبودية والطاعة والخضوع لله تبارك وتعالى . قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(١)

إن الأمة الإسلامية ، أمة منصورة ، ومبشَّرة بالنصر والتمكين في كتاب ربها تبارك وتعالى ، وسنة نبيه ﷺ . وقد تحقق لها في الواقع ما أخبر به رسول الله ﷺ من النصر والتمكين ، والبشارة بالانتصار على الفرس والروم ، وفتح القسطنطينية ، وغيرها من البشائر . وهناك بشائر سوف تحقق في المستقبل ؛ كفتْح روما ، وعودة الخلافة على منهاج النبوة ، وغيرها من البشارات . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٣) .

قال ابن كثير -رحمه الله- : "هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنّه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي : أئمّةَ الناس ، والولاةَ عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا ، وحُكمًا فيهم . وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة ؛ فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة ، وخيبر ، والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض

(١) سورة البروج ، الآية ٨

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٨

(٣) سورة النور ، الآية ٥٥

اليمن بكاملها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- ، وملوك عمان ، والنجاشي ملك الحبشة ؛ الذي تملّك بعد أصحمة -رحمه الله وأكرمه- " [1].

ثم مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فَلَمَّ شَعَثَ ما وَهَى بعد موته ﷺ ، ووطدَّ جزيرة العرب ، ومهّدَها ، وبعَثَ الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صُحْبة خالد بن الوليد ﷺ ففتحوا طرفًا من أرضها ، وقتلوا خلقًا من أهلها ، وجيشًا آخر صُحبة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ، ودمشق ومخاليفها من بلاد حوران ، وما والاها ، وتوفاه الله ﷻ ، واختار له ما عنده من الكرامة .

ومنَّ الله على أهل الإسلام بأنْ ألهم الصديق أن يستخلفَ عمر الفاروق ﷺ ، فقام بالأمر بعده قيامًا تامًّا ، لم يَدُرْ الفلك بعد الأنبياء على مثله في قُوّة سيرته ، وكمال عدله . وتمّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكَسَر كسرى ، وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصّر قيصر ، وانتزع عن يده بلاد الشام ، وانحدَر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالَها في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ﷺ . ثم لما كانت الدّولة العثمانية (يعني : خلافة عثمان ﷺ) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففُتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك إلى الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٤١٢/٣) .

بلاد الصين ، وقُتِل كسرى ، وباد مُلكه بالكُلِّية ، وفُتِحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتَلَ المسلمون من الترك مقتلةً عظيمة جدًا ، وخذَل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجُبِي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ .

ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، ويبلغ ملك أمتي ما زُوِي لي منها**) [١] فها نحن نتقلّب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمانَ به وبرسوله ، والقيامَ بشكره على الوجه الذي يُرضيه عنا "[٢]

وهناك أحاديث كثيرة تبشر بنصرة الإسلام ، وظهوره على الأرض جميعًا ، وانضواء كلّ الأمم تحت لوائه . فقد قال رسول الله ﷺ : (**ليبلُغَنّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترُك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين ، بِعِزِّ عزيزٍ ، أو ذُلِّ ذليل ، عزًّا يُعِز الله به الإسلام ، وذُلًا يُذِلّ الله به الكفر**)[٣]

ومن المبشرات الواردة في السنة :

فتْح روما -إن شاء الله- . فعن أبي قبيل ، قال : كنّا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ، وسُئل : أي المدينتين تُفتح أولًا ، القسطنطينية ، أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حِلَقٌ ، قال : فأخرج منه كتابًا ، قال : فقال

---

(١) ينظر : صحيح مسلم (٤/٢٢١٥) حديث رقم (٢٨٨٩) ؛ سنن أبي داود (٤/٩٧) حديث رقم (٤٢٥٢) ؛ سنن الترمذي (٤/٤٧٢) حديث رقم (٢١٧٦) من حديث ثوبان ﷺ ؛ مسند أحمد (٤/١٢٣) ، من حديث شداد بن أوس ﷺ .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٣/٤١٢ ـ ٤١٣)

(٣) ينظر : مسند أحمد (٤/١٠٣) ؛ مستدرك الحاكم (٤/٤٧٧) حديث رقم (٨٣٢٦) من حديث تميم الداري ﷺ

عبد الله : بينا نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ؛ إذ سُئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تُفتح أولًا ، القسطنطينية ، أو رومية ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : (**مدينةُ هِرقْل تُفتح أوّلًا**) يعني : القسطنطينية [١] . ورومية ، هي عاصمة إيطاليا اليوم ، ومقر الفاتيكان عُقْر دار النصرانية .

وقد تحقّق الفتح الأول على يد السلطان العثماني البطل ، محمد الفاتح ، وهو ابن ثلاثٍ وعشرين سنة ، يوم الثلاثاء ، العشرين من جمادى الأولى سنة (٨٥٧هـ) الموافق للتاسع والعشرين من مايو سنة (١٤٥٣م) وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ . وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله -ولا بدّ- ، ولتعلَمُنّ نبَأَهُ بعد حين .

قال الشيخ الألباني -رحمه الله- : "ولا شكّ أيضًا : أنّ تحقُّق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، وهذا ما بشرنا به ﷺ" [٢] .

وعن أُبي بن كعب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**بشِّرْ هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكنْ له في الآخرة من نصيب**) [٣]

---

(١) ينظر : مسند أحمد (١٧٦/٢) حديث رقم (٦٦٤٥) ؛ سنن الدارمي (١٣٧/١) حديث رقم (٤٦٨) ؛ مستدرك الحاكم (٤٦٨/٤) حديث رقم (٨٣٠١)

(٢) ينظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني (ط٢، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩هـ) (٨/١)

(٣) ينظر : مسند أحمد (١٣٤/٥) حديث رقم (٢١٢٦٠) ؛ مستدرك الحاكم (المستدرك على الصحيحين) ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، (ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠م) ، (٣٤٦/٤) حديث رقم (٧٨٦٢)

ومن المبشرات على عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة -إن شاء الله- : ما رواه حذيفة بن اليمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا عاضًّا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء ، ثم تكونُ مُلْكًا جبْرِيًّا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثمّ سكت**) [١] .

إن هذه البشائر من نصوص الكتاب والسنة ، ومن واقع الحضارات المادية الآيلة للانهيار ، ومن واقع الأمة الإسلامية التي بدأت تصحو على نداء المخلصين ، إن هذه وتلك لتقول بلسان حالها : " **الإسلام قادم** "

لئن عرف التاريخ أوسًا وخزرجًا فلله أوس قادمون وخزرج
وإنّ سجوف الغيب تخفي طلائعًا مجاهدة رغم الزعازع تخرج

ومن المبشرات : بقاء الطائفة المنصورة :

- عن عمر بن الخطاب ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى تقوم الساعة**) [٢]
- عن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله**

(١) ينظر : مسند أحمد (٤/ ٢٧٣) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة /٥)

(٢) ينظر : مستدرك الحاكم (٤/٤٩٦) حديث رقم (٨٣٩٠)

وهم كذلك) [١]

- عن قرة بن إياس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي منصورين ، لا يضرهم خذلان من خذلهم ، حتى تقوم الساعة**)[٢]

- عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم : تعال ، فَصَلِّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضَكم على بعض أميرٌ ؛ تَكْرِمةَ الله لهذه الأمة**) [٣]

- عن عمران بن حصين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم ، حتى يقاتل آخرُهم المسيح الدجال**) [٤] .

- عن عقبة بن عامر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا تزال عصابة من أمتي يُقاتلون على الحق لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم**

---

(١) ينظر : صحيح مسلم (١٥٢٣/٣) ح ١٩٢٠ .

(٢) ينظر : مسند أحمد (٣٤/٥) ؛ سنن الترمذي (٤٨٥/٤) حديث رقم (٢١٩٢) ؛ سنن ابن ماجة (٤/١) حديث رقم (٦) ؛ صحيح ابن حبان (٢٦١/١) حديث رقم (٦١) ، وصححة الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٧١٦٩)

(٣) ينظر: مسند أحمد (٣٤٥/٣) حديث رقم (١٤٧٦٢) ؛ صحيح مسلم (١٣٧/١) حديث رقم (١٥٦) ؛ صحيح ابن حبان (٢٣١/١٥) حديث رقم (٦٨١٩)

(٤) ينظر : مسند أحمد (٤٣٧/٤) ؛ سنن أبي داود (٤/٣) حديث رقم (٢٤٨٤) ؛ المعجم الكبير للطبراني (١١٦/١٨) حديث رقم (٢٢٨) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٥٩)

الساعة وهم على ذلك)[١]

۞ عن سلمة بن نفيل ﷺ أنه أتى النبي ﷺ فقال : إني سئمتُ الخيل ، وألقيتُ السلاح ، ووضعتْ الحرب أوزارَها ، قلت : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ : (**الآن جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس ، يُزيغُ الله قلوبَ أقوامٍ يقاتلونهم ، ويرزقُهم الله منهم ، حتى يأتي أمر الله ﷻ وهم على ذلك . ألا إنّ عُقر دار المؤمنين بالشام ، والخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)**[٢] . وفي رواية أخرى : (**ولا يزال من أمتي أمة يُقاتلون على الحق ، ويزيغ الله قلوب أقوام ، ويرزقهم منهم ، حتى تقوم الساعة ، وحتى يأتي وعد الله)**[٣]

وهذه الطائفة هم أصحاب الحديث ، وهذا قول عبد الله بن المبارك وعلي بن المديني . قال الإمام أحمد : "إن لم تكن الطائفة المنصورة أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم " . وقال البخاري : " يعني أصحاب الحديث " . وقال أيضًا : "وهم أهل العلم" . ولله در الخطيب البغدادي حين بوّب في كتابه (شرف أصحاب الحديث) فقال: "وقد جعل الله أهلَه أركان الشريعة ، وهدَم بهم كل شنيعة ، فهم أمناء الله في خليقته ، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته ، والمجتهدون في حفظ ملته . أنوارُهم زاهرة ، وفضائلُهم سائرة ، وآياتُهم باهرة ، ومذاهبُهم ظاهرة ، وحُججهم قاهرة . وكل فئةٍ تتحيز

(١) ينظر : صحيح مسلم (١٥٢٣/٣) حديث رقم (١٩٢٠)

(٢) ينظر : مسند أحمد (١٠٤/٤) ؛ المعجم الكبير للطبراني (٥٢/٧) حديث رقم (٦٣٥٧) ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٦١)

(٣) ينظر : السنن الكبرى للنسائي (٣٥/٣) حديث رقم (٤٤٠١) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٣٥)

إلى هوى ترجع إليه ، وتستحسِنُ رأيًا تعكف عليه ، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتابَ عُدّتُهم ، والسّنّةَ حجتُهم ، والرسول فئتُهم ، وإليه نِسبتُهم ، لا يَعْرجون على الأهواء ، ولا يلتفتون إلى الآراء . يُقبل ما رَووا عن رسول اللهﷺ ، وهم المأمونون عليه . العدولُ ، حفَظَةُ الدين وخزَنَتُه ، وأوعيةُ العلم وحَمَلَتُه . إذا اختُلِف في حديث كان إليهم الرجوع ، فما حكموا به فهو المقبول المسموع . ومنهم كل عالم فقيه ، وإمامٍ رفيع نبيه ، وزاهد في قبيلة ، ومخصوص بفضيلة ... "[1] .

أولئك حزب الله .... ولا تموتُ أمّةٌ هم فيها . فلن تخلُوَ الأرض من قائمٍ لله بحُجّة ، ولا يزال في هذه الأمة أهلُ علم يدعون من ضلّ إلى الهدى ، ويُبصِّرون بنور الله أهلَ العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحْيَوْه ، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هَدَوه ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

وهذا إن دلّ ، فإنما يدل على بقاء الخيرية في هذه الأمة ، وعدم انقطاعها . قال رسول الله ﷺ : (**مثل أمتي مثل المطر ، لا يُدرى أوّلُه خيرٌ أم آخرُه**)[2]

إنّ النصوص الواردة في التبشير بمستقبل الإسلام كثيرة ، وإنّ جميع هذه النصوص يبعث الأمل في نفس المسلم ، ويَقْشَعُ عن قلبه غشاوة اليأس والقنوط .

---

(١) ينظر : شرف أصحاب الحديث (٧/١)

(٢) ينظر : مسند أحمد (١٣٠/٣) حديث رقم (١٢٣٤٩) ؛ سنن الترمذي (١٥٢/٥) (٢٨٦٩) ؛ صحيح ابن حبان (٢١٠/١٦) حديث رقم (٧٢٢٦) ، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه .

ويجب على المسلم أنْ يَعْلمَ أنّ الدين الإسلامي هو الدين الذي يوافق الفطرة ، ويحقّق للناس مصالحهم في الدنيا والآخرة ، فالأديان السماوية قد نُسخت ، وحُرِّف ما فيها وبُدِّل ، والأنظمةُ البشرية يكفي في تصوُّرِ قصورها وفشلها أنّها مِن صُنْعِ البشر . فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين ، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج ، نستمد نحنُ يقيننا الذي لا يتزعزع ، في أن المستقبل لهذا الدين ، وأن له دورًا في هذه الأرض ، هو مدعوٌّ لأدائه ؛ أرادَ أعداؤه أمْ لم يريدوا .

المبحث الثالث
الصد عن الجهاد ومحاربة المجاهدين
أسلوب ثابت للمنافقين قديمًا وحديثًا

المطلب الأول : مكانة الجهاد في القرآن والسنة :

للجهاد مكانة عظيمةٌ في الإسلام ، ومنزلتُه رفيعة ؛ لذلك عَدّه بعض العلماء أحد أركان الإسلام . والجهاد دعامةٌ من دعائم الإسلام ؛ لا استقامة للإسلام ، ولا قوام لشرائعه إلاّ به .

والصد عن الجهاد يُعدّ من أكبر الضّرر على المسلمين ؛ لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام ، وأبرز صفات الإيمان ، ومنازلُ أهلِه أعلى المنازل في الجنّة . كما إنّ لهم الرّفعة في الدنيا . لذلك كان ﷺ في الذّروة العليا منه ، فجاهد في الله حق جهاده ، بالدعوة ، والبيان ، والسّيف ، والسّنان . فكانتْ ساعاتُه موقوفةً على الجهاد . لهذا كان ﷺ أعْظم العالَمين قدْرًا .

إنّ عزّ الأمّة ومستقبلها في الجهاد في سبيل الله ، ولا يمكن أن يعودَ الإسلام قويًّا عزيزًا إلا إذا أقمْنا راية الجهاد . وإنّ أيّ دعوةٍ ، أو تربية لا تجعل من أساساتها ومنهجها الجهادَ في سبيل الله ، والغاية التي يجب أن يسعى المسلمون لها ؛ هي دعوةٌ مخالِفةٌ لمنهج النبي ﷺ . علاوةً على أنها لا تُرهِب أعداء الله من الكافرين والمنافقين . والواقع خيرُ دليلٍ على ذلك . فنرى أعداء الإسلام لا يحارِبون أيّ دعوة ، وأيّ حركة لا تنادي بالجهاد في

سبيل الله . أما الدّعوة التي تنادي بالجهاد ؛ فهي محلّ الحرب ، وميدان المعركة .

ويزخر القرآن الكريم بالآيات العديدة ؛ التي تبيّن فضلَ الجهاد في سبيل الله . ومن حديث القرآن الكريم في هذا الشأن :

١- بيّن القرآن الكريم أن الجهاد في سبيل الله تجارةٌ رابحةٌ ، حصيلتُها بالنسبة إلى المجاهدين : طَيّ صفحات الخطايا التي اقترفها المجاهدون ، وإغلاقُ أبواب العذابِ دونَهم ، وفتْح أبواب النعيم أمامهم ، ومسيرهم في طريق النصر على عدوهم .

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يبشر المؤمنين بهذه الثمرات المباركة المترتبة على الجهاد . وهل هناك أصدق من الله فيما يَعِدُ به ، أو يبشّر ؟! قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]

٢- بيّن القرآن الكريم أن الروابط الأساس والعلاقات الاجتماعية والمصالح المادية وما شرع من مباهج الحياة ... هي من القيم التي لا يُستنكر على المسلمين أن يحرصوا عليها ؛ ما لم تفضَّلْ على قيمة الاستجابة لأمر الله ورسوله ، وتلبية نداء الجهاد في سبيله ؛ وذلك أن قيمة طاعة الله ورسوله ، والقيام بأمر الجهاد في شرع الله فوق كل القِيَمِ جميعًا ، وأيّ عَبَثٍ بهذا النَّسَق في ترتيب القيم التي حدّدها الله ﷻ للأشياء والأعمال هو فِسْقٌ وخُروجٌ عن

(١) سورة الصف ، الآيات ١٠ – ١٣

المنهج الذي رسمه الله لحياة المسلمين ؛ يُعرِّضُهم للسّخَط ، والتّهديد[١] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢] .

قال الشيخ ابن عاشور -رحمه الله- كلامًا نفيسًا في تفسير هذه الآية ، فقال : " وقد جمعت هذه الآية أصنافًا من العلاقات وذويها ، من شأنها أن تألفها النفوس ، وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها ، فإذا كان الثبات على الإيمان يجر إلى هجران بعضها كالآباء والإخوان الكافرين ، الذي بهجر بعضهم بعضًا إذا اختلفوا في الدين ، وكالأبناء والأزواج العشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم ، فلعل ذلك يقعده عن الغزو ، وكالأموال والتجارة التي تصد عن الغزو وعن الإنفاق في سبيل الله ، وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها فيصده إلفها عن الغزو ، فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين ، وبين ما تجر إليه تلك العلائق ، وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربه .... وخص الجهاد بالذكر من عموم ما يحبه الله منهم ، تنويهًا بشأنه ، ولأن ما فيه من الخطر على النفوس ومن إنفاق الأموال ومفارقة الإلف ، جعله أقوى مظنة للتقاعس عنه " [٣] .

٣- قدَّم القرآن الكريمُ الجهادَ على جميع الأعمال المبرورة في

(١) ينظر : الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، هيكل ، محمد خير ، (ط٢ ، بيروت ، دار ابن حزم ، ١٤١٧هـ) (٨٣٦/٢)

(٢) سورة التوبة ، الآية ٢٤

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٥٣/٥) .

الإسلام (حاشا الفرائض كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ؛ فهذه مقدَّمةٌ على ما سواها) وإنْ كانت تلك الأعمال المبرورة : خدمةَ حُجّاج بيت الله ، وعمارةَ المسجد الحرام ، والجوارَ عندَه .

قال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)

٤- جعلَ القرآنُ الكريمُ المجاهدينَ في سبيل الله من أهدى الناس إلى الحق ، وأسعدهم بسبيل الله ﷻ عند اختلاف الناس .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : "ولهذا كان الجهاد مُوجِبًا للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ فجعل لمن جاهد فيه هدايةَ جميع سُبُلِهِ تعالى . ولهذا قال الإمامان **عبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل** ، وغيرُهما :"إذا اختلف الناس في شيءٍ ، فانظروا ماذا عليه أهل الثغر ؛ فإن الحقَّ معهم ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٣)

هذا ؛ وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٩

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩

(٣) ينظر : مجموع الفتاوى (١٥٢/٢٨) .

وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ (١)

قرأها الجمهور : (قاتَلوا) وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم (قُتِلوا)

٥ – الجهاد في سبيل الله تعالى من أعظم وسائل تربية النّفس وتزكيتها باطنًا وظاهرًا .

فكم من الأخلاق الفاضلة وأعمال القلوب الزكية لا يمكن إصلاحها والوصول بها إلى كمالها –أو قُرْبِ كمالِها– إلاّ بالجهاد في سبيل الله تعالى . وبدون الجهاد في سبيل الله ستبقى هذه الأعمال ضعيفةً ، أو يصعُب على العبْد تكميلُها وهو قاعد .

وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام **ابن تيمية رحمه الله** في تعليقه على كون الجهاد ذروة سنام هذا الدين ؛ إذ قال :"ولهذا كان الجهادُ سَنام العمل ، وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة . ففيه سنام المحبة ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

٦ – في الجهاد حقيقة الزهد في الحياة الدنيا .وفيه أيضًا حقيقة الإخلاص .

فإن الكلام فيمن يجاهد في سبيل الله ؛ لا في سبيل الرئاسة ، ولا في سبيل المال ، ولا في سبيل الحمية . وهذا لا يكون إلا لمن قاتل لتكون

(١) سورة محمد ، الآيتان ٤–٥

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤

كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله . وأعظم مراتب الإخلاصِ تسليمُ النفس والمال للمعبود . كما قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1]

وفي الآخرة تتحقّقُ الثمرة العظمى للجهاد في سبيل الله تعالى ، التي يتنافس فيها المتنافسون ويضحّي في سبيلها المجاهدون بأرواحهم رخيصةً ، راضيةً بها نفوسهم . كيف لا ، وهم يرجون رحمةَ الله ، ورضوانَه ، وجناتِه ؟! هذه الغاية الشريفة ، والثمرة العظيمة التي يرخُص في سبيلها كل شيء .

قال القرطبي رحمه الله : " إن هذه الآية نزلت في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان اصغرهم سنًا عقبة بن عمرو ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي ﷺ : اشترط لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئًا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني ما تمنعون من أنفسكم وأموالكم ، فقالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟، قال : الجنة ؛ قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، ثم هي بعد ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة"[2] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١١١

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٦٩/٤) ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٣١/٢) .

إنّ المتأمل في كتاب الله ﷻ ، والمتدبر لجميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجنة والنار ، وما أعدّ الله ﷻ لأوليائه من النعيم والرضوان ؛ يسبق هذه الآيات - في العادة- صفاتُ الموعودين بذلك . وباستقراء أوصافهم نجد أنها تكاد تنحصر في المجاهدين ، والصابرين ، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

وفيما يأتي بعضُ الآيات التي يذكر الله ﷻ فيها ما أعدّ لعبادِه المجاهدين من الرّحمة ، والنعيم ، والرضوان :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٨

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤٢

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٧

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٧٤

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(١)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٢)

وأما الأحاديث في فضائل الجهاد ، وما أعد الله للمجاهدين ، والشهداء في الآخرة ، فهي كثيرة جدًّا . والمتأمل في أحاديث الفضائل يجد أن ما من عمل صالح جاء في فضيلته والترغيب فيه والثناء على أهله ، أحاديث كثيرة لم تأت لغيره من الصالحات ؛ كما جاء في شعيرة الجهاد .

ومن هذه الأحاديث :

- يقرر النبي ﷺ مكانة الجهاد في سبيل الله بين غيره من الأعمال ؛ فيجعله على رأس تلك الأعمال جميعًا -بعد الإيمان بالله ﷻ- .

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال :

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٦٩ - ١٧٢

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١١

سألت النبي ﷺ : أيّ لأعمال أفضل ؟ ، قال : (**إيمان بالله وجهادٌ في سبيله**)[١]

يقول ابن حجر -رحمه الله- : "وفي الحديثِ : أنّ الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان"[٢]

- كما بين النبي ﷺ أن القاعدين عن الجهاد من المؤمنين الصالحين مهما اجتهدوا في أعمال البر في غير ميدان الجهاد ، فلن يلحقوا بركب المجاهدين .

جاء في صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : (**لا تستطيعونه**) فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا ، كلّ ذلك يقول : (**لا تستطيعونه**) ثم قال :(**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**)[٣].

قال الإمام النووي -رحمه الله- :"وفي الحديث : عظيمُ فضل الجهاد ؛ لأن الصّلاة ، والصّيام ، والقيام بآيات الله تعالى أفضلُ الأعمال . وقد جعل الله المجاهد مثالَ مَنْ لا يفتر عن ذلك في لحظة من اللحظات . ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : (**لا تستطيعونه**) "[٤] .

- كما بينت السنة النبوية أنّ الجهادَ في سبيل الله وسيلةُ أمانٍ مِن النارِ ، ونجاةٌ من العذاب يوم القيامة .

---

(١) ينظر : صحيح البخاري (١١٧/٣) حديث رقم (٢٥١٨) ؛ صحيح مسلم (٨٨/١) حديث رقم (٨٤)

(٢) ينظر : فتح الباري (١٤٩/٥)

(٣) ينظر : صحيح مسلم (١٤٩٨/٣) حديث رقم (١٨٧٨)

(٤) ينظر : شرح صحيح مسلم (٨٢/٨ - ٨٣)

روى البخاري في صحيحه : أنّ رسول الله ﷺ قال : (**ما اغبرّتْ قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسُّه النار**)[١]

- ومن تكريم الإسلام للمجاهد في سبيل الله أنْ جعله أفضلَ الناس :

فقد جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : سُئل رسول الله ﷺ : أيُّ الناسِ أفضل ؟ قال : (**رجل يجاهد في سبيل الله**)[٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ ، قال : (**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرّة قدماه ، إنْ كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة**)[٣]

- وجاء في صحيح البخاري في فضل العمل القليل من أعمال الجهاد:

قوله ﷺ : (**رباطُ يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**)[٤]. وقال ﷺ: (**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه وأمن الفتان**)[٥]. وقوله ﷺ : (**من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فُواقَ ناقة وجبت له الجنة**)[٦]. وقوله ﷺ : (**ولولا أن أشق**

---

(١) ينظر : صحيح البخاري (١٠٣٥/٣) حديث رقم (٢٦٥٦)

(٢) ينظر : صحيح البخاري (١٠٢٦/٣) حديث رقم (٢٦٣٤) ؛ السنن الكبرى للنسائي (٨/٣) حديث رقم (٤٣١٣)

(٣) ينظر : صحيح البخاري (١٠٥٧/٣) حديث رقم (٢٧٣٠) ؛ سنن أبي داود (٥/٣) حديث رقم (٢٧٣٠)

(٤) ينظر : صحيح البخاري (١٠٥٩/٣) حديث رقم (٢٧٣٥)

(٥) ينظر : السنن الكبرى للنسائي (٢٦/٣) حديث رقم (٤٣٧٦)

(٦) ينظر : السنن الكبرى للنسائي (١٨/٣) حديث رقم (٤٣٤٩) ؛ سنن ابن ماجه (٩٣٣/٢)

على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أني أُقتَل في سبيل الله ، ثم أحيا ثم أُقتَل ، ثم أحيا ثم أقتل)[١]. وقوله ﷺ: (**بُعِثْتُ بين يدي الساعة وجعل رزقي تحت ظل رمحي**)[٢].

هذا غيض من فيض مما جاء في السنة النبوية الكريمة في بيان فضل الجهاد ، ومكانة المجاهدين عند الله تبارك وتعالى .

وفي المقابل ؛ وردَ في **التحذير من الصّدّ عن الجهاد** ، والتثبيط عنه ، وترْكِه مِن قِبل المنافقين ، وما في ذلك من المخاطر العظيمة على الأمة ؛ آياتٌ وأحاديث كثيرة .

فمن ذلك :

١- **في إفشاء الشرك والظلم ، وعلوّ الكفر وأهله ، واستعباد الناس بعضهم بعضًا** يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣] . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤] .

حديث رقم (٢٧٩٢)

(١) ينظر : صحيح البخاري (٢٢/١) حديث رقم (٣٦) ؛ السنن الكبرى للنسائي (١٤/٣) حديث رقم (٤٣٤٠)

(٢) ينظر : مصنف ابن أبي شيبة (٢١٢/٤) ؛ مسند أحمد (٥/٢) حديث رقم (٥١١٤)

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥١

(٤) سورة الحج ، الآية ٤٠

٢- **وفي أنّ تزك الجهاد سببٌ للذّل والهوان** ، يقول ﷺ : (**لئن تركتم الجهاد ، وأخذتم بأذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ليلزمَنّكم الله مَذَلَّةً في رقابكم؛ لا تنفكّ عنكم حتى تتوبوا إلى الله ، وترجعوا إلى ما كنتم عليه**)[١]

وهذا أمر مشاهد في عصرنا الحاضر ؛ إذ تسلّط الكفار على بلاد المسلمين ، يأكلون خيراتِنا ، ويتدخّلون في شؤوننا ، ويذلّون أهلينا . وما ذاك إلا بتعطيل أحكام الله ، وترْك الاحتكام إلى شرعه ؛ ومن ذلك : تعطيل شريعة الجهاد . ولن يُرفع عنّا هذا الذلّ حتى نرجع إلى دينِنا ، ونحملَ رايةَ الجهاد ضد الكفار[٢] . قال ﷺ : (**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه حتى يراجعوا دينهم**)[٣] .

يقول سيد قطب -رحمه الله- : "والذين يخشون العذابَ ، والألَمَ ، والاستشهادَ ، وخسارةَ الأنفسِ والأولاد والأموال ؛ إذا هم جاهدوا في سبيل الله : عليهم أن يتأملوا ماذا تكلّفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق ، والأعراضُ . إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلِّها لن تكلّفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله . وفوق ذلك كُله : الذّلُّ ، والدَّنَسُ ، والعَارُ"[٤]

٣- **وفي تَرْك الجهاد تفويتٌ لمصالحَ عظيمةٍ في الدنيا والآخرة ؛**

---

(١) ينظر : مسند أحمد (٥/٤٤)

(٢) ينظر : التربية الجهادية في ضوء الكتاب والسنة ، الجليل ، عبد العزيز بن ناصر ، (الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤٢٥هـ) بتصرُّف .

(٣) ينظر : سنن أبي داود (٣/٢٧٤) حديث رقم (٣٤٦٢)

(٤) ينظر : في ظلال القرآن (٤/١٩٤١)

منها : الأجر العظيم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين والشهداء في الآخرة ، **ومنها** : الحياة العزيزة في الدنيا ، وإقامة شرع الله ﷻ ، والشهادة ، والغنائم ، والتربية الإيمانية التي لا تحصل إلا في أجواء الجهاد ، ومراغمة أعداء الله تعالى .

٤ - **وفي ترك الجهاد والصد عنه تكثرُ العداوة ، والفُرْقة بين المسلمين**. وهذا أمر مُشاهَد . فما من وقتٍ تَركت فيه الأمّةُ الجهادَ في سبيل الله ﷻ إلا انشغلت بنفسها ، ووجّه المسلمون حِرابهم إلى صدور إخوانهم ، وانشغل بعضهم ببعض .

وما أجمل ما قاله **ابن تيمية -رحمه الله-** :"اعلموا أن الجهاد فيه خيرُ الدنيا الآخرة ، وفي ترْكِه خسارةُ الدنيا والآخرة"[١] .

لأنّ في ترك الجهاد ضياع البلاد والعباد . ولذلك ؛ كان من البدهي أن يصدّ المنافقون عن الجهاد قولًا وعملًا ؛ لأنهم هم والكافرون ملّةٌ واحدةٌ في صدهم عن الجهاد ومحاربة المجاهدين ، وتثبيطهم عن الجهاد . وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان ، وقد فضحهم الله تعالى في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٢]

- **وتزكُ الجهاد قرينةٌ دالّةٌ على النّفاق ، ومرض القلوب** . قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

(١) ينظر : مجموع الفتاوى (١٥٢/٢٨)

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٨

ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[١]

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-** :"فهذا إخبارٌ من الله بأن المؤمنين لا يستأذنون الرسول ﷺ في ترك الجهاد ، وإنما يستأذِنُه الذين لا يؤمنون . فكيف بالتارك من غير استئذان ؟!"[٢]

وقال -رحمه الله- :"قد جعل الله لأهل محبته علامتين :

الأولى : إتباع الرسول ﷺ .

الثانية : الجهاد في سبيل الله . وذلك لأن الجهادَ حقيقتُه في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، وفي دفع ما يبغِضُه من الكفر والفسوق والعصيان"[٣] .

وأخبرنا ﷺ بأنّ عدم الاستعداد للجهاد علامة من علامات النفاق . فقال ﷺ : (**من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**)[٤] . وقال تعالى عن المنافقين في صدهم عن الجهاد أيضًا : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٥]

وقال المنافقون بعضهم لبعض ، وقالوا للمؤمنين : (لا تَنفروا في

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٤٤ – ٤٥

(٢) ينظر : مجموع الفتاوى (١٥٢/٢٨)

(٣) ينظر : العبودية ، (الإسكندرية ، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م) ، (ص٧٩)

(٤) ينظر : صحيح مسلم (١٥١٧/٣) حديث رقم (١٩١٠) ؛ سنن أبي داود (١٠/٣) حديث رقم (٢٥٠٥)

(٥) سورة الأحزاب ، الآية ١٨ .

الحر) زهادةً في الجهاد ، وشكًّا في الحق ، وإرجافًا برسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى قولَه : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[1] .

قال ابن كثير رحمه الله : " يقول الله تعالى ذامًا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه : ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ ﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أي بعضهم لبعض ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ ، وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، فلهذا قالوا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ، وقل لهم : ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فررتم منه من الحر ، بل أشد حرًا من النار ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءً من نار جهنم**)[2] .

وقال تعالى أيضًا في وصف المنافقين المعوقين المثبطين للهمم ، الصادّين عن رسول الله ﷺ والقتال معه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٨١

(٢) ينظر : صحيح البخاري (١١٩١/٣) الحديث (٣٠٩٢) ؛ وينظر : تفسير القرآن العظيم (٥١١/٢) ؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣٧/٤) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٨

وقولهم : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[١]

هذه بعض أقوال المنافقين الجبناء ، الذين يدعون الناس إلى الجُبن ، ويجعلونهم يتخلفون عن القتال ؛ لأن المنافقين كارهون للجهادِ وأهلِه . فالجهاد في الإسلام دفاع عن الحق ، وحمايةٌ له ؛ والمنافقون لا يحبّون الحق . قال تعالى : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾[٢]

المطلب الثاني : أسباب صد المنافقين عن الجهاد :

جاءت مواقف المنافقين هذه في الصد عن الجهاد لأسبابٍ عدة ؛ منها:

أولا : الخوفُ ، والجُبن :

قال تعالى : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾[٣]

والمنافقون لشِدّة كراهيتِهم للجهاد ، ورُعْبِهم من ظهورِ نفاقهم للمسلمين ؛ يَتَمَنَّوْن الخروجَ من ديارهم ، والفرارَ منها ، للعيش في مضيقٍ

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٣

(٢) سورة التوبة ، الآية ٨١

(٣) سورة التوبة ، الآيتان ٥٦ – ٥٧

من الأرض ، يعتصمون به ؛ حتى لا تنكشف حالهم . فلو وجدوا ملجًا ، أو مغاراتٍ ، أو مُدَّخَلًا يندسّون فيه لَوَلَّوْا إليه وهم يسرعون كالفرس الجموحِ ، لا يردُّهم شيءٌ [١] .

قال ابن كثير -رحمه الله- مفسرًا هذه الآية في وصف المنافقين : "يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يمينًا مؤكدة ، أي : في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ، أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ وحرزًا يحترزون به ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ ، وهو السرب في الأرض والنفق ، قال ذلك من ثلاثة ، ابن عباس ومجاهد وقتادة ، ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي : يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم يخالطونكم كرهًا لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولذلك لا يزالون في هم وحزن وغمّ ، لأن أحكام الإسلام وأهله ، لا يزال في عزٍ ونصرٍ ورفعةٍ ، فلهذا كلما سُرّ المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين" [٢] .

لقد كان خوُف المنافقين دافعًا من دوافع التخلف عن الجهاد في سبيل الله ، والفرارِ من ميدان المعركة ؛ ليكونوا مع الخوالف . قال تعالى : ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[٣] أي : هم يريدون الفرارَ . **وحُجَّتُهم في ذلك** : أنّ البيوتَ خاليةٌ من

(١) ينظر : لغة المنافقين (ص١٩٤)

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٤٩٤/٢) .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ١٣

أهلها ، فصارتْ عُرضةً للسَّرِقَة . ففضحهم الله : ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ من الميدان .

ثانيًا : حُبُّ الحياة ، والحِرصُ على ملذّاتِها :

إنَّ حُبَّهم للحياةِ ، وكَراهيتَهم للموت ، والحرصَ على متاع الحياة الدنيا ، والطمعَ في الحصول على كل شيءٍ دون أن يقدموا شيئًا ؛ هو الذي جعلهم يخافون ، ويكونونَ جبناءَ . ولا غرابةَ في ذلك ؛ فهم يُشْبِهُون اليهودَ . قال تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]

هكذا (**حياةٍ**) بالتنكير ، والتحقير ؛ أيّة حياةٍ ؟ ما قيمتها ؟ مدتها ؟ وعلى حساب من ؟ المهمّ : أنهم يعيشونَ ، وبأيّ ثَمنٍ كانَ .

المنافقون الذين رسّخوا في نفوسهم حياة اليهود ، وسلكوا هذا المنهج، يركضون وراء مصالحهم أينما كانت ، ولو مع الكافرين . ولأجل ذلك يوالون الكفار واليهود . قال تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾[2] .

روى الطبري -رحمه الله- في سبب نزول هذه الآية عن الإمام الزهري رحمه الله قال : "لما انهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأوليائهم اليهود :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٩٦

(٢) سورة المائدة ، ألآية ٥٢

أسلموا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن الصيف : أغركم أن أصبتم رهطًا من قريش لا علم لهم بالقتال ؟، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم ، لم يكن لكم يدٌ أن تقاتلونا ، فقال عبادة بن الصامت : يا رسول الله إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم ، كثيرًا سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، ولا مولى لي إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أُبي : ولكني لا أبرأ من ولاية يهود ، إني رجل لا يد لي منهم ، وفي رواية : إني رجل أخاف الدوائر ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا حباب أرأيت الذي نفِست به من ولا ية يهود على عبادة بن الصامت ؟، فهو لك دونه ، فقال : إذن أقبل "[1] .

ويضيف سيد قطب -رحمه الله- كلامًا هامًّا موضحًا موقف المسلم من خلال هذه الآية الكريمة فيقول : "إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعًا على أساس العقيدة ، فالولاء والبراء والعداء ، لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة ... ومن ثمَّ لا يمكن أن يقوم الولاء وهو التناصر بين المسلم وغير المسلم ، إذ إنهما لايمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة ... ولا حتى أمام الإلحاد مثلًا ، كما يتصور بعض السذج منا ، وبعض من لا يقرأون القرآن ... إن الأمر في التصور الإسلامي ، وفي حس المسلم واضح محدد ... الدين هو الإسلام ، وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام ، لأن الله ﷻ يقول هذا يقول : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، وبعد رسالة محمد ﷺ لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا الإسلام ، وفي صورته التي جاء بها محمد ﷺ ، وما كان يقبل قبل

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (٦/٢٧٥) .

بعثة محمد ﷺ من النصارى لم يعد الآن يقبل ، كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام لم يعد يقبل منهم بعد بعثته " [١]

وخلاصة القول :

إنّ قضايا العصر الشائكة ، وجراحاتِه النافذة ، وآلامِه المتداخلة ، وكفرياتِه ، ونفاقِه ؛ لا حلّ لها إلا بالجهادِ في سبيل الله بالسيف ، والسنان ، والعلم والبيان ، ومقاتلةِ الكفارِ المبدّلين لدينِ الله ، والطّغاةِ والمنافقين ، والمرتدين : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [٢]

فالواجب يحتّم علينا إحياءَ فقهِ الجهادِ ، وتعليمَه ، وتدريسَه في البيوت، والمساجدِ ، والمحاضراتِ ، والخُطبِ ، وتدريسِ سِيَرِ الصحابةِ الأبطالِ رضي الله عنهم ، والقادةِ في المعاركِ والحروبِ ، وفي مقدمتهم : القائدُ الأعلى ، وإمامُ المجاهدين رسولُنا محمد ﷺ . أي : يجب إعدادُ الأمة جماعاتٍ وأفرادًا للجهاد في زماننا هذا . وعلينا كذلك أن نحذّر من العواقب الوخيمة على الأمة إنْ هي رَكنتْ إلى الدّنيا ، وتركتْ الجهادَ . وكما قلنا : إنّ الصدَّ عن الجهادِ ، والركونَ إلى الدنيا هو منهجٌ ثابتٌ للمنافقين قديمًا وحديثًا .

أما منهج النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة فهو مجاهدةُ الكفار والمنافقين ، والإغلاظُ عليهم . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [٣] . وقال ﷻ :

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (٢/٩١٤- ٩١٥) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٢٨

(٣) سورة التحريم ، الآية ٩

(**بُعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي**)[١] . وقال ﷺ : (**أنا الضَّحُوكُ القتّال**) يعني : أنّه ضَحوكٌ في وجهِ وليّه ، قتَّالٌ لوجْه عدوّه[٢].

فلا بدّ مِن رفْعِ رايةِ الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإحياءِ هذه الفريضة الغائبة عن كثير من المسلمين . ولا بدّ مِن تربيةِ أبناءنا وأجيالِنا على حبِّ الجهاد في سبيل الله ، والتطلُّعِ إلى نَيْلِ شرف الشهادة في سبيل الله . ولا بدَّ أنْ نعلِّمَهم ذلك ، ونجعلَه في صلب عقيدتهم ، وأنَّ عِزَّ وشرفَ الأمة في الجهاد في سبيل الله ، وأنَّ الأمة ما حرصت على الجهاد وتمنّت الشهادة في سبيل الله إلا وهب الله لها الحياة ، وأَعزَّها بين الأمم ، وما تخلَّفت الأمّةُ عن الجهاد وتركتْه ، وركنت إلى الدنيا وملذّاتها ، وخافت من الموت ، إلاّ كُتب عليها الذّلُّ ، والعارُ ، والمهانةُ ، والانتكاسةُ .

فهنيئًا لِمن حَملَ روحَه على كَفِّه حُبًّا للشهادة في سبيل الله ، ونشْرًا لهذا الدين في أرجاء الأرض . فهؤلاء هم الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأخلصوا دينَهم لله . فرضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، وذلك دِين القَيِّمةِ .

روى ابن عساكر مُراسلةً بديعةً جرَتْ بين عبد الله بن المبارك ، وبين الفُضيل بن عياض -رحمهما الله- تُبيّن فضلَ الجهاد ، ومنزلةَ الشهادة . قال : روى محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة ، قال :"أملى عَلَيَّ عبدُ الله بن المبارك وهو بطرسوس -ثغْرٌ في بلادِ الرّوم- سنةَ سبع وسبعين ومائةٍ هذه الأبياتِ ، وأنْفَذَها معي إلى الفُضيل بن عياض . قال :

---

(١) ينظر : مسند أحمد (٥٠/٢) حديث رقم (٥١١٤)

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٤٠٣/٢)

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذبُ
لا يستوي غبار أهل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذبُ

قال : فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذَرَفَتْ عيناهُ ، وقال : صَدَقَ أبو عبد الرحمن ، ونصحني[١] .

وما أرْوع ما قاله الشيخ أبو الوفاء ابن عقيل –رحمه الله تعالى– : (إذا أردْتَ أن تعرف محلّ الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى ازْدِحامهم في أبواب المسجد ، ولا في ضجيجهم بلبّيْك ، ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة . فالملجأ الملْجأ على حصن الدين ، والاعتصام بحبل الله المتين ، والانحياز إلى أوليائه المؤمنين . والحذَر الحذَر من أعدائه المخالفين . فأفضلُ القُرَب إلى الله تعالى مقْتُ مَن حادّ الله ورسولَه ، وجهادُه باليد واللسان والجنان – بقدْر الإمكان–)[٢].

(١) ينظر : تاريخ دمشق (٤٤٩/٣٢)

(٢) ينظر : الدرر السنية – جزء الجهاد– (ص٢٣٨)

الفصل الرابع

أسلوب السخرية ومحاربة الإسلام عن طريق الدعوة إليه

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : **سخرية المنافقين ، وحكم عقوبتهم .**
- المبحث الثاني : **أسلوب محاربة المنافقين للإسلام عن طريق الدعوة إليه بتمزيق الصف المسلم .**

المبحث الأول
سخرية المنافقين وحكم عقوبتهم

المطلب الأول : أسلوب سخرية المنافقين بالرسول ﷺ واتهامه بما لا يليق :

السخرية والاستهزاء : كلمتان مترادفتان لمعنى واحد ، من باب : سخرت منه ، إذا هَزِئت به . والمراد بالسخرية : الهُزْء به ، والضّحك منه ، والاسم : السخرية [١] .

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [٢] .

أما في الاصطلاح ، فيمكن القول : إنّ السخرية أسلوب عدائي مَصُوغٌ بروح الفُكاهة [٣].

وتؤدَّى السخرية بألفاظ ؛ منها : اللَّمْزُ . وهو : العَيْبُ . وأصله : الإشارة بالعين ، ونحوها . ورجل لَمَّازٌ ؛ أي : عيّاب[٤] .

وقد استخدم جميعُ أعداء الإسلام (اليهود-المشركون-المنافقون)

---

(١) ينظر : لسان العرب (١٨٣/١)

(٢) سورة هود ، الآية (٣٨) .

(٣) ينظر : أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، حنفي ، عبد الحليم ، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م) (ص١٥) .

(٤) ينظر : لسان العرب (٤٠٧/٥)

أسلوبَ السّخرية والاستهزاء . إلا أن سخريةَ المنافقين واستهزاءَهم تختلف عن غيرهم من الكافرين ؛ لأن سخرية الكافرين تصدُر من أفراد مخصوصين ، فهي لا تُنسب إلى الكافرين عامة ، وإنّما إلى نفرٍ ، أو جماعاتٍ منهم . على النقيض من المنافقين ، فإن السخريةَ جزءٌ من طبيعتهم جميعًا ، وصفةٌ من صفاتهم ؛ علاوةً على أن السخرية عند الكافرين سلاحٌ عدائي يراد به الإضرار بالإسلام والمسلمين ، بينما المنافقون سخريّتهم نابعة مِن فقدانهم العقيدة ؛ فهم لا يرون في أيّ دينٍ أو عقيدةٍ شيئًا يستحق الاهتمام .

لهذا جعل الرازي المنافقَ يضم إلى كُفرِه الاستهزاء ؛ بخلاف الكافر . ولأجله غُلِّظَ بكفره [١].

وكان المنافقون يسخرون من النبي ﷺ ؛ ظنًّا منهم أنّ ذلك كفيل بالقضاء على الدعوة والدولة الإسلامية الناشئة في المدينة .

وقد استخدَم المنافقون أسلوب السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ وبالمؤمنين في غزوة تبوك ؛ بكل ما يملكون من أساليبَ خبيثةٍ ؛ هدفهم هو : الاحتقار والتهوين من شأن هذا الدين ، ورسوله ﷺ . وهم في ذلك يعبرون عما تنطوي عليه نفوسهم من الكفر بالحق ، الذي يُظهِرون الإيمان به اضطرارًا ومكرًا . فالسخرية تعبر عن حقيقة ما يُبطِنون في أنفسهم ، وتترجِمُ قولهم فيما حَكى سبحانه وتعالى عنهم : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [٢] .

---

(١) ينظر : التفسير الكبير ، الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر الشافعي (ت ٦٠٦هـ) ، (ط٣، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت) ، (٦٦/١)

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤

السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ يوم تبوك :

بيّن -سبحانه وتعالى- لنا أن المنافقين لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد والتخذيل عنه، ولا بإمساك أموالهم وقبض أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ؛ وإنّما تجاوزوا ذلك إلى الاستهزاء بالرسول ﷺ وبالمؤمنين ، فاتّهموا النبي ﷺ بالبلاهة . يقول الله تعالى عن هذا في غزوة تبوك : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١]

قال الآلوسي -رحمه الله- :" نزلت في جماعة من المنافقين ؛ منهم : الجلّاس بن سويد ابن الصامت ، ورفاعةُ بن عبد المنذر ، ووديعة بن ثابت ، وغيرهم . قالوا ما لاينبغي في حقه ﷺ ، فقال رجل منهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمدًا ﷺ ما نقول ، فيقع بنا . فقال الجلّاس : بل نقول ما نشاء ، ثم نأتيه ، فيصدّقنا بما نقول ، فإنّ محمدًا ﷺ أُذُن[٢].

وفي روايةٍ : أُذُنٌ سامعة"[٣]. قال ابن اسحاق [٤] في هذه الآية :"وكان

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٦١

(٢) **الأُذُن** : في الأصل هي الجارحة . وتستعار لمن كَثُرسماعُه وقبوله لما يَسمع ، من غير أن يتدبّر فيه . سمي بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأنّه في جملته أُذنٌ سامعة . ينظر : الكشاف (١٩٩/٢)

(٣) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الآلوسي : أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني (ت ١٢٧٠هـ) ، (بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د.ت) (١٢٥/١) .

(٤) العلامة الحافظ الإخباري ، أبو بكر القرشي ، المطّلبي ، صاحب السيرة النبوية . سمع خلقًا كثيرًا . وهو أوّل مَن دوَّن العلم بالمدينة . مات سنة (١٥٢هـ) ينظر : سِيَر أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، (ط٩ ،=

الذي يقول تلك المقالة -فيما بلغني- نَبْتَلُ بنُ الحارث . وفيه نزلت هذه الآية؛ وذلك أنه كان يقول : إنما محمد أُذُنٌ ، فمن حدّثَهُ شيئًا صدَّقَه . قال ابن اسحاق : وكان نَبْتَلُ رجلًا جسيمًا ، ثائرَ الرأس واللحية ، آدمَ ، أحْمرَ العينين، أسفعَ الخدين ، مشوَّهَ الخِلْقة . وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : **(من أراد أن ينظر إلى شيطان ، فلينظر إلى نبتل بن الحارث)**[1]

كان بعض المنافقين في المدينة إذا دخل بعضهم على بعض ، أخذوا يتحدّثون في النبي ﷺ بما يؤذيه ، فيعيبون ويسخرون منه ، وينتقصون من قدره . وكان ﷺ يطّلع على كثيرٍ مما يدور بينهم ، أحيانًا عن طريق الوحي (كما في هذه القصة) وأحيانًا عن طريق بعض المؤمنين الذين يُؤْلمهم ما يسمعونه من الكلام الجارح ، فينزل الوحيُ بصدقهم (كما سيأتينا) ولكنّ بعضهم لِكَثْرة ما كان يعاملهم به النبي ﷺ من الحِلْم والعفو، قد ظنّوا أن أمرهم قد خفي عليه ، وأنّه يصدّقهم في كلّ ما يقولونه له ، ويقبلُ جميع أعذارهم . فلَجُّوا في غوايتهم ، حتى بلغ من لؤمِهم وخُبْثِ نفوسهم أن اعتبروا ما كان يعاملُهم به النبي ﷺ من العفو والسماحة نوعًا من الغفْلة والبَلَهِ . فنزل القرآنُ يكشِفُ حقيقتهم ، ويبيّنُ لهم خطأ ما توهّموهُ في النبي ﷺ مِنْ أنّه يقبل أعذارَهم الكاذبة قبولَ اقتناعٍ وتسليمٍ .

فالمنافقون قصدوا بقولهم ـ هو أذن ـ يعني : يصدِّقُ كلَّ ما يسمع ، من غير وزنٍ ولا تقديرٍ فإذا اطّلع علينا ، ذهبنا إليه فاعتذرنا منه ، فصدَّقَنا بما نقول ، فلا يهمّ اطلاعُه على ما يجري منّا

فأجابهم الله تعالى مبيّنًا حقيقةَ مقامه ، وقيمةَ وجوده ، وعظَمَةَ نُبوّتِه

=بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ) ، (٣٠٣/٧)

(١) ينظر : السيرة النبوية (٥٥/٣)

بينهم ، فقال : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أي : هو أُذُنٌ في الخير والحقّ ، فيما يُشرعُ سماعُه وقبوله، وليس بأُذُنٍ في غير ذلك ، ولن يأمرهم إلا بما فيه خيرهم ، ولن يُحذرهم إلا عما فيه شرٌّ لهم . وليس رسول الله ﷺ كما يتصور المنافقون من أنّه يصدّق كلَّ ما يسمع ؛ بل هو لا يصدِّقُ إلا ما يأتيه عن الله ؛ لأن هذا هو اليقين القطعي الذي لا يتطرق إليه الشك . ويصدِّقُ المؤمنين الصادقين في إيمانهم ؛ لأنهم لن يحدثوه كذبًا ؛ لأن الكذب يتناقض مع الإيمان الحق . أما أنتم أيها المنافقون، فإنه لا يصدِّقكم ، وإنْ حلفتم له بالله ، لأنكم بكفركم قد فقدتم الوازع الذي يمنعكم من الكذب . وإذا كنتم تتهمونه بأنه أُذُنٌ سامعة ، فهو كذلك ، ولكن فيما فيهِ خيركم وخير البشرية لو كنتم تعقلون ؛ لأنه يسمع ما يُلقى إليه من الوحي ، فيبلِّغُكم إياه ، وفي هذا خيركم وصلاحكم في الدنيا والآخرة .

وهو رحمة للمؤمنين به ؛ لأنهم هم الذين استجابوا لدعوته ، فأنقذهم الله به من الضلالة إلى الهدى ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور . أما الذين كفروا من المنافقين ، فهو نقمة عليهم لأنهم لم يستجيبوا لدعوته ، فقامت الحجة به عليهم ، وباؤوا بالعذاب الأليم يوم القيامة .

ومن هنا تزول الدهشة . ولا تستغرب عندما نسمع من يقول من منافقي هذا الزمان ويلمز الدعاة ، والمجاهدين ، والملتزمين بأنهم متطرّفون ، وسُذَّجٌ ، وبُلْهٌ ، ومغفّلُون . وغيرها من كلمات السخرية ، والاستهزاء ، والاحتقار . وهذه الصفة في الحقيقة تسليةٌ للدعاة والمخلصين من المؤمنين مما يلمزونهم به ، فقد لُمِزَ بها خير البشرية ﷺ .

ويُستفاد من هذه الحادثة حكمٌ شرعيٌّ ثابتٌ لا يتغير ، وهو : أنّه من شتم النبيّ ﷺ ، أو استخفّ به : يَجِبُ قتْلُه . هذا مذهب عامة أهل العلم .

وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث حكم الاستهزاء بالله ، وآياته ورسوله، في ضوء الشريعة الإسلامية .

المطلب الثاني : أسلوب سخرية المنافقين بالجيش الإسلامي :

وطُوال تحرُّك الجيش النبوي إلى تبوك ، استمرّ المنافقون في محاولاتهم الخبيثة لزعزعة ثقة المسلمين في صدق نبيهم ﷺ ، فلا تأتي مناسبةٌ يرون أنها ملائمة لاستخدامها لتحقيق أهدافهم التشكيكية ، إلا واغتنموها ، غير مبالين بمحاربة الله ورسوله ﷺ ، مستغلّين سعة حِلم الرسولﷺ وصبرِه عليهم . هذه العناصر المشبوهة المدسوسة بين مختلف فصائل الجيش ، كانت والجيش في طريقه إلى تبوك ، تقوم بالسخرية من قادة المسلمين ، وفضلاء المهاجرين والأنصار .

قال ابن إسحاق :"كان رهطٌ من المنافقين يسيرون مع النبي ﷺ في تبوك ، ومنهم: وديعةُ بن ثابت . ومنهم رجلٌ من أشجع[1] حليف لبني سلمة ، يقال له مخشن بن حمير ، يشيرون إلى النبي ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضِهم لبعض؟ والله لكأني بكم غدًا مقرّنين في الحبال. إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين . فقال وديعة بن ثابت مستهزئًا بِخِبْرة أصحاب رسول الله ﷺ : "ما رأيتُ مِثْلَ قرّائنا هؤلاءِ أرغبُ بطونًا ، ولا أكذبُ ألسُنًا ، ولا أجبن عند اللقاء ! . فقال

(١) قبيلة من غطفان من قيس عيلان العدنانية ، كانت منازلهم في ضواحي المدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج. ينظر : معجم قبائل العرب (٢٩/١)

رجل في المجلس[١] : كذبتَ ، ولكنك منافق . لأخبرنّ رسول الله ﷺ . فوجد القرآنَ قد سبقه . فجاء وديعة بن ثابت إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحلَ وركِب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الراكب ، نقطع به الطريق . قال ابن عمر ﷺ : كأنّي أنظر إليه متعلقًا بِحِقَبِ[٢] ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة لتنكبُّ على رجليه ، وهو يقول : "إنما كنا نخوض ونلعب" . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[٣] .

ففي هذه الحادثة دليلٌ على أن المنافقين ليسوا ممّن يُنكِر الوحي الإلهي ، بل هم ممّن يعترف بنزوله على رسول الله ﷺ ؛ حيث حذّر بعضُهم البعضَ من نزولِ ما يكشفُ أمرَهم ، ولكنهم يكفُرون به ؛ إمّا حسدًا ، أو اتّباعًا للشهوات ، أو استجابةً للفتن.

إن معركة المنافقين ليست مع المؤمنين وحدهم حتى يستطيعوا كتمان ما يجري في مجالسهم الخاصة ، وإخفاء مخططاتهم السّرّية ، وهم يحسبون أنهم بمنجاة من سمع المؤمنين وبصرهم . فإنّ معركتهم (حقيقةً) هي مع الله ﷻ ، وهو مطّلع على مكنونات ضمائرهم . فليقوموا بجميع ما يريدون القيام به من المخططات الهدامة والأعمال السرية ، ولينطقوا بما شاؤوا من كلمات

---

(١) هو عوف بن مالك الأشجعي ، كما عينته رواية أخرى أخرجها الطبري في جامع البيان (١٠/١٧٢)

(٢) حبل يُشدّ به رحْلُ البعير إلى بطنه ، كي لا يتقدم إلى كاهله . ينظر : النهاية (١/٤١١) ؛ لسان العرب (١/٣٢٤)

(٣) سورة التوبة ، الآية ٦٥ – ٦٦

السخرية والاستهزاء ؛ فإن الله ﷻ مُطّلِعٌ على ذلك كلِّه ، وسيُطْلِعُ رسولَه ﷺ على جميع ما يكتمه المنافقون ، ويخشون من ظهوره : ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أيْ : مُبْرِزٌ للمؤمنين من أسراركم ما تخافون من ظُهوره لهم .

فإذا انكشف أمرهم ووقعوا في المأزق جاءوا يعتذرون بأعذارٍ سخيفة، تَنِمُّ عن كَذِبِهم وخِداعهم ؛ حيث يزعمون أنهم ما قالوا ذلك الكلام إلا لمجرد التسلية ، وقطع عناء الطريق . ولأ كلامهم ليس له أي تأويل مقبول يرجعون إليه ، فإنهم لا يجدون إلا هذا العذر الكاذب ؛ ليتخلصوا من الموقف الحرج الذي وقعوا فيه ، وكأنهم لم يجدوا ما يتسلَّوْن به إلا السخرية بالله ، وآياته ، ورسوله . هذا ؛ على فرْض أنهم صادقون في أعذارهم .

إنهم (في واقع حالهم) كانوا جادّين في كلامهم ، مستهزئين بالله وآياته ورسوله؛ لذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يبيّن حقيقة نواياهم السيئة بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ . واستهزاؤهم برسول الله ﷺ واضح من الآيات السابقة ، أمّا استهزاؤهم بالله وآياته ، فلأن استهزاءَهم برسول الله ﷺ يعد استهزاء بالله وآياته ، فهم لم يستهزئوا به إلا من أجل الدين الذي يدعوهم إليه . فبهذا يكونون قد استهزؤوا بالله تعالى الذي أرسله ، وبالقرآن الذي اشتمل على بيان هذا .

وكذلك الحكم في من استهزأ بالمؤمنين من أجل إيمانهم بالإسلام ، والتزامهم بأحكامه ؛ فإنه يكون مستهزئًا بالإسلام ، ومن استهزأ به فقد استهزأ بالله تعالى الذي شرعه للناس . وقد وقعوا في الكفر بسبب هذه المقالة ؛ فلا جدوى من الاعتذار .

وهذا حكم ثابت لكل من يستهزئ بالله ورسوله ، وآياته ، وبالمؤمنين . فهو كافرٌ ، جاء بناقض من نواقض الإسلام . وهذا ما لا خلاف فيه . وسيأتي تفصيل هذا لاحقًا .

المطلب الثالث : أسلوب سخرية المنافقين من المتصدقين على الجيش الإسلامي عام تبوك :

حث النبي ﷺ الصحابة ﷺ على الإنفاق في غزوة تبوك ؛ لِبُعْدِها ، وكَثْرَةِ المشركين . ووعَدَ المنفقين بالأجر العظيم من الله . فأنفقَ كلٌ وِفق قدرته ، وكان عثمانُ بن عفان ﷺ صاحبَ القَدَحِ المُعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة . فهذا عبد الرحمن بن خبّاب[١] يحدثنا عن نفقة عثمان . قال :"شهدت النبي ﷺ وهو يحثُّ على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، عليَّ مائةُ بعيرٍ بأحلاسِها[٢] ، وأقتابها[٣] في سبيل الله . ثم حض على الجيش ، فقام عثمان ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، عليَّ مائتا بعير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله . ثم حضّ على الجيش ، فقام عثمان ﷺ فقال : يا رسول الله ، عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله . فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر ، وهو يقول : (**ما على عثمان ما عمل بعد هذا ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا**) "[٤].

---

(١) السلمي الأنصاري . له صحبة ، ونزل البصرة . ينظر : الطبقات الكبرى (٧٨/٧) ؛ معجم الصحابة (١٤٤/٢) ؛ الإصابة (٣٩٦/٢)

(٢) كساء يلي ظهر البعير ، يكون تحت القتَبِ . ينظر : النهاية (٤٢٣/١) ؛ لسان العرب (٥٤/٦)

(٣) رَحْلٌ صغير على قدر السّنام . ينظر : النهاية (١١/٤) ؛ لسان العرب (١١/٤)

(٤) ينظر : سنن الترمذي (٦٢٥/٥) ؛ مسند أحمد (٧٥/٤)

وعن عبد الرحمن بن سمُرة[١] ﷺ قال : جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول : (**ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم**) يردّدُها مِررًا"[٢].

وأما عمر بن الخطاب ﷺ فقد تصدّق بنصف ماله ، وظنّ أنه سبق أبا بكر الصديق ﷺ بذلك ، فقال ﷺ وأمَرَنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدّق ، فوافقَ ذلك مالًا عندي ، فقلت : اليومَ أَسبِقُ أبا بكر ، إنْ سبقْتُه يومًا . فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : (**ما أبقيتَ لأهلك ؟**) قلتُ : مثله . قال : وأتى أبو بكر ﷺ بكلِّ ما عنده . فقال رسول الله ﷺ : (**ما أبقيتَ لأهلك ؟**) قال : أبقيت لهم اللهَ ورسولَه . قلت : لا أسبقُك إلى شيءٍ أبدًا [٣] .

وكان لبعض الصحابة ﷺ نفقاتٌ عظيمةٌ ، كعبد الرحمن بن عوف[٤] ،

---

(١) العبشمي ، القرشي ، أبو سعيد . أسلم عام الفتح ، وشهد غزوة تبوك مع النبي ﷺ ، ثم شهد فتوح العراق. وهو الذي فتح سجستان وغيرها في خلافة أمير المؤمنين عثمان ﷺ ، ثم رجع إلى البصرة ، فمات بها سنة (٥٠هـ) ؛ ينظر : طبقات ابن خليفة ، ص (١١) ؛ الطبقات الكبرى (١٥/٧) ؛ معجم الصحابة (١٦٧/٢) الإصابة (٤٠٠/٢)

(٢) ينظر : سنن الترمذي (٦٢٦/٥) حديث رقم (٣٧٠١) المستدرك على الصحيحين ، (١١٠/٣) حديث رقم (٤٥٥٣) ؛ قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٣) ينظر : سنن الدارمي (٤٨٠/١) حديث رقم (١٦٦٠) ؛ سنن أبي داود (١٢٩/٢) حديث رقم (١٦٧٨) ؛ سنن الترمذي (٦١٤/٥) حديث رقم (٣٦٧٥) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الزهري . كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد . مناقبه جمّةٌ . مات سنة (٣٢هـ) ، ينظر : طبقات ابن خياط ص(١٥) الطبقات الكبرى (١٢٤/٣) ؛ الإصابة (٤١٦/٢)

والعبّاس ابن عبد المطلب[١] ، وطلحةِ بن عبيد الله[٢] ، ومحمدِ بن مسلمة ، وعاصمِ بن عَدي[٣] ، ﷺ [٤].

إن مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلٌ على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين إلى فعل الخير ، ومقاومة أهواء النفس وغرائزها ؛ مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها . وخيرُ ما يفعله المعلمون وزعماء النهضات ، هو : غرْس الإيمان في نفوس الناس غرسًا كريمًا[٥] .

وقدّم فقراء المسلمين جُهدَهم من النفقة على استحياء ؛ لذلك تعرّضوا

---

(١) الهاشمي ، القرشي . عم رسول الله ﷺ . كانت إليه السقاية والعمارة في الجاهلية ، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم ، وشهد بدرًا مع المشركين مُكْرَهًا ، فأُسِر ، ثم عاد إلى مكة ، فكتم إسلامَه ، وهاجر قبل الفتح بقليل، ثم شهد فتح مكة ، وثبت يوم حنين . مات بالمدينة سنة (٣٢هـ) ينظر : طبقات ابن خياط ، ص(١٥) ؛ الطبقات الكبرى(٧/٤) ؛ معجم الصحابة (٢٧٥/٢) ؛ الإصابة (٢٧١/٢)

(٢) التيمي ، القرشي ، أحد العشرة المبشرين بالجنة . كان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ﷺ للشورى . مناقِبُه جمّة . قُتِل يوم الجمل سنة (٣٦هـ) ينظر : الطبقات الكبرى (٢١٤/٣) ؛ الاستيعاب (٧٦٤/٢) ؛ الإصابة (٢٣٠/٢)

(٣) البلوي ، العجلاني . حليف الأنصار ، كان سيد بني العجلان ، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد ، ومات سنة (٤٥هـ) وهو ابن مائة وخمس عشرة سنة . ينظر : طبقات ابن خياط ، ص (٨٧) ؛ الطبقات الكبرى (٤٦٦/٣) ؛ الإصابة (٢٤٦/٢)

(٤) ينظر : المغازي (٣٩١/٣)

(٥) السيرة النبوية دروس وعبر ، السباعي ، مصطفى ، (ط١، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٦م) (ص١٦٦)

لسخرية المنافقين وغمزهم ، ولَمْزِهم . فقد جاء أبو خيثمة الأنصاري[١]، بصاعِ تمرٍ ، فلمزه المنافقون . وجاء أبو عقيل[٢] بنصفِ صاعٍ ، فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعلَهُ هذا الآخرُ إلا رياءً . فنزلت الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣] وقالوا : ما أَعطى ابنُ عوف هذا إلا رياءً [٤] . فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ، ويسخرون من صدقة الفقراء .

هذا هو موقف المنافقين من الباذلين أموالهم في سبيل الله ، وطلب مرضاته ، بحسب طاقتهم . فمن أعطى الكثير ، قالوا عنه : مرائي ! ومن أعطى الشيء اليسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا ! وهذا ممّا يؤثر في النفوس ، فيرجعُ ضَرَرُه على أمْر الجهاد في سبيل الله .

تلك هي النظرة النفاقية المنحرفة للإنفاق في سبيل الله ، وبواعثه في النفوس . وهذا هو قول المنافقين عن المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، واطمئنان ضميرٍ ، كُلٌّ على قدْر طاقته ، وكلٌّ بذلَ غاية جهده . بينما هم قاعدون متخلّفون ، شحيحوا الأنفس ، منقبضوا الأيدي ، لا يُدركون من بواعث النفوس إلا مِثلَ هذا الباعث الحقير

---

(١) مالك بن قيس ، ينظر : الإصابة (٥٤/٤)

(٢) الأنصاري . مختلف في اسمه ، فقيل : عبد الرحمن بن بيحان . وقيل : عبد الله بن عبد الرحمن . وقيل: الحثحاث . واشتهر بصاحب الصاع . ينظر: الإصابة (١٣٦/٤)

(٣) سورة التوبة ، الآية ٧٩

(٤) ينظر: تفسير جامع البيان للطبري (١٩٦/١٠)

الصغير[١].

وهم بذلك يكشفون عن علاقةٍ من علاقاتهم . فعلى المؤمنين والدعاة خاصة أن يَرْصُدوا من يتّصف بها ؛ حتّى ينال جزاءَه ، فيُبْعَد ولا يُقرَّب [٢].

لقد رأينا موقف المؤمنين الصادقين يوم العسرة ، يوم تبوك ، إذْ أخذوا يتسابقون في الإنفاق ، أغنياءَ وفقراءَ . ورأينا موقفًا آخرَ مُخزِيًا للمنافقين ، فلم يكتفوا بعدم الإنفاق ، بل تجاوزوا على المنفقين باللمز ، أغنياءَ وفقراءَ . وهذا هو ديدنُهم ؛ لأنهم أصحابُ مرضٍ في القلوب ، يحولُ بينهم وبين الاهتداء بهدي القرآن ؛ بدليل : أن المؤمنين استفادوا من القرآن لسلامة قلوبهم من المرض ، واستفادوا من هدي النبي ﷺ، فأخذوا يتسابقون في العطاء والنفقة . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٣] أي : على إيمانهم السابق ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[٤] أيْ : كُفْرًا ونفاقًا ، إلى كفرهم ونفاقهم السابق .

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسَبةً للتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وَضُحَتْ فيها الحواجز بين الطرفين ، ولم يَعُدْ هناك أيّ مجال للتستر على المنافقين ، أو مجاملتهم على حساب الإسلام ، بعد أن عملوا كلَّ ما في وسعهم لمحاربة الرسول ﷺ والدعوة ، وتثبيط المسلمين

(١) ينظر : في ظلال القرآن ، (٦٨١/٣)

(٢) ينظر : المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، زيدان ، عبد الكريم ، (ط١، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٧م) ، (٥٠٠/٢) .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٢٤

(٤) سورة التوبة ، ألآية ١٢٥

عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله ﷻ ورسوله ﷺ ، والذي نزل به القرآن الكريم . بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين وإيقافهم عند حدهم واجبًا شرعيًا[١].

المطلب الرابع : حكم المستهزئين بالله وآياته ورسوله والمؤمنين :

إنّ علماء الأمة المحمدية -رحمهم الله- قد انعقد إجماعهم في الماضي والحاضر على أن الاستهزاء بالله وبدينه وبآياته ورسوله ، كفر بُواحٌ ، يُخرِجُ صاحبَه من المِلّة بالكلّيّة .

ومن أجل خطورة الاستهزاء ، فقد أبرزه العلماء رحمهم الله في مباحث الكلام عن الردة من كتب الفقه الإسلامي . ولا شك في أن الرّدَّة أعظم كفرًا من الكفر الأصلي ، كما هو معلوم عند أهل العلم .

وفيما يأتي أقوال بعض العلماء في هذا الخصوص :

- يقول **ابن قدامة -رحمه الله-** :"من سب الله تعالى كَفَرَ ؛ سواءً أكان مازحًا ، أو جادًا . وكذلك من استهزأ بالله تعالى ، أو آياته ، أو رسله ، أو كتبه"[٢] .
- يقول **النووي -رحمه الله-** :"والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن عمدٍ ، واستهزاءٍ بالدين صريح"[٣] .

---

(١) ينظر : التفسير ، المراغي ، أحمد مصطفى ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) (١٢٧/٤)

(٢) ينظر : المغني ، ابن قدامة ، محمد بن عبد الله بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠هـ) ، (بيروت، دار الكتب العلمية ، د.ت) (٢٩٨/١٢-٢٩٩) .

(٣) ينظر : روضة الطالبين ، محيي الدين أبو زكريا يحيى (ت ٦٧٦هـ) ، (بيروت ، المكتب الإسلامي ، د.ت) (٦٤/١٠)

- نقل **القرطبي -رحمه الله-** عن **القاضي أبي بكر بن العربي** ، قوله عن موقف المستهزئين في غزوة تبوك :"لا يخلو أنْ يكون ما قالوه من ذلك جِدًّا أو هزْلًا، وهو كيفما كان ، كُفْرٌ . فإنّ الهزْل بالكفر كفر ، لا خلاف فيه بين الأمة؛ فإن التحقيق أخو العلم ، والحقّ . والهزلُ أخو الباطل ، والجهل"(١) .
- **قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-** :"إن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كُفْرٌ يَكْفُر به صاحبُه بعد الإيمان"(٢) .
- **أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-** ، فقد عقد بابًا في كتابه القيم"كتاب التوحيد" عَنْونَهُ بقوله :"بابُ مَنْ هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ، فقد كفر"(٣) . فقد جعل الشيخ الاستهزاءَ ناقضاً صريحًا من نواقض الإسلام . فإنه حين عدّد نواقض الإسلام العشرة ، ذكر أن **الناقض السادس** هو : الاستهزاء بشيء من دين الرسول ﷺ ، أو ثوابه ، أو عقابه(٤) .
- هذا **وممن** قال بكفر المستهزئ بالدين : الشيخ **محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمهم الله جميعًا**(٥) . فقد اتفقت فتاواهم

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٣٩٧/٨)

(٢) ينظر : مجموع الفتاوى (٢٧٣/٧)

(٣) ينظر : كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (ط٥، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢٠هـ) ، ص(٥٢٠)

(٤) ينظر : الجامع الفريد ، (الرياض ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٧هـ) ، ص (٢٨٣)

(٥) ينظر : مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ، ابن باز ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز=

على أنه كافر خارج عن الملة .

وهذه فتوى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى ، وفيها شيء من التفصيل :

- **قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين -رحمه الله تعالى-** : "هذا العمل ، وهو الاستهزاء بالله أو رسوله ﷺ ، أو كتابه ، أو دينه ، ولو كان على سبيل المزاح ، ولو كان على سبيل إضحاك القوم كُفْرٌ ، ونِفَاقٌ . وهو نفس الذي وقع في عهد النبي ﷺ في الذين قالوا : ما رأينا مثلَ قُرّائنا هؤلاء ، أرغبَ بطونًا ،ولا أكذبَ ألْسُنًا ، ولا أجبَنَ عند اللقاء . يعني : الرسول ﷺ ، وأصحابه القراء . فنزلت : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] لأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ يقولون : إنما كنا نتحدث حديث الركب ، نقطع به عناء الطريق. فكان رسول الله ﷺ يقول لهم ما أمره الله به : ﴿ **قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ** ﴾[2]

فجانب الربوبية والرسالة والوحي والدين جانب محترم ، لا يجوز

=(ت١٤١٩هـ) ، جمع وترتيب وإشراف محمد بن سعد الشويعر ، (الرياض ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٦هـ) ، (١٦٥/٣) .

(١) سورة التوبة ، الآية ٦٥

(٢) ينظر : مجموع الفتاوى ، ابن عثيمين ، محمد بن صالح (ت ١٤٢٠هـ) ، جمع وترتيب ناصر بن إبراهيم السليمان ، (الرياض ، دار الثريا للنشر ، ٢٠٠١م) (١٥٦/٢) .

لأحدٍ أن يعبث به ؛ لا باستهزاء ، ولا بإضحاك ، ولا بسخرية . فإن فعل ، فإنه كافر . لأنه يدل على استهانته بالله ﷻ ورسله ، وكتبه ، وشرعه .

وعلى من فعل هذا أن يتوبَ إلى الله ويستغفرَه ، ويُصلِحَ عمله ، ويجعلَ في قلبه خشية الله ﷻ وتعظيمَه ، وخوفَه ، ومحبَّتَه . فليحذر الذين يسخرون من أهل الحق لكونهم من أهل الدين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) فهؤلاء المستهزئون فيهم نفاقٌ ؛ لأن الله تعالى قال عن المنافقين : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

۞ عقوبة المستهزئ بالله وآياته ورسوله والمؤمنين في الشريعة الإسلامية :

أ - في الدنيا :

إنّ الاستهزاء بالله ورسوله رِدَّةٌ عن الإسلام ، وكُفْرٌ بالله ﷻ وبدينه . فالاستهزاء بدين الله ، أو سبّ دين الله ، أو سبّ الله ورسوله ، أو الاستهزاء بهما كُفْرٌ مُخرِج عن الملة . ومن فعل ذلك مِنْ سبّ الله ، أو سبِّ رسوله ، يُقتَلُ كافرًا ، ولا يُصلّى عليه ، ولا يُدعى له بالرحمة ويُدفَن في محلٍّ بعيدٍ عن مقابر المسلمين .

(١) سورة المطففين ، الآيات ٢٩ – ٣٦

ومن الكفار من يسبُّ الله ، ومع ذلك تُقبَل توبتُه ؛ إلا أن سابَّ الرسول ﷺ لا تُقبَلُ توبتُه ويجبُ قَتْلُه . بخلاف من سب الله ؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل ؛ لأن الله تعالى أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد ، بأنه يغفر الذنوب جميعًا . أما سابُّ الرسول ﷺ فإنه يتعلق به أمران : الأول : أمْرٌ شرعي . لكونه رسولُ الله ﷺ ، وهذا يُقبل إذا تاب . الثاني : أمْرٌ شخصي ، وهذا لا تقبل التوبة فيه . لكونه حقّ آدمي ، لم يُعْلَم عفوُه عنه . وعلى هذا يُقتل ، ولكن إذا قُتِلَ غسّلناه ، وكفنّاه وصلّينا عليه ، ودفنّاه مع المسلمين .

وهذا اختيار **شيخ الإسلام ابن تيمية** ، فقد ألف كتابًا قيمًا في ذلك أسماه"الصارم المسلول في تحتّم قتل سابّ الرسول" ذلك لأنه استهانةٌ بحقّ الرسول ﷺ .

فإن قيل : أليس قد ثبت أنّ مِن الناس مَن سب الرسول ﷺ في حياته ، وقَبِلَ النبي ﷺ توبتَه ؟

قال ابن عثيمين : هذا صحيح ، لكن كان هذا في حياته ﷺ ، والحق الذي له قد أسْقَطَه . وأما بعد موته فإنه لا يملك أحدٌ إسقاط حقّه ﷺ . فيجب علينا تنفيذ ما يقتضيه سبُّه ﷺ : مِنْ قَتْلِ سابّه ، وقبولِ توبة السابِّ فيما بينه وبين الله تعالى .

فإن قيل : إذا كان يحتمل أن يعفو عنه لو كان في حياته ، أفلا يوجب ذلك أن نتوقف في حكمه ؟

قال ابن عثيمين أيضًا : بأن ذلك لا يوجب التوقف ؛ لأن المفسدة حصلت بالسبّ ، وارتفاع أَثَرِ ذلك غيرُ معلوم ، والأصلُ بقاؤه .

فإن قيل : أليس الغالب أن رسول الله ﷺ يعفو عمن سبه ؟

يقول **الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى** : بلى ، وربّما كان العفو في

حياة الرسول ﷺ متضمنًا مصلحة ، وهي التأليف ، كما كان ﷺ يَعْلَم أعيان المنافقين ، ولم يقتلْهم "لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه" . لكن الآن لو عُلِمَ أحدٌ بعينه من المنافقين لقتلناهُ .

قال ابن القيم رحمه الله :"إن عدم قتل المنافق المعلوم ، إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط"[١] .

وهناك أدلة من السنة استدل بها القائلون بوجوب قتل ساب النبي ﷺ ، استدل بها ابن تيمية في كتابه ، منها حديث الأعمى الذي قتل أم ولده ، لأنها كانت تقع في النبي ﷺ ،

فقد رَوى ابن عباس رضي الله عنهما : أنّ أعمى كانت له أمُّ ولدٍ تشتم النبي ﷺ ، وتقع فيه ، فينهاها ولا تنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر . فلمّا كانت ذاتَ ليلةٍ ، جعلتْ تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المِغْوَلَ[٢] فوضعه في بطنها ، واتّكأ عليها فقتلَها . فلمّا أصبحَ ذُكر ذلك للنبي ﷺ ، فجمع الناسَ ، فقال :(**أَنْشُد الله رجلًا فعلَ ما فعلَ ، لِي عليه حَقٌّ ، إلا قام**) قال : فقام الأعمى يتخطى الناس ، وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك ، وتقع فيك ، فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة ، جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المِغْوَلَ فوضعته في بطنها ، واتّكأتُ عليه حتى قتلتُها . فقال النبي ﷺ : (**ألا اشهدوا**

---

(١) ينظر : زاد المعاد (١١/٣)

(٢) حديدة تجعل في السوط فيكون لها غلافًا ، وقيل : هو سيف دقيق له قفًا يكون عنده كالسوط ، ابن الأثير : النهاية (٣٩٧/٣) ينظر : لسان العرب (٥١٠/١١)

أنّ دمَها هَدَرٌ)[١]

وذكر **شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله** جُملةً من الأحاديث الصحيحة بيَّن فيها أنّ مَن سبّ النبي ﷺ يستحقُّ القتْلَ . قال رحمه الله : "كان أصحابُ النبي ﷺ يقتلون من سبّ ، ولو كان قريبًا لهم ، فيقرّهم على ذلك . وربّما سمّى من يفعل ذلك : ناصرَ اللهِ ورسولِه"[٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنّ رجلًا من المشركين شتم النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : (**مَنْ يكفيني عدوّي؟**) فقام الزبير بن العوام[٣] ﷺ ، فقال : أنا . فبارزه ، فأعطاه رسول الله ﷺ سَلَبَهُ . ولا أحسبه إلا في خيبر[٤] .

ورَوَى : أن رجلًا كان يسب النبي ﷺ فقال : (**من يكفيني عدوي؟**) قال خالد[٥] ﷺ : أنا . فبعثه النبي ﷺ إليه ، فقتله .

---

(١) ينظر : سنن أبي داود (١٢٩/٤) حديث رقم (٤٣٦١) ؛ سنن النسائي ، (٣٠٤/٢) ، حديث رقم (٣٥٣٣) المعجم الكبير (١١/ ٣٥١) حديث رقم (١١٩٨٤)؛ مستدرك الحاكم (٣٩٤/٤) حديث رقم (٨٠٤٤)

(٢) ينظر : الصارم المسلول (ص١٤٨)

(٣) الأسدي . حواريّ رسول الله ﷺ ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ، وأحد الستة أصحاب الشورى . شهد بدرًا والمشاهد مع رسول الله ﷺ ، مناقبه جَمَّةٌ . قُتل غدرًا سنة (٣٦هـ) ؛ ينظر : طبقات ابن خياط (ص١٣) ؛ الطبقات الكبرى (١٠٠/٣) ؛ معجم الصحابة (٢٢٣/١) ؛ الإصابة (٥٤٥/١)

(٤) ينظر : الصارم المسلول ، ص(١٤٨) وينظر : مصنف عبد الرزاق(٣٠٧/٥) حديث رقم (٩٧٠٤)

(٥) ابن الوليد بن المغيرة المخزومي ، القرشي ، سيف الله ، أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وشهد معهم الحروب إلى عمرة الحديبية ، ثم أسلم بعدها . شارك في حروب الرِّدَّة ، وأبلى فيها بلاءًا حسنًا ، ثم شهد فتوح العراق والشام . مناقبه=

هكذا كانت غَيْرة أصحاب النبي ﷺ على مكانة نبيهم ﷺ ، وهكذا كانت عقوبة من يتجرّأ على مقام النبوة والوحي ، ومقام الرسالة . لأنّ المدح والثناء على النبي ﷺ إقامةٌ لدين الله ، وضياعُ هذا تضييع لدين الله .

وقد مرَّ بنا حديث عمير بن عدي لما قال حين بلغه أذى ابنة مروان للنبي ﷺ : "اللهم عليَّ نذرٌ : لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنّها . فقتلها بدون إذنٍ من النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : (**إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجلٍ نصر اللهَ ورسولَه بالغيب ، فانظروا إلى عُمير بن سعد**)

قال الشيخ **ابن باز رحمه الله** في هذا الباب :"للرسول ﷺ منزلة عظيمة في نفوس أهل الإيمان ، فقد بلَّغ الرسالةَ ، ونصحَ الأُمّة ، وأدّى الأمانةَ ، وجاهدَ في الله حقّ جهادِه. ونحن نحب الرسول ﷺ كما أمر ، محبّةً لا تخرجه إلى الإطراء ، أو إقامة البدع التي نهى عنها الرسول ﷺ وحذّر منها ؛ بل له المكانة الساميةُ ، والمنزلة الرفيعة ؛ نطيعُه فيما أمر ، ونتجنّب ما نهى عنه وزجر . ونحذِّر من سبّ الرسول ﷺ ، فإن ذلك من نواقض الإيمان ، التي توجب الكفر ظاهرًا وباطنًا ؛ سواءً استحل ذلك فاعلُه ، أو لم يستحلّه"[1].

يقول ابن تيمية -رحمه الله- :" إنّ سبّ الله أو سبّ الرسول ﷺ كفرٌ ظاهرًا وباطنًا ؛ سواءً أكان السابّ يعتقد أن ذلك محرّم ، أم كان مستحلًا له ،

=جمّة . مات بحمص سنة (٢١هـ) على الصحيح . ينظر : طبقات ابن خياط (ص٢٩٩) ؛ الطبقات الكبرى (٢٥٢/٤) ؛ الاستيعاب (٤٢٣/٢) ؛ الإصابة (٤١٣/١) وهذا الخبر في الصارم المسلول (ص١٤٨) .

(١) ينظر : مجموع الفتاوى لابن باز (٢١٥/٢) ؛ العقيدة الصحيحة (ص٥)

أم كان ذاهلًا عن اعتقاده"[١] .

والأمر يصل في ذلك حتى مجرّد لَمْزِ النبي ﷺ في حكمٍ أو غيرِه ، كما قال رحمه الله : "فثبت أنّ كلَّ مَنْ لَمَزَ النبيَّ ﷺ في حكمه ، أو قسمته ؛ فإنه يجب قتله ؛ كما أمر النبي ﷺ في حياته ، أو بعد موته"[٢] .

وهنا قصة ذكرها العلامة المحدث أحمد محمد شاكر رحمه الله ، فقال ما فحواه : " تخرّج طه حسين في الجامعة المصرية القديمة ، وكان أعمى ، وتقرر إرساله في بعثة إلى أوربا ، فاستقبله السلطان حسين استقبالًا كريمًا ، وحباه هدية كريمة المغزى والمعنى ، وبعد هذا الموقف ، خطب محمد المهدي خطبة الجامعة ، وكان حينذاك خطيب السلطان ، ويحضر خطبته العلماء والوزراء والكبراء ، فمدح الخطيب السلطان مدحًا غالى فيه ، إلى أن قال عن السلطان (وقد جاءه الأعمى ، فما عبس وما تولى) ، معرضًا بالنبيﷺ، وكان من شهد هذه الخطبة والدي الشيخ القاضي محمد شاكر ، فقام بعد الصلاة ، وقال للناس : أيها الناس أعيدوا صلاتكم ، فإن إمامكم قد كفر !! ثم استدار وأقام الصلاة من جديد فصلى وصلى خلفه كل من في المسجد ، قال الشيخ أحمد شاكر : أقسم بالله لقد رأيت محمد المهدي بعيني رأسي مهينًا ذليلًا خادمًا على باب مسجد بالقاهرة ، يتلقى نعال المصلين ، يحفظها في ذل وصغار"[٣] . هذه حال من عرَض برسول الله ﷺ ، فكيف بمن صرح بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله ؟ ، إن في ذلك لآية ، وهذه حاله في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

---

(١) الصارم المسلول ، ص (١٥٠)

(٢) الصارم المسلول ، ص (١٥٠)

(٣) كلمة حق ، ص (٩٨) .

ب - في الآخرة :

إنّ عقوبة المستهزئين بالله وبرسوله وبالمؤمنين في الآخرة وخيمةٌ . والآيات العظيمة التي وردت في كتاب الله التي ذكر فيها عقوبة المستهزئين ، وعقاب الله الأليم المحيط بهم ؛ أمرٌ عظيمٌ ، تنْفطِر منه القلوب ، وتنخلع لهوله الأفئدة . خزيٌ في الدنيا ، وعذابٌ في الآخرة . هلاكٌ ودمارٌ في العاجلة ، وعذابٌ مقيمٌ في الآخرة .

وممّا ذكره الله تعالى من عقاب المستهزئين يوم القيامة : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[1] .﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[2]

إن الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين والمؤمنات من أشد أنواع الأذى ، ولهذا توعَّدَ اللهُ ﷻ من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[3]

إن المستهزئين بالمؤمنين ، وبدين الله وشرائعه لن يضرّوا إلا أنفسهم، وحين تُكشف السرائر ، وتُنشر الصحف ، يندمُ أولئك الهازلون ، ولات حين

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات (١٠٨ - ١١١

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان ٥٧ - ٥٨

مندم . قال ﷻ : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1] . ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[2]

إن أعداء رسول الله ﷺ استهزؤوا به ، وسخروا منه ، وكذبوه ، وآذَوْه ؛ فكانت العاقبةُ للمتقين ، والخزيُ ، والعارُ ، والنارُ ، والهلاك للمنافقين ، الهازلين ، المفسدين المكذّبين . قُتِلوا في الدنيا ، وعند ربك عذابٌ ، ونارٌ شررها كالقصر .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ ، ومَن معه من المؤمنين : "والقصَّة في إهلاك الله واحدًا واحدًا من هؤلاء المستهزئين معروفةٌ ، فقد ذكرَها أهلُ السِّيَر والتفاسير ، وهم -على ما قيل- نفرٌ من رؤوس قريش ؛ مثل : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل . وكِسْرى مزَّق كتابَ رسول الله ﷺ ، واستهزأ به ، فقتله الله بعد قليل ، ومزَّق مُلكَه كُلَّ مُمَزَّقٍ ، ولم يَبْقَ من الأكاسرة مَلِكٌ . والله أعلم . وتحقيقٌ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾[3]

فكلُّ مَن شَنأهُ ، وأبْغضَهُ ، وعادَاهُ ؛ فإن الله يقطع دابرَه ، ويمحقُ عَقِبَهُ،

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٤٨

(٢) سورة الجاثية ، الآيات ٣٣-٣٥

(٣) سورة الكوثر ، الآية ٣

وأَثَرَهُ . ومن الكلام السائر"لحوم العلماء مسمومة"[١] . فكيف بلحوم الأنبياء عليهم السلام ؟ ، وقد قال ﷺ : (**قال الله تبارك وتعالى : من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة**)[٢] فكيف بمن عادى الأنبياء ؟! مَن حارَب اللهَ تعالى حُرِبَ"[٣] .

المطلب الخامس:موقف المسلم الشرعي من الساخرين والمستهزئين :

حَرِيٌّ بكلّ مسلمٍ أن يكون لهُ منهجٌ شرعيٌّ ثابتٌ في التعامل مع هؤلاء الهازلين المنافقين ، الساخرين بالإسلام وأهله . وأعظمُ هذه المناهج ، هو منهج القرآن الذي سار عليه رسول الله ﷺ في معاملة هؤلاء المنافقين .

وهذه أهم الخطوات العملية الشرعية من المنافقين الساخرين بالإسلام والمسلمين :

١ - الإعراض عنهم وعدم مجالستهم :

هدّد الله تعالى من يجالس هؤلاء الهازلين الساخرين ، إذا لم يبتعد ويقم عنهم فسيكون منهم ، ويُعذَّب بعذابهم . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[٤] .

---

(١) ينظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، ابن عساكر، (ط٣، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٤هـ) ، (ص٢٩) .

(٢) ينظر : صحيح البخاري (٥/٢٣٨٤) حديث رقم (٦١٣٧)

(٣) ينظر : الصارم المسلول على شاتم الرسول ، ابن تيمية ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨م) ، ص(١٦٤.١٦٥)

(٤) سورة النساء ، الآية ١٤٠

يوضح ابن كثير -رحمه الله- هذا المعنى في تفسيره لهذه الآية فيقول : " أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها ، وأقررتموهم على ذلك ، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه ، فلهذا قال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ ، أي في المأثم ، كما جاء في الحديث : (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر**)[١] ، والذي أُحيل عليه هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام ، وهي مكية : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[٢] ، قال مقاتل بن حيان : نسخت هذه الآية الآية التي في سورة الأنعام ، يعني نسخ قولُه : ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ قولَه : ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٣] . وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ، أي كما أشركوهم في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدًا ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال ، والقيود والأغلال ، وشراب الحميم والغسلين ، لا الزلال "[٤]

ويقول ﷻ كذلك موضحًا المنهج السليم نحو الهازلين الساخرين بالإسلام والمسلمين : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟

---

(١) ينظر : سنن الدارمي (١٥٣/٢) الحديث (٢٠٩٢) ؛ سنن النسائي الكبرى (١٧١/٤) الحديث (٦٧٤١) ؛ مستدرك الحاكم (٣٢٠/٤) الحديث (٧٧٧٩) ، وقال عنه الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية ٦٨

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٦٩

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧٧٩/١) .

فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[1]

لقد كثر التساهل في هذا الأمر ، فرأينا من يتخذ الهازلين الساخرين أولياء ، وجُلساء ، وأصفياء ، وأخلّاء ، وكأنه نسي قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[2]

إنّ على أهل الحقّ واليقين أنْ يَرْبَأوا بأنفسهم عن مجالسة الهازلين المنافقين ، حتى يفوزوا برضا رب العالمين ، ويُحشَروا تحتَ لواء سيد المرسلين .

٢- عدم موالاة الهازلين الساخرين المستهزئين :

لا يصح الإيمان باللهِ إلا بالبراءة من هؤلاء الأعداء المنافقين . قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3]

إنّ من أكبر الرزايا التي بُليت بها هذه الأمة : اتخاذ اليهود والنصارى

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات ٦٨ – ٧٠

(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٧

(٣) سورة المائدة ، الآية ٥٧

أولياء ، وهم يعيبون ديننا ، وينتقصون نبينا ﷺ ، ويهزؤون بنا . ومَن لا خلاقَ له من المنافقين يتخذهم أولياء وأصدقاء . وهذا أمرٌ لا يستقيم في منهج الله الحقّ ، الذي قُدِّمت فيه البراءة من الكفر وأهله على الإيمان بالله وحده ، فقال ﷻ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]

وفي عصرنا هذا ما ترك المنافقون ، واليهود ، والنصارى الصليبيون وسيلةً من وسائل الاستهزاء بالله وبدينه وبعباده المؤمنين إلا سَلكوها . وهذا واضحٌ في أقوالهم ، وإعلامِهم ، وخِطَطِهم ؛ بل وحتّى في منتجاتهم . فحتّى الأحذية يكتبون عليها اسم الله تعالى - تقدّس عن ذلك- ، وعلى الملابس الداخلية للرجال والنساء . بل وصل بهم الحال إلى امتهان الآيات القرآنية . ومع هذا نجد المغفلين يوالونهم ، ولو بطريق غير مباشر ؛ بالشراء من هذه المصانع ، وتلك الشركات التي تطعن في دينهم ، وتهزأ من نبيهم ، وتستبيح حُرْمة دينهم . فإذا قام فينا غيور وذكَّر بهذا الواجب الإيماني هُزِئ به ، ولُمِز ، ووُصِف بالتطرُّف ، والرَّجْعيّة ، وعداوةُ الإنسانيّة ، والتعسُّفيّة ، وغير ذلك من قاموسِ الشتائم الذي يصبُّه من سمّاهم الله بالمجرمين على المؤمنين الموحدين . فإلى الله المشتكى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٣- الصدع بالحق إقتداءً برسولنا ﷺ :

فإنّه لمّا كثُر عليه الاستهزاء والسخرية ، قال الله تعالى له : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾[2]

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦

(٢) الحجر : الآيتان ٩٤ – ٩٥

أليست قريش هي القائلة لرسول الله ﷺ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] ؟!

أليست نظراتهم الملتهبة الناقمة الهازلة الساخرة تلاحق رسول الله ﷺ في كل مكان ؟! قال تعالى : ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]

كلُّ ذلك حصل ؛ فما زاد النبيَّ ﷺ إلا مُضِيًّا في طريق الحق . والذين يتصدّرون للدعوة ، ثم تَهُدُّهم كلمةٌ ساخرةٌ ، أو همزةٌ ساقطةٌ ؛ ليسوا أهلًا لتحمُّل أعباء هذه الدعوة . فإن الإيمان ليس كلمةً تقال باللسان وكفى ، إنّما هو حقيقة كبرى ، لها تكاليفها، وأمانتُها ، وأعباؤُها ، وجهادُها .

فمن ردّتُه السخريةُ ، وشتّتْ عزمَه وسائل السخرية ، فيجب عليه التنحّي عن الطريق ، ولْينزِل عن الأمرِ لمن هو له أهلٌ وكُفء . فإن منهج النبي ﷺ في جهاد هؤلاء المنافقين الساخرين كان مستمرًّا ، على الرغم من جميع العقبات التي وُضِعت في طريقه ﷺ . وإنّ هذا الأذى ، وهذه العقبات التي واجهت النبي ﷺ ما زادته إلا إصرارًا على تبليغ الحق ، وصدعًا بالدعوة إلى التوحيد ، وإعلان البراءة من الشرك وأهله ، مهما كانت التكاليف ، ما دام ذلك كان في مرضاة الله ﷻ .

فالمؤمن الصابرُ المحتسبُ ، الداعي إلى الله على منهج النبي ﷺ في جهاد هؤلاء المنافقين واليهود والصليبيين ؛ هو الأعلى قدْرًا وشَرَفًا ، ومنهجًا ومكانةً ، وعند الصّباح يحمَدُ القومُ السُّرى ، وعند الممات يحرزُ القوم التُّقى،

---

(١) سورة الحجر ، الآيتان ٦ – ٧

(٢) سورة القلم ، الآيتان ٥١ – ٥٢

ويوم التغابن يُخزي الله أهل السخرية والردى .

فالمؤمن لا يَهِنُ ، ولا يحزن ، وهو يعلم أن الله معه بتوفيقه وتسديده ، وتثبيته . كيف ؟! وقد قال ربُنا : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١]

فأنتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشيءٍ مِن خَلْقِه ، أو لبعضٍ مِن خلْقه. ومنهجكم أعلى ؛ فأنتم تسيرون على منهج مِن وضْع الله ، وهم يسيرون على منهجٍ مِن صُنع خلْق الله . ودورُكم أعلى ؛ فأنتم الأوصياءُ على هذه البشرية كلِّها ، الهُداةُ للبشرية كلِّها ، وهم شاردون عن المنهج ، ضالُّون عن الطريق . ومكانُكم في الأرض أعلى ؛ فلكُم وِراثة الأرض التي وعدكم اللهُ بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون .... فإن كنتم مؤمنون حقًا فأنتم الأعلون ، وإن كنتم مؤمنون حقًا فلا تهنوا ولا تحزنوا[٢] .

٤- أخذ العبرة ممّن هم خيرٌ منا :

إنّ خيرَ أنبياء الله ﷺ الذين سخرَ منهم أقوامهم ؛ لكنّ هذه السخريةَ لم تَثْنِهِمْ عن المبدأ الذي قاموا من أجله ، والدين الذي أرسِلوا به .

لقد كان قوم نوح ﷺ يسخرون منه وهو يصنع السفينة ، ويُؤذُونه بالهمز واللمز ، والضحك والاستهزاء ، فما زاده في ذلك إلا مُضيًّا في طريقه، ويقينًا بوعد ربّه له .

وقومُ لوط ﷺ يسخرون منه ومن طهارته ، هو ومن آمن معه ،

---

(١) سورة آل عمران ، ألآية ١٣٩

(٢) ينظر : في ظلال القرآن (١/٤٨٠)

ويتندّرون بذلك قائلين : ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[١] فما زاده ذلك إلا ثباتًا على الحق ، ويقينًا بأمر الله ﷻ : ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[٢] .

ورسولُ الله ﷺ لمّا سخِر مِنْهُ مَنْ سَخِرَ ، واشتدّ عليه أذى هؤلاء السفهاء ؛ خاطَبهُ ربُّه تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[٣] .

---

(١) سورة النمل ، الآية ٥٦

(٢) سورة هود ، ألآية ٨١

(٣) سورة الرعد ، الآية ٣٢

المبحث الثاني

أسلوب محاربة المنافقين للإسلام
عن طريق الدعوةإليه بتمزيق الصف المسلم

لم يكفّ المنافقون عن محاولاتهم لتمزيق الصف المسلم ، والتفريق بين المؤمنين ، مُظهِرين حسن نواياهم . فوصل بهم الأمر إلى أن يبْتَنُوا مؤسسات المجتمع المسلم ، ليمارسوا دورهم التخريبي من خلالها .

فقد بنى المنافقون وكْرًا على هيئة مسجد ؛ ليتخذوا منه ملتقى للتآمر ، والدس ومحاربةِ الله ورسوله ؛ يأمنون فيه من عيون المراقبة ، لأنه مسجدٌ وبيتٌ من بيوت الله في ظاهره . وهذا تصرُّفٌ أشد إغراقًا في المكْر والتستُّر . وقد تم إحراقُ هذا الوكر أيضًا بالنار ؛ بعد رجوع رسول الله ﷺ من تبوك ، كما أُحرق بيت سويلم اليهودي من قَبْل .

ونظرًا لِما دَرَج عليه المنافقون من مقدرةٍ على إخفاء نواياهم الشريرة ، وإظهارِهم خلاف ما يبطنون ، ولكي يكونَ لوكْرِهم هذا "**مسجد الضرار**"صفةٌ شرعية ؛ وليحصلوا على دعم معنوي طلبوا من رسول الله ﷺ بعد الانتهاء من بنائه أنْ يُصلِّيَ فيه، فوعدهم ﷺ أن يفعلَ ، ولكنْ بعد عودته من تبوك .

وكاد رسول الله ﷺ يصلي فيهِ ؛ وفاءً بالوعد الذي أعطاه لأولئك المنافقين الذين لا يعلمهم ، إلا أنّ القرآنَ الكريمَ نَزَلَ بِهدْمِ هذا المسجد بدلًا من الصلاة فيه ، فحرّقه رسول الله ﷺ بالنار ، وحرَّق بجانبه دارَين لكبيرَيْن من كبار المنافقين .

وهكذا ؛ وبينما كان هؤلاء المنافقون يفرُكون أيديهم فرحًا ؛ لأن النبي ﷺ سيصلي في وكر الجاسوسية "**مسجد الضرار**" إذا بألسنة اللهب تلتهم هذا

الوكر ، وبعضهم بداخله ، ففرُّوا بجلودهم ، وتركوه طُعمًا للنار .

ذكر الواقدي ، أن رسول الله ﷺ لما كان بوادي "ذي أَوَان"وهو من ضواحي المدينة وهو في طريقه إلى تبوك ، جاءه خمسةُ نفرٍ ؛ منهم: "معتب بن قشير ، و ثعلبة بن حاطب ، و خدّامُ بن خالد ، و أبو حبيبة بن أزعر ، و عبد الله بن نبتل ابن الحارث ، فقالوا : يا رسول الله إنا رُسُلُ مَنْ خَلْفَنا مِن أصحابِنا ، وإنّا بنينا مسجدًا لذي القِلّةِ ، والحاجةِ ، واللّيلةِ المطيرةِ ، واللّيلةِ الشاتيةِ . ونُحِبّ أنْ تأتيَنا فتصلّيَ بنا فيه . ورسول الله ﷺ يتجهَّزُ إلى تبوك . قال رسول الله ﷺ : (**إنّي على جناحِ سفرٍ ، وحالَ شُغلٍ ، ولو قَدِمْنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا بكم فيه**) فلما نزل رسول الله ﷺ بذي أوانٍ راجعًا من تبوك ، أتاه خبرَه وخبرَ أهلِه من السماء . وكانوا إنّما بَنَوْه قالوا بينهم : يأتينا أبو عامر ، فيتحدث عندنا فيه ؛ فإنه يقول : لا أستطيع أن آتيَ مسجد بني عمرو ابن عوف "مسجد قباء" إنّما أصحاب رسول الله ﷺ يلحقوننا بأبصارهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[1]

وعندما نزل القرآن يوضح لرسول الله ﷺ أن ذلك المسجد المشبوه ، إنما هو مَرْصَدٌ يترصَّدُ فيه المنافقون على المسلمين ، ويتّخذونه مقرًّا لمحاربة الله ورسوله ، استدعى رسولُ الله ﷺ رجلَين من أصحابه ، وهما عاصم بن عدي العجلاني ، ومالك بن دخشم السالمي[2] ، وأصدر إليهما أمره بأن

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٧

(٢) الأوسي الأنصاري ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد . ينظر : الطبقات الكبرى (٣/ ٥٤٩) ؛ الاستيعاب (١٣٥٠/٣) ؛ الإصابة (٣٤٣/٣)

يتوليا تدمير مسجد المنافقين بالنار ؛ إذْ قال لهما رسول الله ﷺ : (**انطلِقا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُه ، فاهدِماهُ ، ثم حَرِّقاهُ**) فخرجا سريعين على أقدامهما حتى أتيا مسجد بني سالم ، فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عدي : أَنْظِرْني حتى أُخرِج أليك نارًا من أهلي . فدخل إلى أهله فأخَذَ سَعْفًا من النّخلِ فأشعلَ فيه النار ، ثم خرجا سريعين يعدُوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء ، والمنافقون فيه ، وإمامُهم مَجْمَعُ بن جارية[١] . فقال عاصم : ما أنسى تَشَرُّفَهم إلينا ، كأن آذانَهم آذانَ السِّرْحانِ . فأحرقاهُ حتى احترق . وكان الذي ثبتَ فيه زيد بن جارية بن عامر[٢] حتى احترق أَلْبَتَّةَ ، فهدماهُ ، حتى رصفاهُ بالأرض ، وتفرَّقوا [٣] .

المطلب الأول : أقوال العلماء في تفسير آية مسجد الضرار :

قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[٤] .

---

(١) الأوسي الأنصاري . كان حدثًا حين كان يؤم المنافقين في مسجد الضرار ، ولم يكن يعلم من حالهم شيء . بعثه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ إلى الكوفة يعلمهم القرآن . ينظر : الطبقات الكبرى (٥٢/٦) الاستيعاب (١٣٥٠/٣) ؛ الإصابة (٣٦٦/٣)

(٢) الأوسي ، الأنصاري . أخو مَجْمَع ، استُصْغِر يوم أُحُدٍ . ينظر : الاستيعاب (٥٤١/٢) ؛ الإصابة (٥٦٢/١)

(٣) ينظر : السيرة النبوية (٢١١/٥) ؛ جامع البيان للطبري(٢٣/١١)

(٤) سورة التوبة ، الآيتان ١٠٧ – ١٠٨

أما سبب نزولها ، فقد أطبقتْ كُتب التفسير على أن هذه الآيات نزلتْ في رجلٍ جنَّد نفسَه لحرب الله ورسوله ﷺ ، ولن يَدَعَ حربًا ضد الرسول ﷺ إلا وشارك فيها ، وهو أبو عامر الراهب. وقد سماه النبي ﷺ بالفاسق . وكان مما فعله هذا الرجل أنّه التجأ إلى ملك الروم يستنجده العون لقتال النبي ﷺ ، فأرسل إلى أصحابِه من المنافقين في المدينة ، وكان عددهم اثني عشر رجلًا ، أن يبنوا له مسجدًا ضرارًا ، وإرصادًا ؛ أي : تَرَقُّبًا وانتظارًا لقدومه مع جيش الروم ، يستخدمه كقاعدة لحرب الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ، عِلاوةً على المهام الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم .

قال ابن جرير الطبري :"فتأويل الكلام : والذين ابتنوا مسجدًا ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ ويفرّقوا به المؤمنين ؛ ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضُهم في مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ، ويفترقوا ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ . يقول : وإعدادًا له لأبي عامر الكافرِ الذي خالف الله ورسوله ﷺ وكفَر بهما ، وقاتَلَ رسولَ الله ﷺ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يعني : من قبل بنائهم ذلك المسجد . وذلك أن أبا عامر هو الذي حزَّب الأحزابَ لقتال رسول الله ﷺ ، فلما خذَلَه الله ، لَحِقَ بالروم يطلبُ النَّصْر من ملكهم على نبيِّ الله ﷺ ، وكتب إلى أهل مسجد الضِّرارِ يأمرُهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه (فيما ذُكِر عنه) ليصلِّيَ فيه -فيما يزعم- إذا رجعَ إليهم . ففعلوا ذلك . وهذا معنى قول الله جل ثناؤه : ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [1]

وقال ابن كثير -رحمه الله- في التفسير :"أنّه كان بالمدينة قبل مَقْدَمِ

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (٦/٤٧٠)

رسول الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصَّر في الجاهلية ، وقرأ عِلْمَ أهل الكتاب ، وكان فيه عبادةٌ في الجاهلية ، وله شرفٌ في الخزرج . فلما قَدِم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمةٌ عاليةٌ ، وأظهرهم الله يومَ بدر ، شَرِقَ اللّعينُ أبو عامرٍ بِرِيْقِه ، وبارَز بالعداوةَ ، وظاهَرَ بها ، وخرج فارًّا إلى الكفار من مكة من مشركي قريش ، فألّبهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدِموا عام أُحُدٍ ، فكان من أمر المسلمين ما كان....

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فِرَارِهِ ، وقرأ عليه القرآنَ ، فأبى أن يُسلِمَ وتمرَّدَ ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموتَ بعيدًا طريدًا ، فنالتْه هذه الدعوة . وذلك أنّه لما فرَغ الناس من أحد ، ورأى أمرَ رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهورٍ ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ ، فوعدَه ومنّاه . وأقام عنده ، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من المنافقين وأهل الرَّيْب ، يَعِدُهم ويمنّيهم أنّه سيقدم بجيشٍ يقاتِلُ به رسولَ الله ﷺ ويغلِبُه ، ويرُدُّهُ عما هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا مَعقِلًا يقدم عليهم فيه مَنْ يقدم من عنده ؛ لأداء كُتُبِه ، ويكون مَرْصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك . فشرعوا ببناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء ، فبنَوْه ، وأَحْكمُوه ، وفرغوا منه قبلَ خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألُوا رسولَ الله ﷺ أنْ يأتيَ إليهم فيصلّيَ في مسجدهم ؛ ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنّما بنوه للضعفاء منهم من أهل العِلّة في الليلة الشاتية . فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : (**إنّا على سفر ، ولكن إن رجعنا إن شاء الله**) فلما قفل ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يومٌ أو بعضُ يومٍ ، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمدَه بانُوه من الكفر والتفريق بين

جماعة المؤمنين في مسجدهم ، مسجد قباء الذي أُسِس في أوّل يومٍ على التقوى . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هَدَمَه قبل مَقْدمه ﷺ المدينةَ .

كما قال ابن عباس ﷺ في الآية : هم أناس من الأنصار بَنَوْا مسجدًا ، فقال لهم أبو عامر : اُبْنُوا مسجدًا ، واستعدُّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى ملك الروم ، فآتي بجندٍ من الروم ، وأُخرِج محمدًا وأصحابَه . فلما فرغوا من مسجدهم أَتَوْا النبي ﷺ ، فقالوا له : فرَغْنا من بناء مسجدنا ، فنحبُّ أن تُصلِّيَ فيه ، وتدعوَ لنا بالبركة . فأنزل الله ﷻ : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

وقال القرطبي - رحمه الله- : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ يعني : أبا عامر الراهب . وسُمِّي بذلك لأنه كان يتعبّد ، ويلتمس العلم ، فمات كافرًا بقنسرين[2] ، بدعوة النبي ﷺ. فإنه كان قال للنبي ﷺ : لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتُ معهم . فلم يزل يقاتلُه إلى يوم حُنين[3] . فلما انهزمت هوازن[4] ، خرج إلى الروم يستنصِرُ ، وأرسلَ إلى المنافقين ، وقال : استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابْتَنُوا مسجدًا ، فإني ذاهب إلى

---

(١) تفسير القرآن العظيم : (٤٠٢/٢) ، الآيتان ١٠٨ – ١٠٩

(٢) مدينة تبعد عن حلب بنحو (١٢) ميلًا ، فتحها المسلمون صلحًا بعد معركة اليرموك . ينظر : معجم البلدان (٤٠٣/٤)

(٣) معركة بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف ، وقعت بعد فتح مكة في شوال سنة (٨هـ) ، ينظر : تاريخ الطبري (١٦٥/٢)

(٤) بنو منصور بن عكرمة ، من قيس عيلان، من العدنانية ، كانوا يسكنون نجد مما يلي اليمن . ينظر : المقتضب (ص١٣٧) ؛ معجم قبائل العرب (١٢٣١/٣)

قيصر ، فآتي بجند من الروم لأخرجَ محمدًا من المدينة . فبَنَوْا مسجد الضرار"[١] .

ونحو الذي قاله الطبري وابن كثير والقرطبي ، قاله غيرهم من المفسرين .

فقال ابن عاشور -رحمه الله- : "هذا كلام على فريق آخر من المؤاخذين بأعمال عملوها ، غضب الله عليهم من أجلها ، وهم فريق من المنافقين بنوا مسجدًا حول قباء ، لغرض سيء ، لينصرف إخوانهم عن مسجد المؤمنين ، وينفردوا معهم بمسجد يخصهم ، فالجملة مستأنفة ابتدائية على قراءة من قرأها غير مفتتحة بواو العطف ، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر ، ونكتة الاستئناف هنا للتنبيه على الاختلاف بين حال المراد بها ، وبين حال المراد بالجملة التي قبلها ، وهم المرجون لأمر الله ، وقرأها البقية بواو العطف في أولها ، فتكون معطوفة على التي قبلها ، لأنها مثلها في ذكر فريق آخر مثل من ذكر فيما قبلها [٢]

وهذا يُثبِت خطورةَ مسجد الضرار الذي أمر رسول الله ﷺ بهدْمه وحرْقه ، ويُثبت حَجْمَ المؤامرة الضّخْمة التي كانتْ تُحاك من وراء بناء هذا المسجد المذكور .

إنّ المنافقين هم الذين بَنَوْا مسجد الضرار ؛ إرصادًا وترقبًا لِمَقْدَمِ أبي عامر الكافر ومعه الروم ؛ ليكون قاعدةً ومَعْقِلًا لهم (كما سمّاه ابن كثير) ينطلقُون منه لحرب الله ورسوله ﷺ . وليس الذي بنى المسجد هو أبو عامر ؛ كما ذُكر في بعض المقالات . والفرق بين الأمرين والنقلين (من حيث

(١) الجامع لأحكام القران (٢٥٧/٨)

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩/٥) .

الدلالة على حجم خطورة مسجد الضرار الذي استحق الهدم والحرق) واضح لكل ذي بصرٍ ، وبصيرة .

وكان الذين بَنَوْا مسجد الضرار اثني عشر رجلًا (كما سبق) وذكر الواقدي أنهم خمسة عشر رجلًا[1] ، لكنه لم يذكر سوى اثني عشر ؛ منهم : جارية بن عامر (وهو الملقب بحمار الدار) وابنه مَجْمَع -ولم يكن منافقًا ، وهو إمامهم) وابنه زيد بن جارية ، وهو الذي احترقت إِلْيَتُه فأبى أن يخرج ، وابنه يزيد بن جارية ، ووديعة بن ثابت ، وخذام بن خالد (من داره أُخرِج مسجد الضرار) وعبد الله بن نبتل ، وبجاد بن عثمان ، وأبو حبيبة بن الأزعر، ومعتب بن قشير ، وعباد بن حنيف ، وثعلبة بن حاطب .

وكان مخبرَ هؤلاء المنافقين وجاسوسَهم على رسول الله ﷺ هو عبدُ الله بن نبتل ، كان يأتي النبي ﷺ فيسمع حديثه ، ثم يأتي المنافقين به

المطلب الثاني: بواعث المنافقين وغاياتهم من وراء بناء مسجد الضرار :

تتلخص بواعث وغايات المنافقين من وراء بنائهم مسجد الضرار (كما ذكرت الآية القرآنية الكريمة) في أربع نقاط ، هي :

١ - الضّرر والإضرار :

كما قال الله ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ وكلمة ﴿ضِرَارٗا﴾ جاءت مفعولًا لأجله ؛ أي : ما حملهم على بناء المسجد شيءٌ إلاّ من أجل إنزال الضرر والأذى بالمسجد المجاور لهم ، الذي أُسِّس على التقوى من

(١) ينظر : المغازي (٧٦/٢)

أول يوم من إنشائه ، وهو مسجد قباء . وقيل : مسجد الرسول ﷺ [١] . ولإنزالِ الضرر كذلك بالجماعة المسلمة المؤمنة ، التي على رأسها النبي ﷺ. فليس لهم رغبةٌ أو هدفٌ من وراء بناء هذا المسجد سوى الضرر والإضرار ، وطلبِه ، والسعيِ لتحقيقه .

ولا يُسمَّى الشيءُ ضررًا ، إلا إذا عُدِم نفْعُه ، وكان شرًّا محضًا (كما هو الحال في مسجد الضرار المذكور) أو كان ضررُه راجحًا على نفعِه وخيرِه (كالخمر والميسر) وفي كلتا الحالين فإنّ الضّرر يُزال بمثله ، أو أكثر منه . كما جاء في الحديث النبوي الشريف : **(لا ضرر ولا ضرار ، من ضارَّ ضارَّ الله به ، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه)**[٢]

والقاعدة الفقهية تقول : (الضرر يُزال) [٣]

وفي معنى الضَّرَر والضِّرَار يقول القرطبي في تفسيره :"الضَّرَرُ : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مَضَرَّةٌ . والضِّرار : الذي ليس لك فيه منفعة ، وعلى جارك فيه مَضَرَّة . وقد قيل : هما بمعنى واحد ، تكلم بهما جميعًا على جهة التأكيد"[٤]

---

(١) قال الطبري في جامع البيان (٢٨/١١) : وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب : قولُ من قال : هو مسجد رسول الله ﷺ ، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ .

(٢) ينظر :سنن ابن ماجه (٧٨٤/٢) حديث رقم (٢٣٤٠) ؛ سنن الدارقطني ، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي (ت ٣٨٥هـ) ، تحقيق عبد الله هاشم ، (بيروت، دار المعرفة ، ١٩٦٦م) ، (٧٧/٣) حديث رقم (٢٨٨) ؛ مستدرك الحاكم (٦٦/٢) حديث رقم (٢٣٤٥) وقال عنه : صحيح على شرط مسلم .

(٣) ينظر : الأشباه والنظائر، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ) ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، د . ت) ، (ص٨٣)

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٥٤/٨)

وقال ابن الجوزي رحمه الله :" ﴿ ضِرَارًا ﴾ : انتصب مفعولًا له . المعنى : اتخذوه للضرار . وقال المفسرون : والضرار : بمعنى المُضارّة لمسجد قباء"(١) .

وقال الآلوسي – رحمه الله – : "﴿ ضِرَارًا ﴾: مفعول له . وكذا ما بعده... وقيل : مفعول مطلق لفعل مقدر ؛ أي يُضَارُّون بذلك المؤمنين ضِرارًا . والضِّرارُ : طَلَبُ الضَّرَرِ ، ومحاولته"(٢) .

٢-الكفر بالله ورسوله ﷺ :

ومن الغايات التي بُني لأجلها مسجدُ الضرار : الكفرُ بالله ورسوله ، وتقويةُ الكفر وأهلِه ، ومحاربةُ للهِ ولرسوله وجماعة المؤمنين . وذلك باستخدامه كقاعدة للمنافقين ، ومأوىً لهم ، يحيكون فيه المؤامرات على الدولة المسلمة الفتية ، وليكون مقرًّا لأبي عامر الراهب ، ومن معه من جند الروم عندما يصلون إلى المدينة المنورة ؛ لِيُخرِجوا النبيَّ ﷺ وأصحابَه منها

فهم بنوا المسجد ، **وأرادوا منه علاوة على الضررِ :** الكُفرَ بالله ورسوله ، وانتصارًا للكفر وأهله . كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا ﴾ . فقوله : ﴿وَكُفۡرٗا ﴾ معطوف على ضرار . أي : من أجل الكفر ، والإلحاد ، والمحارَبة . فهم أضمروا هذه النية الخطيرة في قلوبهم منذ اللحظة الأولى من بنائهم وتأسيسهم لمسجدهم المشؤوم .

قال الشوكاني –رحمه الله– :"فقد أخبر الله ﷻ أنّ الباعثَ لهم على بناء هذا المسجد أمورٌ أربعةٌ : الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو : المُضاررة .

---

(١) ينظر : زاد المسير (٥٠٠/٣)

(٢) ينظر : روح المعاني (١٧/١١)

والثاني ، الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقويةَ أهل النفاق"[١] .

وقال الشيخ محمد رضا -رحمه الله- :"أرادوا الكُفرَ ، وتقوية الكُفر ، وتسهيل أعماله مِنْ فِعْلٍ ، وتَرْكٍ . كتمكين المنافقين مِن ترْك الصلاة هناك ، مع خفاء ذلك على المؤمنين ؛ لعدم اجتماعهم في مسجدٍ واحدٍ . والتشاوُر بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ ، وغير ذلك"[٢].

٣- تفريق جماعة المسلمين :

من البواعث والغايات التي أرادوها من وراء بنائهم لمسجد الضرار : تفرُّق جماعة المسلمين إلى جماعات ؛ ليقلِّلوا عدد الذين يجتمعون للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ ، وكذلك مسجد قباء .

وفي ذلك ما فيه من إضعافٍ للشوكة ، وتشتيتٍ للكلمة ، وإبعادٍ للمسلمين عن التأثر والتوجيه المباشر من شخص النبي ﷺ ، عِلاوَةً على التقليل من سوادِهم في جماعة واحدةٍ . وتكثيرُ سواد المسلمين يُعدّ مطلبًا من مطالب الشريعة ، ومقصدًا من مقاصد صلاة الجماعة .

وفي قوله تعالى : ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال الشوكاني :"لأنهم أرادوا أن لا يحضُروا مسجد قباء ، فتقلّ جماعة المسلمين . وفي ذلك من

(١) ينظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير ، الشوكاني ، محمد ابن علي بن محمد (ت ١٢٥٠هـ) ، تحقيق سيد إبراهيم ، (القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٠٣م) ، (٤٠٢/٢) .

(٢) ينظر : تفسير المنار ، رضا ، محمد رشيد ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٥م) (٣٩ /١١)

اختلاف الكلمة ، وبُطلانِ الأُلفة ما لا يخفى"[١] .

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- :"كانوا يصلُّون في مسجدِ قباءَ جميعًا ، فأرادوا تفريق جماعتِهم"[٢] .

وقال البغوي -رحمه الله- :"لأنهم كانوا جميعًا يصلُّون في مسجد قباء، فبَنَوْا مسجد الضِّرار ليصلي فيه بعضهم ، فيؤدي ذلك إلى الاختلاف ، وافتراق الكلمة"[٣] .

وقال القرطبي -رحمه الله- : ﴿ وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي : يفرّقون به جماعتهم ؛ ليتخلَّفَ أقوامٌ عن رسول الله ﷺ . وهذا يدلُّك على أن القصد الأكبر والغرض الأخطر من وضْع الجماعة : تأليفُ القلوب والكلمة على الطاعة ، وعقْد الذِّمام والحُرمة بفعل الديانة ؛ حتى يقعَ الأُنسُ بالمُخالطة ، وتصفو القلوبُ مِن وَضَرِ الأحقاد"[٤] .

٤- ﴿ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ :

(١) ينظر : فتح القدير (٢/٤٠٣)

(٢) ينظر : زاد المسير (٣/٣٣٩)

(٣) ينظر : معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود الشافعي (ت ٥١٦هـ) (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٠م) (٣/٤٥)

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٨/٢٥٧) وفي ذلك عظة وعبرة لكثير من الناس الذين يحرصون على أن لا يُصلّوا إلا في مكان معين ، ربما لا تتوافر فيه صفات المسجد الجامع ، متجاوزين في ذلك الأميال الكثيرة والمساجد الجامعة ؛ عصبيةً لشيخ معين ، أو طريقةٍ معينة يكون عليها ذلك الشيخ ، أو المكان ... حتى إنّهم يُعرفون بنسبتهم إلى ذلك الشيخ أو المكان . وفي ذلك من التفرُّق ، وبذْر الاختلاف والتفرق والضغائن بين المسلمين ما لا يخفى على أحد . الباحث

أي : تَرَقُّبًا وانتظارًا لِمَقْدَمِ مَنْ حارب الله ورسولَه من قَبلِ أن يُبنى مسجد الضرار . وهو أبو عامر الفاسق ، الذي جنّد نفسَه لمحاربة الله ورسوله ، وكان قد خاض الحروب العديدة ضد النبي ﷺ قبل أن يُبنى مسجد الضرار ، وكان قد وعدهم ومنَّاهم بأنه سيأتي معهُ جيش الروم ؛ ليُخْرِج النبيَّ ﷺ وأصحابُه من المدينة المنورة . فطلب منهم تمهيدًا لذلك أنْ يبنوا مسجدًا في الظاهر ؛ ليستغلّه كقاعدة عسكرية ، ينطلق منها لحرب الإسلام والمسلمين .

فهو مسجد في الظاهر ، ولكنه في حقيقة أمره قلعةٌ من قلاع الحرْب ، والمكْر ، والكُفْر

قال الشيخ محمد رضا -رحمه الله- :"الإرصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل : أي : الانتظار والتّرَقُّب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محاربًا ، فيجد مكانًا مُرْصَدًا له ، وقومًا راصدين مستعدّين للحرب معه ، وهم هؤلاء المنافقون الذين بَنَوْا هذا المسجد مَرْصَدًا لذلك"[1] .

واتفق المفسرون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج يُعرف بأبي عامر الراهب ، وعدهم بأنه سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه .

هذا المسجد بصفاته وغاياته وأهدافه الهدامة الخطيرة هو مسجد الضرار ، وهو المسجد الذي أمر النبي ﷺ بحرقه وهدمه ، ونهى عن الصلاة فيه . فهل هكذا هي المساجد التي يشار إليها في زماننا هذا بأنها مساجد ضرار ؟

والذي يبدو من دراسة هذه الحادثة أن المنافقين قد حذقوا خلال

(١) ينظر : تفسير المنار(١١/٤١)

سني محاربتهم الإسلام مزيدًا من الأساليب لتخريب المجتمع الإسلامي من الداخل ، بعد أن أعْيَتْهُم كلُّ الحِيَلِ السّابقة ، فهاهم في ظاهر الأمر يَبنُون مسجدًا ، رَمْزَ الجماعة المسلمة ووِحْدَتَها ، وبه سيحقّقون خفاءً أكثر ؛ ليمارسوا تفريقَ وتمزيقَ الصّفِّ المسلم ، من المسجد الذي هو مركز الجماعة الإسلامية ، ومُنطَلَق نشاطاتِها المختلفة ، وقلبَها الذي لا يَكُفُّ عن الخفَقَان[١] .

والذي نخلُص إليه من كلّ ما تقدم في شأن المنافقين ، وممارستهم لإسلوب تفكيكَ مجتمع المدينة ووحدةَ المسلمين : أنّهم كانوا مِن أضرِّ أعداء الإسلام ممارسةً لهذا الأسلوب ، وأكبرِهم كيدًا ؛ لاندساسهم بين الصف المسلم .

ففي جبهة المشركين والمنافقين و اليهود ، قام عبد الله بن أبي ابن سلول بدوره منذ اللحظة الأولى لوصول الرسول ﷺ بسبب حرمانه زعامة قومه . يتضح ذلك من قول كلٍّ من (أُسيد بن حضير) كما عند ابن هشام[٢] : "يا رسول الله ، ارفُقْ به ، فو الله لقد جاءنا الله بك ، وإنّ قومَه ليَنْظِمُون له الخَرَزَ ؛ لِيُتَوِّجُوه ، فإنه يرى أنك قد استلبْتَهُ مُلْكًا" . وقول سعد بن عبادة ، (ويقال : أُسيد كما عند المقريزي) : "يا رسول الله ، ارفق به ، فو الله لقد جاء الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ، ما بقيتْ عليهم إلا خرزةٌ واحدةٌ عند يوشع اليهودي ؛ ليتوجوه ، فما يرى إلا قد سلبْتَهُ مُلكَه"[٣] .

ويمكن تَكْرَارُ ذلك مع الزعيمين ، فمن المحتمل أن تكون المحادثتان

---

(١) ينظر : دراسة في السيرة ، ص (٣٨٧ـ ٣٨٨)

(٢) ينظر : السيرة النبوية (٢٥٥/٤)

(٣) ينظر : إمتاع الأسماع (٢٠٦/١)

معًا ، لخطورة الأمر ، ولِحِرْص الرسول ﷺ على معرفة رأي جميع قيادات الأنصار لهذا الموقف[١] .

ممّا سبق ؛ رأيْنا عبدَ الله بن أبي ابن سلول صاحبَ فتنة تفكيك مجتمع المدينة، وصاحب الفتنة بين (الأوس والخزرج) ومُثيرَ نزْعة العصبية للتفريق بين المهاجرين والأنصار . كما وجدنا كتاب الله تعالى يقرّرُ حقيقة ممارسة المنافقين لهذا الأسلوب ، كما في قوله ﷻ : ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] .

وهكذا وصل بهم الأمر ليبتنوا مؤسساتِ المجتمع المسلم ؛ ليمارسوا دَور التخريب من خلالها ، كما حدث في بنائهم مسجد الضرار . فقد كان من أهداف إنشائه تفكيك وحدة المسلمين . كما سبق بيان ذلك .

المطلب الثالث : أهم الدروس والعبر المستفادة من فقه مسجد الضرار:

في قصة مسجد الضرار دروس وعبر وفوائد ، منها :

١- **الكفر ملَّة واحدة .** لقد تبيّن هذا في موقف أبي عامر الراهب من الإسلام ، ومن المسلمين ، إذْ غَضِبَ غضبًا شديدًا ، وتألّم لهزيمة المشركين في بدرٍ ، فأعلن عداءَه للرسول ﷺ ، وتوجّه إلى عاصمة الشرك آنذاك مكة ، يحثُّ أهلَها على قتال المسلمين ، وخرج مقاتِلًا معهم في أحد ، وحاول تفتيت الصف الإسلامي[٣] .

---

(١) ينظر : المنهج الحركي (٦٦/٢)

(٢) سورة التوبة ، الآية ٤٧

(٣) ينظر : الصراع مع الصليبين ، أبو فارس ، محمد عبد القادر ، (طنطا ، دار البشير ،

وصدق الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾(١)

٢- **محاولة التدليس على المسلمين** . حاول المنافقون أنْ يُضْفُوا الشرعية على هذا البناء ، وأنّه مسجدٌ بَنَوْهُ لأسبابٍ مُقْنِعَةٍ في الظاهر ، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها . فقد جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يُبارِكَ هذا المسجدَ بالصلاة فيه ، فإنْ حدث هذا ، فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم . وهذا أسلوبٌ ماكرٌ خبيثٌ ، قد ينطلي على كثير من الناس .

٣- **العلاج النبوي الحاسم** . إنّ أَمْرَ الرسول ﷺ بهدم مسجد الضرار هو التصرُّف الأمثل . وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، سَنَّ لقائد الأمة القضاء على أيّ عملٍ يُرادُ منه الإضرار بالمسلمين ، وتفريقُ كلمتهم . فالداءُ العُضالُ لا يُعالج بتسكينه ، والتخفيفِ منه ، وإنّما يُعالَج بِاستأصاله ، وإزالةِ آثاره ، حتى لا يتجدَّد ظُهوره بصورة أخرى . وإنّ الثمار العملية التي لمسها المسلمون على إثْر تطبيق الأمر النبوي الحازم ؛ تَدُلُّنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث هي الطريقة المُثلى لقمع حركة النفاق في المجتمع المسلم . فقد تلاشى أمْرُ المنافقين بعد ذلك شيئًا فشيئًا ، حتى لم يَبْقَ منهم بعد لحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عددٌ قليل ، ولَم يُعرَف منهم بعد تدمير مسجد الضرار أنْ قاموا بأعمال تخدمُ الهدف نفسه ؛ لِعِلْمِهِمْ

١٤١٩هـ) ، ص (١٧٩)

(١) سورة الأنفال ، الآية ٧٣

بنتائج العمل بعد انكشافهم [١].

٤- ما يُلْحَقُ بحكم مسجد الضرار . ذكر المفسرون ما يلحق مسجدَ الضرار في الحكم . وهذه بعض اقوالهم :

أ- قال الزمخشري :"وقيل : كلُّ مسجد بُني مباهاةً ، أو رياءًا وسمعة ، أو لِغَرَضٍ سوى وجه اللهِ ، أو بمالٍ غيرِ طيّبٍ ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضرار"[٢].

وعلّق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري ، فقال : "ولكن: هل يُلْحَقُ بمسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة ، وأمر النبي ﷺ بهدمه ؟ لا أرى ذلك ، وإنّما يمكن أن يقال : إنّ المسجد الذي بُني لهذه الأغراض يُلحَقُ بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى والإخلاص الكامل لله تعالى"[٣] .

ب - **قال القرطبي -رحمه الله-** : "قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ ، أو رياءٍ ، أو سمعةٍ ، فهو في حُكْم مسجد الضرار ، لا تَجوز الصّلاة فيه"[٤] .

ج - **قال سيد قطب -رحمه الله-** : "هذا المسجد (مسجد الضرار) الذي اتُّخِذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدةً للإسلام والمسلمين ، هذا المسجد ما يُزال يُتَّخذ في صورٍ شتّى ، ويُتّخذُ في صورِ نشاطٍ ظاهرُه الإسلام ، وباطنُه

---

(١) ينظر : التاريخ الإسلامي (١٣٠/٨)

(٢) ينظر : الكشاف (٣١٠/٢)

(٣) ينظر : المستفاد من قصص القرآن (٤٠٥/٢)

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٥٤/٨)

سحْقُ الإسلام ، أو تشويهه . وتُتّخذ في صورة أوضاعٍ ترفَع لافتة الدين عليها؛ لِتَتَتَرَّس وراءها ، وهي ترمي هذا الدين . وتُتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات ، وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام ؛ لتُخَدِّر الفاسقين الذين يرون الإسلام يُذبح ويُمحَقُ ، فتخدرهم هذه التشكيلات ، وتلك الكتب ، بما توحيه لهم من أن الإسلام بخيرٍ ، وأنه لا داعي للخوف ، أو القلق عليه"[١]
.

٥- **قاعدةٌ لمعرفة ما يلحق بمسجد الضرار . قال الدكتور عبد الكريم زيدان** :"كلُّ ما يُتّخذ ممّا هو في ظاهره مشروع ، ويُريد متخذوه تحقيقَ غرض غير مشروع ، فهو مما يُلْحَقُ بمسجد الضرار ؛ لأنّه يحملُ روحَه وعناصرَه"[٢] .

وإذا أردنا الإيجاز ، **قلنا في هذه القاعدة** : كلُّ ما كان ظاهرُه مشروعًا، ويريد متخذوه الإضرارَ بالمؤمنين ، فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضرار[٣] .

وبناءًا على هذه القاعدة ؛ يَخرُج من نطاق مسجد الضرار وما يُلْحَقُ به : ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك ، ومن أماكن المعاصي والفسوق ؛ كالحانات ، وبيوت الخمر والمنكرات ، ونحو ذلك . لأن هذه المنكرات ظاهرُها غير مشروع ، فلا تُلْحَقُ به ، وإن استحقّتْ الإزالة كمسجد الضرار ؛ باعتبارها منكراتٍ ظاهرًا ، وباطنًا[٤] .

٦ . مساجد الضرار في بلاد المسلمين . لا يزال أعداء الإسلام من

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن (١٧١٠/٣. ١٧١١)

(٢) ينظر : المستفاد من قصص القرآن (٥٠٦/٢)

(٣) ينظر : م. ن (٥٠٧/٢)

(٤) م. ن (٥٠٦/٢) ؛ زاد المعاد (١٧/٣)

المنافقين ، والملحدين ، والمنصّرين ، والمستعمرين ، يقيمون أماكنَ باسمِ العبادة ، وما هي لها ، وإنّما المراد بها الطعن في الإسلام ، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وآدابهم . وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ؛ ليصلوا منها إلى بثّ سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرْفهم عن دينهم .

وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة ، لِغَرضِ خلخلة العقيدة السليمة في القلوب ، والقيمِ الخلقية في النفوس . ومستشفياتٍ باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية ؛ لِغَرضِ التأثير على المرضى والضعفاء ، وصرْفِهم عن دينهم .

وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة (لا سيما في أفريقيا) ذريعةً للتوصُّل إلى أغراضهم الدنيئة ، التي لا يُقرُّها عقْلٌ ، ولا شرْعٌ ، ولا قانونٌ[1].

إن مسجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول انْقَضَتْ ؛ بل هي فكرة باقية ، يُخطَّط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتُختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها . وخِططُها تَصُبُّ في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه ، وقلْبِ الحقائق ، والتشكيكِ ، وزرعِ بذورِ الفتنة ؛ لإبعاد الناس عن دينهم ، وإشغالهم بما يضرُّهم ، ويدمِّرُ مصيرهم الأُخْرَوِيّ .

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أهمَّ ما يستفاد من قصة مسجد الضرار؛ حيث قال : "ومنها : تحريق أمكنة المعصية ، التي يُعصى الله ورسوله فيها ، وهدْمُها ، كما حرَّق رسول الله ﷺ مسجدَ الضِّرار ، وأمر بهدْمِه ، وهو مسجد يُصلَّى فيه ، ويُذكَر اسمُ الله فيه . كان بناؤه ضِرارًا وتفريقًا بين المؤمنين ،

(١) ينظر : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، أبو شهبة ، محمد ،(ط٣، دمشق ، دار القلم ، ١٤١٧هـ) (٥٠٨/٢)

ومأوىً للمنافقين . وكلُّ مكانٍ هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله ، إمّا بهدْم وتحريقٍ ، وإمّا بتغيير صورته وإخراجه عما وضع لأجله " [١] .

ثم يضيف ابن القيم – رحمه الله – قائلًا :

"وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار ؛ فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ مَن فيها أندادًا من دون الله أحقّ بذلك وأوجب . كذلك محالّ المعاصي والفسوق ؛ كالحانات وبيوت الخمّارين ، وأرباب المنكرات . وقد حرّق عمر بن الخطّاب ﷺ قريةً بكاملها يُباع فيها الخمر ، وحرّق حانوتَ رويشدٍ الثقفي[٢] ، وسمّاه فويسقًا"[٣] .

(١) ينظر : زاد المعاد (٤٦٣/٣) .

(٢) أبو علاج الطائفي ، ثم المدني . له إدراك . يُنظَر : ابن حجر : تعجيل المنفعة بزوائد الرجال الأربعة ، تحقيق إكرام الله إمداد الحق (ص١٢٢) (ط١، بيروت ، دار الكتاب الإسلامي ، د.ت) ويُنظَر : ابن سعد : الطبقات الكبرى (٢٨٢/٣) .

(٣) ينظر : زاد المعاد (٤٦٣/٣)

الفصل الخامس

أساليب المنافقين
في الإعراض والصدّ عن تحكيم الله ورسوله ﷺ

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : **أسلوب المنافقين في التحاكم إلى الطاغوت .**
- المبحث الثاني : **أسلوب المنافقين في الإعراض عن حكم الله ورسوله ﷺ . وأقوال العلماء في من أعرض عن تحكيم الشريعة .**
- المبحث الثالث : **حالات الحكم بغير ما أنزل الله ، وخلاصة القول في ترك الحكم بما أنزل الله ، والآثار المترتبة على ذلك ، وبعض الثمرات المباركة لتطبيق الشريعة .**

:Y

إن قضية تحكيم شرع الله مرتبطة بالتوحيد ارتباطًا وثيقًا ، وهي أصل من أصول العقيدة الإسلامية ؛ لأن أصل الإسلام قائم على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ . فهذا هو أصل الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[2]

وحَكَمَ اللهُ ﷻ بالكفر على كل من يُعْرِض عن طاعته ، وطاعةِ رسوله ﷺ فقال : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3]

وهناك الكثير من الأدلة التي توضح أن التحاكم إلى غير شرع الله والإعراض عن حكمه كفرٌ وشركٌ . قال تعالى : ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾[4]

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ

(١) سورة النساء ، الآية ٥٩

(٢) سورة الحشر ، الآية ٧

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣٢

(٤) سورة الكهف الآية ٢٦

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[١]

وقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢]

فإذا كان الحُكْم لله وحدَه ، فلا بدّ من اتّباع جميع ما جاء به الرسول ﷺ ، دون تفريقٍ . وهذا هو منهج المؤمنين الصادقين . وأما الإعراض عن شريعة الله التي جاء بها رسول الله ﷺ ، فهو تحاكُمٌ إلى الطاغوت . وهذا هو منهج المنافقين قديمًا ، وحديثًا .

يقول سيد قطب رحمه الله : " إن معنى الجاهلية ، يتحدد بهذا النص، فالجاهلية كما يصفها الله ، ويحددها قرآنه ، هي حكم البشر للبشر ، لأنها هي عبودية البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر ، وبالعبودية لهم من دون الله " ، ويضيف رحمه الله محذرًا من حكم الجاهلية ، فيقول :" إما إسلام ، وإما جاهلية ، إما إيمان ، وإما كفر ، إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية ... والذين لا يحكمون بما أنزل الله ، هم الكافرون الظالمون الفاسقون ، والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ، ما هم بمؤمنين ... ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، يستبدل بها شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ، ويجعل هواه ، أو هوى شعب من الشعوب ، أو هوى جيل من أجيال البشر فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟؛ ما الذي يستطيع أن يقوله ... وبخاصة إذا كان يدّعي أنه من المسلمين ؟ ! ؛

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢١

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٠

الظروف ، الملابسات ، عدم رغبة الناس ، الخوف من الأعداء ، ألم يكن هذا كله في علم الله ، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وان يسيروا على منهجه ، ولا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟ ... ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير ؟ .[1]

وهذه بعض الشواهد على منهج المنافقين في اللجوء إلى غير حكم الله وحكم رسوله ﷺ ؛ لترويج باطلهم ، ورغبةً في الظلم والجورِ .

(١) ينظر : في ظلال القرآن (٢/٩٠٥) .

المبحث الأول
أسلوب المنافقين في التحاكم إلى الطاغوت

١- عن ابن عباس ﷺ قال : "إن منافقًا خاصَم يهوديًّا إلى النبي ﷺ ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم إنّهما احتكما إلى رسول الله ﷺ ، فقضى لليهودي ، فلم يرضَ المنافق ، فدعاه إلى عمر بن الخطاب ﷺ ، فقال اليهودي : قضى لي رسول الله ﷺ ، فلم يرضَ بقضائه . فقال عمر للمنافق : أهكذا ؟ قال : نعم . فقال عمر : مكانكما حتى أخرج أليكما . فدخل فاشتمل على سيفه ، ثم خرج فضرب به عُنُقَ المنافق حتى بَرَدَ ، ثم قال : هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسولِه ﷺ ، فنزلتْ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[1]

فنزل جبريل عليه السلام فقال : إن عمر فرَّق بين الحق والباطل . فقال رسول الله ﷺ : **(أنتَ الفاروق)**

وفي روايةٍ : فدعا اليهوديُّ المنافقَ إلى النبي ﷺ ؛ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة . ودعا المنافقُ اليهوديَّ إلى حَاكِمِهم ؛ لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم[2] .

---

(١) سورة النساء ، الآيتان ٦٠ - ٦١

(٢) ينظر : أسباب النزول ، الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ، (ت ٤٦٨هـ) (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه ، ١٣٨٨هـ) ، ص (١٠٨) ؛ تفسير=

تُبيِّن هذه الحادثة أن المنافقين إنما كانوا يُؤْثِرون حكم الطاغوت على حكم الله ، وأنهم إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله ليحكم بينهم صَدُّوا ، وأعرضوا .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى عن هذه الآية :"والآية ذامّةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكَم إلى ما سواهما من الباطل . وهذا المراد بالطاغوت ها هنا"(١) .

وقال الشعبي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية :"فتَبَيَّن أنّ المنافق يكون أشد كراهةً لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى ، ويكون أشدّ عداوة منهم لأهل الإيمانِ . كما هو واقع في هذه الأزمنة وقبلِها ؛ من إعانة المنافقين العدوَّ على المسلمين ، وحرصِهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان"(٢) .

ومَنْ تدبّرَ ما حدث بسببهم في التاريخ من الوقائع ، عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا . وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والتقرب إليهم ، وحضّه على جهادهم في مواضع من كتابه ، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣)

وفي قصة عمر ﷺ وقتْله للمنافق الذي طلب التحاكُم إلى كعب بن

=القرطبي (٥ / ٢٦٣)

(١) ينظر :تفسير القرآن العظيم (٥١٩/١)

(٢) فتح المجيد ، ص (٤٧٦)

(٣) سورة التوبة ، الآية ٧٣

الأشرف اليهودي ، دليلٌ على قتْل من أظهر النفاق . كما في الصحيحين : أنّ النبي ﷺ ترَكَ قتْل من أظهر النفاق تأليفًا للناس ؛ فإنه قال : (**لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**)[١]

قال **ابن القيم** -**رحمه الله**- في تفسير هذه الآية : (فجعَل الإعراضَ عمّا جاء به النبيُّ ﷺ ، والالتفاتَ إلى غيره ؛ هو حقيقة النفاق" [٢] .

وروى الطبري -**رحمه الله**- في تفسيره عن قتادة ، قال في هذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين ، رجل من الأنصار يُقال له " بشر" وفي رجل من اليهود في مدارأة كانت بينهما في حق ، فتدارءا بينهما ، فتنافرا إلى كاهن في المدينة يحكم بينهما ، وتركا النبي ﷺ ، فعاب الله ﷻ ذلك ، وذُكر لنا أن اليهودي كان يدعوه إلى النبي ﷺ ليحكم بينهم ، وقد علم أن النبي ﷺ لن يجور عليه ، فجعل الأنصاري يأبى عليه ، وهو يزعم أنه مسلم ، ويدعوه إلى الكاهن ، فأنزل الله تبارك وتعالى ما تسمعون ، فعاب ذلك على الذي يزعم أنه مسلم ، وعلى اليهودي الذي هو من أهل الكتاب ، فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ

---

(١) ينظر : صحيح البخاري (١٢٩٦/٣) حديث رقم (٣٣٣٠) ؛ صحيح مسلم (١٩٩٨/٤) حديث رقم (٢٥٨٤)

(٢) ينظر : مختصر الصواعق المرسلة على فرق الجهمية والمعطلة ، (بيروت ، دار الفكر ، د.ت) ، (٣٥٣/٢)

وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ صُدُودًا ﴾[١] .

وفي رواية عن ابن عباس ﷺ قال : " الطاغوت ، رجل من اليهود ، كان يقال له كعب بن الأشرف ، وكانوا إذا دُعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم ، قالوا : بل نحاكمكم إلى كعب ، فذلك قوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[٢] .

وقال مجاهد -رحمه الله- في تفسيره : " تنازع رجل من المنافقين ، ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : اذهب بنا إلى محمد ، وقال المنافق : اذهب بنا إلى كعب بن الأشرف ، فأنزل الله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ، وهو كعب بن الأشرف [٣].

وقال سيد قطب -رحمه الله- : " إن الحاكمية لله وحده في حياة البشر، ما جلَّ منها وما دقَّ ، وما كبر منها وما صغر ، والله قد سنَّ شريعة أودعها قرآنه ، وأرسل رسولًا بينها للبشر ، ولا ينطق عن الهوى ، فسنته ﷺ من ثَمَّ شريعة من شريعة الله " [٤]

وخلاصة ما دلت عليه هذه الآية وما بعدها :

- أنّ التحاكُم إلى الطاغوت من صفات المنافقين .

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (٥٠٩/٨) .

(٢) ينظر : المصدر نفسه (٥١١/٨) .

(٣) ينظر : تفسير مجاهد ، أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٣هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي ، قطر ، مطابع الدوحة الحديثة ، صورت في جزءين ، المنشورات العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، (١٦٣/١ ـ ١٦٤) .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن (٦٩٠/٢) .

- أنّ (الطاغوتَ) عامٌّ ؛ فقد يكون رجلًا واحدًا يُتحاكَم إليه ، وقد يكون أكثرَ من ذلك .
- أَنَّ المُعرِضَ عن التحاكُم إلى الكتاب والسنة قد حكم اللهُ بنفاقِه . إذًا ؛ فالذي يضُمّ إلى ذلكَ منْعَ الناس من التحاكُم إلى الكتاب والسنة أشدُّ كفرًا ونفاقًا .
- هذه النماذج تعطي صورًا للتحاكم الذي ذمه الله تعالى ، مع أن الآية عامة .

فما الطاغوتُ ؟ وما صفةُ الكفر بالطواغيت ؟

ومنْ هُم أهمّ رؤوس الطواغيت ؟

قال **ابن القيم** –**رحمه الله**– في تعريفه للطاغوت : "وأنّه : كلُّ ما تجاوزَ به العبدُ حدَّه ، من معبودٍ ، أو متبوعٍ ، أو مُطاعٍ . فكلُّ مَنْ حَاكَم إلى غيرِ كتاب الله وسنةِ رسوله ﷺ ، فقد حاكَم على الطاغوتِ الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ؛ فإنّ التحاكُم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فمن حاكَم إلى غيرهما فقد تجاوزَ حدَّه ، وخرج عمّا شرَعَ اللهُ ورسولُه ﷺ ، وأنْزَلَه مِنزلًا لا يستحقُّها . وكذلك : مَن عبدَ شيئًا مِن دون الله ؛ فإنّما عبدَ الطاغوتَ . فإذا كان المعبود صالحًا صارت عبادةُ العابد له راجعةً إلى الشيطان الذي أمره بها"[(١)] .

وقال **الإمام مالك** –**رحمه الله**– :" الطاغوت : ما عُبِد من دون الله"[(٢)].

---

(١) ينظر : أعلام الموقعين (١/٥٠)

(٢) ينظر : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، (ط٧، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٧هـ) =

وقال **الطبري رحمه الله** : "**والصوابُ من القول عندي في الطاغوت** : أنّه كلُّ ذي طُغيان على الله ، فعُبِدَ من دونه ، إمّا بقهرٍ منه لمن عبدَه ، وإمّا بطاعةٍ ممن عبده له ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ ، أو شيطانًا ، أو وثنًا ، أو صنمًا ، أو كائنًا ما كان من شيءٍ" [(١)] .

ويقول **الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله** : "والطاغوت عامٌّ ؛ فكلُّ ما عُبِدَ من دون الله ، ورَضي بالعبادة ؛ من معبودٍ ، أو متبوعٍ ، أو مطاعٍ في غير طاعة الله ورسوله ﷺ فهو : طاغوتٌ"[(٢)] .

وقال في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد : **المسألة الثامنة** : أنّ الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِدَ من دون اللهِ[(٣)] .

قلت : ولكنّ الشيخَ محمد بن عبد الوهاب في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد جعل الطاغوت عامًّا في كلِّ ما عُبِدَ من دون الله ، ولم يقيّدْه بمَنْ رَضِيَ بالعبادة . وكذلك : ما ذكرناه عن الإمام مالك ، وابن جرير الطبري ، وابن القيم . إنّما نُقِل بصيغة العموم ؛ من غير تقييد بمن رضي بالعبادة .

لذلك لا ينبغي أن يُطلَق على الملائكة والأنبياء والصالحين بأنهم طواغيتُ ؛ إذا عُبِدوا من دون الله ؛ لأن الطغيان ومجاوزةُ الحدّ واقعةٌ من عابديهم لا منهم ، فالعابدون لهم هم الذين رفعوهم فوق منزلة المخلوقين ،

=(ص٤٧٦)

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (١٣/٣)

(٢) ينظر : مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، إعداد عبد العزيز بن زيد الرومي وآخرون ، (ط١، الرياض ،جامعة الإمام محمد بن سعود ، د.ت) ،(٣٧٧/١)

(٣) ينظر : فتح المجيد ، ص(٣٤)

وصرفوا لهم ما لا يُصرف إلا لله .

فاعتقاد العابدين هذا هو الطاغوت ، والذي أمرهم به من شياطين الأنس والجن هم الطواغيت الحقيقية . فالطاغوت الذي يُعبد من دون الله برِضاهُ : كفرعون ، والنمرود ، ونحوهما . أمّا من لا يرضى ذلك : كعيسى بن مريم عليه السلام ، وعزير عليه السلام اللَّذَيْنِ أنكرا ذلك ، ودعيا إلى عبادة الله وحده ؛ فلا ينبغي إطلاقُ كلمة الطواغيت عليهم .

ومما يدل على أن مسمى الطاغوت شاملٌ لكل ما عُبِد من دون الله برضاه : قولُه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]

أنواع الطواغيت :

قال **الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-** : الطواغيت كثيرة ، ورؤسهم خمسة :

١- **الشّيطان** الداعي إلى عبادة غير الله . والدليل : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]

٢- **الحاكِمُ الجائرُ المغيّرُ لأحكام الله تعالى** . والدليل : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦

(٢) سورة يس ، الآية ٦٠

ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[(١)]

٣. **الذي يحكم بغير ما أنزل الله** . والدليل : قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[(٢)] .

٤. **الذي يدّعي علمَ الغَيب من دون الله** . الدليل : قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[(٣)] وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[(٤)]

٥. **الذي يُعبَد من دون الله ، وهو راضٍ بالعبادة** . والدليل : قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[(٥)]

وأضاف آخرون إلى هؤلاء ، الساحر ، والكاهن ومردة أهل الكتاب ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٠

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٤ . ويتبيّن من هذا : أنّ الحاكمَ بغير ما أنزل الله طاغوتٌ ؛ بل هو رأس في الطغيان ؛ لأنه يشرّع للناس من القوانين الكفرية البشرية ، التي هي زبالات أذهان البشر ، وينحّي شرْعَ الله جانبًا . وهو مع ذلك يأمر الناس بطاعة هذه القوانين .

(٣) سورة الجن ، الآية ٢٧

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٥٩

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٢٩

وقال بعض أنه بعض زعماء اليهود الذين يُتحاكم إليهم من قبل المنافقين في المدينة [١].

علاقة الكفر بالطاغوت بالإيمان بالله :

الإيمان لا يتحقق إلا بالكفر بالطاغوت ، ولا بدّ أن يسبق الإيمانَ بالله الكفرُ بالطاغوت ؛ لأنّ الكفر بالطاغوت شرْطٌ لصحة التوحيد . قال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢]

فقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنّ التمسُّكَ بالعُروة الوثقى هو : الذي جمَعَ بين الكفْرِ بالطاغوت والإيمانِ بالله .

وقد نُقِل عن **الطبري بسنده عن مجاهدٍ** : أنّ المرادَ بالعُروة الوثقى الإيمانُ . وعن السّدّيِّ : الإسلامُ . وعن ابن جبير ، والضحّاك : لا إله إلا الله . وهذه التفاسير عن السَّلَف ؛ لا اختلاف بينها . فإنّ الإيمان إذا أُطلِق شَملَ الإسلام ، والإسلامَ إذا أُطلِق شمل الإيمانَ . و **لا إله إلا الله** هي أصلُ الإسلام والإيمان . ويُفهم منه : أنّ منْ لم يكفر بالطاغوت لم يستمسكْ بالعروة الوثقى ، ومن لم يستمسكْ بها فهو مُتردٍّ مع الهالكين .

وكما جمع الله تعالى بين اشتراط الإيمان بالله ـ والكفر بالطاغوت في التمسك بالإسلام ، والإيمان ، ولا إله إلا الله ؛ فقد جمع الله بين اشتراط الإيمان والعمل الصالح في النجاة من عذاب الله . كما في قوله ﷻ : ﴿ مَنۡ

(١) ينظر : جامع البيان للطبري (٥/٤١٦ ـ ٤١٨) .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١] وقوله : ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[٣] .

ونظائر هذا في القرآن كثيرة ، وشبيهٌ بالآيات المتقدمة قولُه تعالى : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[٤] .

قال الإمام البغوي -رحمه الله- في تفسيره ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ : " أي اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه "[٥] .

وقال الشوكاني -رحمه الله- في تفسيره : " أي اعتصم بالعهد الأوثق ، وتعلق به ، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يرتقى إلى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرى حبل متدلٍ منه "[٦] .

وقال الشيخ ابن عاشور -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " فالمعنى أن المؤمن ثابت اليقين سالم من اضطراب القلب في الدنيا ، وهو ناجٍ من

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٩

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٤٩

(٣) سورة الكهف ، الآية ٨٨

(٤) سورة لقمان ، الآية ٢٢

(٥) ينظر : معالم التنزيل ، ص (١٠١٤) .

(٦) ينظر : فتح القدير (٣١٨/٤) .

مهاوي السقوط في الآخرة ، كحال من تمسك بعروة حبلٍ متينٍ لا ينفصم

وهذه الآيات المتقدمات دلّتْ على اشتراط العمل مع الإيمان ، كما دلّت آية البقرة على اشتراط الكفر بالطاغوت مع الإيمان ؛ فإذا فُقِد جنس العمل بَطَلَ الإيمانُ ، وإذا فُقِد الكفر بالطاغوت بَطَلَ الإيمانُ[٢] .

وبهذا يكون الكفر بالطاغوت ركنًا للإيمان بالله تعالى ، فإذا أنهدم هذا الركنُ أنهدم الإيمانُ .

ولتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله له دلالات عظيمة منها :

١ـ عدم الاستهانة بقضية الكفر بالطاغوت .

٢ـ لا بدّ أن يسبقَ الإيمانَ بالله الكفرُ بالطاغوت ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع صاحبه في شيء إلا بعدَ الكُفْر بالطاغوت .

٣ـ أنّ الإيمان بالله وعدم الكفر بالطاغوت لا يمكن اجتماعهما في قلب المؤمن الموحد ؛ وإنما ذلك من صفات المنافقين .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٩/٢) .

(٢) ينظر : كتاب الصلاة وحكم تاركها ، ابن القيم ، تحقيق تيسير زعيتر (ص٣٥) (ط٢، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٥م)

المبحث الثاني

أسلوب المنافقين في الإعراض عن حكم الله ورسوله ﷺ وأقوال العلماء في من أعرض عن تحكيم الشريعة

إن من أبرز أساليب المنافقين ، التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهذه هي حقيقة النفاق قديمًا وحديثًا ، التحاكم إلى الطواغيت ، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ ، والالتفات إلى غيره في الحكم ، وفي هذا المبحث سنتناول هذا الأسلوب النفاقي الخطر ، وحكم العلماء وأقوال المفسرين فيمن تحاكم إلى غير شرع الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ .

أورد البخاري ومسلم(١) قصة الزبير بن العوام ﷺ مع رجل من الأنصار . فقد رويا عن عروة ابن الزبير : أنّ رجلًا من الأنصار خاصَم الزبير في شراج الحَرّة ليسقي به النخل ، فقال رسول الله ﷺ : (**اِسْقِ يا زُبير** -فأمره بالمعروف- **ثمّ أرسِل إلى جارك**) فقال الأنصاري : أنْ كان ابنُ عمّتك؟ فتلوّن وجهُ رسول الله ﷺ ، ثم قال : (**اِسْقِ ، ثم احبس حتى يرجع الماء إلى الجدرِ ، واستوعِب له حقَّه**) ، فقال الزبير : والله إن هذه الآية نزلت في ذلك : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٢)

قال ابن حجر -رحمه الله- (٣) : "كان بين رجل من اليهود ورجل من

---

(١) ينظر : صحيح البخاري (٨٣٢/٢) حديث رقم (٢٢٣١) ؛ صحيح مسلم (١٨٢٩/٤) حديث رقم (٢٣٥٧)

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥

(٣) ينظر : فتح الباري (٣٧/٥)

المنافقين خصومة ، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ -لأنه عَلِم أنه لا يقبل الرشوة- ، ودعا المنافق اليهوديَّ إلى حُكامهم ؛ لأنه علم أنهم يأخذونها .

فأنزل الله هذه الآيات : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1]

ما حكم مَن صدّ عن التحاكُم إلى الكتاب والسنة ؟

يُستفادُ ممّا سبق :

- أن الذي قاله صاحب الزبير رضي الله عنه أمرٌ عظيمٌ في الطّعْن برسول **الله** ﷺ ، لذلك **قال ابن حجر -رحمه الله-** " إن هذا الرجل كان منافقًا " . وقد ناقش هذه المسألة في الفتح [2].

---

(١) سورة النساء ، الآيات ٦٠ - ٦٥

(٢) ينظر : فتح الباري (٥/ ٤٥) وما بعدها .

وقال النووي -رحمه الله- في شرحه على صحيح مسلم عن صاحب الزبير ﷺ : "قال العلماء : لو صدر مثلُ هذا الكلام الذي تكلّم به الأنصاريُّ اليوم من إنسانٍ من نسبته ﷺ إلى الهوى كان كافرًا ، وجرتْ على قائله أحكام المرتدين ، فيجب قتلُه بشرطه . قالوا : وإنما تركه النبي ﷺ ؛ لأنه كان أول الإسلام يتألّفُ النّاسَ ، ويدفعُ بالتي هي أحسن ، ويصبرُ على أذى المنافقين ومن في قلبه مرضٌ ، ويقول : (**يسّروا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفّروا**) ويقول : (**لا يتحدّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**) وقال تعالى : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١)

فما دلّت عليه الآيات واضحٌ جدًّا ؛ حيث نفى الله الإيمانَ عمّن صدر منه شيءٌ من ذلك . فهي عامّةٌ في كلِّ مَن أبى أن يتحاكم إلى الكتاب والسنة، وأن الإيمان لا يتمّ إلا بالتحاكُم إلى الرسول ﷺ ، والتسليم له .

- في هذه الآيات دلالةٌ على أن من ردّ شيئًا من أوامر الله أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارجٌ من الإسلام ؛ سواء ردّه من جهة الشك ، أم من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم . وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة ﷺ في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة ، وقتْلِهم ، وسبْي ذراريهم ؛ لأن الله حكَم أنّ منْ لم يُسلِّم للنبي ﷺ قضاءَه وحكمَه ؛ فليس من أهل الإيمان(٢) .

(١) سورة المائدة ، الآية ١٣ . ويُنظَر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، النووي، (ط١، القاهرة ، مكتبة الصفا ، ٢٠٠٣م) ، (٥/٣٥-٣٦)

(٢) ينظر : أحكام القرآن ، الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٣٧٠هـ) ، (مصورة عن طبعة تركيا ١٣٢٥هـ ، بيروت ، دار الكتاب العربي) (٢١٣/١-٢١٤)

- **يقول ابن كثير -رحمه الله-** في تفسير الآية السابقة : "يُقسِم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنّه لا يؤمن أحدٌ حتى يُحكِّم الرسول ﷺ في جميع أموره . فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا . ولهذا قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ ، أي : إذا حكّموك يطيعوك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمتَ به ، وينقادون له في الظاهر والباطن ؛ فيسلِّمون لذلك تسليمًا كُلِّيًّا ، من غير مُمَانَعةٍ ، ولا مُدافعةٍ ، ولا مُنازَعة ، كما ورد في الحديث : "**والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)**[١] [٢]

وقد علّق **الشيخ أحمد محمد شاكر -رحمه الله-** على كلام الحافظ ابن كثير بكلام مطوّل ، نختار منه : "إنّ هذه الآيات واضحة الدلالة صريحة اللفظ ، لا تحتاج إلى طول شرح ، ولا تحتمل التلاعب والتأويل ، وأن طاعة الله ورسوله ﷺ شرط الإيمان ، وأن من صد عنهما وتحاكم إلى غيرهما فهو النفاق . والنفاق شر أنواع الكفر . ثم قال : ثم يقسم ربنا تبارك وتعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أن الناس لا يكونون مؤمنين حتى يحتكموا في شأنهم كله إلى الرسول محمد ﷺ وحتى يرضوا بحكمه طائعين خاضعين ، لا يجدون

---

(١) ينظر : السنة ، ابن أبي عاصم ، محمد بن أبي عاصم الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (ط١، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ) (ص ١٢) ، قال الإمام النووي رحمه الله : " حديث صحيح ، روِّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح " ، ينظر : الأربعين النووية الحديث الحادي والأربعين ، وقال حافظ ابن حجر : " أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ، ورجاله ثقات ، ينظر: فتح الباري (٢٨٩/١٣) .

(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٥٢٠/١)

في حكمه حرجًا في أنفسهم ، وحتى يُسلِّموا في دخيلة قلوبهم إلى حكم الله ورسوله تسليمًا كاملًا ، لا ينافقون به المؤمنين ، ولا يخضعون في قبوله لقوة حاكم أو غيره ، بل يرضون به ، مهما يلقوا في ذلك من مشقة أو مُؤْنة ، وإنهم إن لم يفعلوا ذلك لم يكونوا مؤمنين قط ؛ بل دخلوا في عداد الكافرين والمنافقين "[١] .

- **يذكر ابن القيم -رحمه الله-** في تفسير هذه الآية الكريمة كلامًا نفيسًا . إذ قال : "وفرْضُ تحكيمه لم يسقط بموته ، بل ثابتٌ بعد موته ، كما كان ثابتًا في حياته . وليس تحكيمُه مختصًا بالعمليات دون العلميات ، كما يقول أهل الزيغ والإلحاد . وقد افتتح سبحانه هذا الخبرَ بالقَسَم المؤكَّد بالنفي قبله، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم ، حتى يحكّموا رسولَ الله ﷺ في جميع ما تنازعوا فيه من دقيق الدين وجليله ، وفروعه وأصوله . ثم لم يكتفِ بهذا التحكيم حتى ينتفي الحرَجُ ، وهو الضيق مما حَكَم به ، فتنشرح صدورهم لقبول حكمه انشراحًا لا يبقى معه حرج ، ويسلموا تسليمًا ؛ أي : ينقادون لحكمه"[٢] .

- وقد ذكر **البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري -رحمه الله-** أنه قال في تفسير هذه الآية : "**من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم**" [٣] .

- يقول **الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ** في كتابه القيّم "تحكيم

---

(١) ينظر : عمدة التفسير في التعليق على ابن كثير ، أحمد محمد شاكر، (القاهرة، دار المعارف ، ١٣٧٣هـ) ، (٢١٤/٣)

(٢) ينظر : مختصر الصواعق (٣٥٢/٢)

(٣) ينظر : صحيح البخاري (٢٧٣٨/٦)

القوانين" عن الآية : "وقد نفى الله ﷻ الإيمانَ عن من لم يحكِّم النبيَّ ﷺ فيما شجر بينهم نفيًا مؤكدًا ، يتكرّر بتكرار أداة النفي ، وبالقسم . ولم يكتف - تعالى وتقدّس- منهم بمجرد التحكيم للرسول ﷺ حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيءٍ من الحرَج في نفوسهم لقوله جل شأنه : ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ والحرج : الضيق . بل لا بد من اتساع صدورهم لذلك ، وسلامتها من القلق والاضطراب . ولم يكتف تعالى بهذين الأمرين حتى يضموا إليه التسليم ، وهو : الانقيادُ لحكمه ﷺ "[1] .

ومن تأمّل تفسير هذه الآية العظيمة المعاني ، وما ورد في أسباب نزولها ، وكلام العلماء في بيان معناها ، تبيّن له أن الأمر لا يقتصر على مجرد الاعتقاد ، ولا أن الوعيد خاص بمن كان في قلبه شك أو كراهية لما جاء به الرسول ﷺ ، بل لو ردّ حكم الرسول ﷺ ولم يسلم له فهو واقع في الوعيد الشديد الذي دلت عليه الآية ، وهو : نَفْيُ الإيمان عنه ، ووقوعه في الكفْر ، والرّدّة .

قال الشيخ ابن عاشور -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " وقد نفى عن هؤلاء المنافقين أن يكونوا مؤمنين ، كما يزعمون في حال يظنهم الناس مؤمنين ، ولا يشعرون بكفرهم ، فلذلك احتاج الخبر للتأكيد بالقسم ، وبالتوكيد اللفظي ، لأنه كشف لباطن حالهم ، والمقسم عليه ، الغاية ، وما عطف عليها بثم ، معًا ، فإن هم حكموا غير رسول الله ﷺ فيما شجر بينهم ، فهم غير مؤمنين ، أي إذا كان انصرافهم عن تحكيم الرسول ﷺ للخشية من

(١) ينظر : تحكيم القوانين ، (ط٣، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٢١هـ) (ص١-٢) ؛ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، الشنقيطي ، محمد الأمين (ت ١٣٩٣هـ) ، (ط١، بيروت دار إحياء التراث العربي ١٩٩٦م) (١/٢٩٤)

جوره كما هو معلوم من السياق ، فافتضح كفرهم "[١]

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة ، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله ﷺ في جميع الأمور ، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا ، ويسلم تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة " [٢] .

ويقول سيد قطب -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية الكريمة كلامًا نفيسًا إذ قال : " على أية حال ، نجد في هذه المجموعة من الآيات تحديدًا ، كلامًا دقيقًا حاسمًا لشرط الإيمان وحد الإسلام ، ونجد شهادة من الله بعد إيمان الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، كما نجد قسمًا من الله سبحانه بذاته العلية ، أنهم لا يدخلون في الإيمان ، ولا يحسبون مؤمنين ، حتى يحكموا الرسول ﷺ في أقضيتهم ، ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه ، طاعة الرضا ، وتنفيذ الارتياح القلبي ، الذي هو التسليم ، لا عجزًا واضطرارًا ، ولكن طمأنينة وارتضاءً " [٣]

وأكد هذا الحُكمَ **شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى** ، فقال : "ومن لم يعتقد وجوبَ حُكم ما أنزل الله على رسوله ، فهو كافر"[٤].

نقول : ووجه الكُفْر : أنه غيرُ مصدّق للنصوص الدالّة على وجوب الحكم بما أنزل الله ، وإذا انتفى التصديق انتفى الإيمان . وقد ذكرنا النصوص القرآنية الكثيرة بوجوب الحكم بما أنزل الله تعالى .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١١١/٢) .

(٢) ينظر : أضواء البيان (١١٤/١) .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن (٦٩٣/٢) .

(٤) ينظر : مجموع الفتاوى (٣٢٢/٧)

وأضاف الشيخ **محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله-** مؤكّدًا كُفر من تحاكم إلى غير كتاب الله ، فقال "وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم، خضوعٌ ورضوخٌ لحُكم مَن خلَقهم تعالى ليعبدوه ، فكما لا يسجد الخلقُ إلا لله ، ولا يعبدوا إلا إياه ، ولا يعبدون المخلوق ؛ فكذلك يجب إلا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد ، الرؤوف الرحيم ، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول ، الذي أهلكتْه الشكوك والشهوات والشبهات ، واستولت على قلوبهم الغفلة ، والقسوة والظلمات"(١) .

يقول الشيخ **عبد العزيز بن باز -رحمه الله-** : " فمن حكم بغير ما أنزل الله ، يرى ذلك أحسن من شرع الله ، فهو كافر عند جميع المسلمين . وهكذا من يحكّم القوانين الوضعية بدلًا من شرع الله ، ويرى أن ذلك جائز . ولو قال : إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر ؛ لكونه استحل ما حرم الله"(٢) .

- ذكر الشيخ حمد بن عتيق -رحمه الله تعالى- الأشياءَ التي يصير بها المسلم مرتدًّا، ومنها : الشركُ بالله ، وإظهارُ الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم ، وموالاة المشركين ، والجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار ، والاستهزاء بالله أو بكتابه أو برسوله ، وظهور الكراهة والغضب عند الدعوة إلى الله ، وتلاوة آياته ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكراهة ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ، وعدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن والأحاديث ، والمجادلة في ذلك . ثم قال : **الأمر الرابع عشر** : التحاكُم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فعدَّ رحمه الله هذه

---

(١) ينظر : تحكيم القوانين ، ص (٢١)

(٢) ينظر : مجموع فتاوى ابن باز (٤/٤١٦)

الأمورَ رِدَّةً عن الإسلام[١] .

ولهذا قال **الحافظ ابن كثير -رحمه الله-** : "فمن ترك الشرع المُحْكَمَ المنزَّل على محمد ﷺ خاتم الأنبياء إلى غيره من الشرائع المنسوخة ؛ كَفَرَ . فكيف بمن تحاكم إلى الياسا[٢] وقدمها عليه ؟! فمن فعل ذلك فقد كفر بإجماع المسلمين "[٣] .

فتأمّل كيف حكم على من تحاكم إلى الشرائع المنسوخة بالكفر . أما الياسق والقوانين الوضعية ، فأمرها أشد وأخطر !

ومن اعتقد أن فتوى ابن كثير رحمه الله خاصة بالتتار ، أو أن كفرهم إنما هو لغير تحاكمهم إلى الياسق ؛ فقد أَبْعَدَ النَّجْعة .

- **قال الشيخ محمد حامد الفقي -رحمه الله-** : "من اتّخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ، ويقدّمها على ما عَلِم وتبيّن له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فهو بلا شك كافرٌ مرتدّ ؛ إذا أصرّ عليها ، ولم يرجع إلى الحكم بما أُنزِل . ولا ينفعه بأي اسم تسمى به ،

---

(١) ينظر : سبيل النجاة والفكاك (ص ٧٤-٨٣) وتنظر هذه الأمور مفصلة بأدلتها في هذا الكتاب

(٢) أو "الياسق" : كلمة مغولية تركية ، تعني : قانون التتار الذي وضعه زعيمهم جنكيزخان . وهو عبارة عن مجموع من الأحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية ، والنصرانية ، والملة الإسلامية . وفيها الكثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعًا متّبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ومن فعل ذلك منهم فهو كافر ، يجب قتاله حتى يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فلا حكم سواه في قليل ولا كثير . ينظر : تفسير القرآن العظيم (١٢٢/٣-١٢٣)

(٣) ينظر : البداية والنهاية (١١٩/١٣)

ولا أي عمل من ظواهر الأعمال ؛ كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وغيرها [١].

يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** -رحمه الله- : "ومعلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام ، وباتفاق جميع المسلمين : أنّ مَن سوَّغ غيرَ دين الإسلام ، أو اتباع شريعةٍ غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر ، وهو ككُفر من آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعضه" [٢] .

وقال -رحمه الله- : "والإنسان متى حلّل الحرام المجمع عليه ، وحرّم الحلال المجمع عليه ، أو بدّل الشرع المجمع عليه ، كان مرتدًّا باتفاق الفقهاء"[٣] .

وقد فصّل **ابن تيمية -رحمه الله-** الحكمَ الشرعيَّ ، والإجراءَ العمليَّ لهؤلاء التتار الذين يُعلِنون إسلامَهم وإقرارَهم بالشهادتين ؛ لكنهم يتحاكمون إلى شريعة جنكيزخان (الياسق) ويقتلون المسلمين ، ويَسْبون ذراريهم ، ويهتكون حرمات الدين ؛ من إذلال المسلمين ، وإهانة المساجد . فسُئل ابن تيمية عن حكم مقاتلة التتار مع ادعائهم الإسلام ، فقال رحمه الله (في إحدى الأجوبة المبنية على قاعدة أصولية في الفتوى عزيزة ، لازمة لكل من تصدى للفتوى ، خاصة في المسائل المستجدة) : "نعم ، يجب قتال هؤلاء بكتاب الله وسنة رسوله ، واتفاق المسلمين . وهذا مبني على أصلين أحدهما : المعرفة بحالهم. والثاني : معرفةُ حُكم الله في أمثالهم" . ثم فصل في هذين الأصلين ، وذكَر الأدلة من الكتاب والسنة ، وفعل الصحابة ﷺ مع المرتدين والخوارج ، وكان يقول للناس : "إذا رأيتموني من ذلك الجانب ، وعلى رأسي مصحفٌ

---

(١) ينظر : فتح المجيد ، حاشية ص (٤٠٦)

(٢) ينظر : مجموع الفتاوى (٢٨٨/٤)

(٣) ينظر : المصدرنفسه (٣/ ٢٦٧)

فاقتلوني" فتشجع الناس في قتال التتار ، وقويت قلوبُهم ونياتُهم . ولله الحمد [١] .

وعلى مرّ التاريخ وُجِد من الطوائف مَن حَكَم بعض بلاد المسلمين ، وفرَض عليهم عقائدَ ، وسنَّ شرائع مخالفة للإسلام ، وفرضها عليهم . فهؤلاء خارجون عن الإسلام ؛ كالدولة العبيدية في مصر التي قال عنها ابن تيمية رحمه الله : "فإن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام ، وكانوا يُظهِرون أنهم رافضة ، وهم في الباطن إسماعيلية ، ونصيرية ، وقرامطة باطنية" . كما قال فيهم الغزالي في كتابه الذي صنفه في الرد عليهم (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) : "ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفْر المحْض"[٢].

واتفقت طوائف المسلمين ، وعلماؤهم ، وملوكهم ، وعامّتهم من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، وغيرهم : أنهم كانوا خارجين عن شريعة الإسلام ، وأنّ قتالهم كان جائزًا .

بل نصّوا على أن نسبهم كان باطلًا ... والذين يوجدون في بلاد المسلمين من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم ؛ هم من اتباعهم ، وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين [٣] . وكان وزير هولاكو النصير

---

(١) ينظر : البداية والنهاية (١٤/٢٣-٢٤)

(٢) ينظر : فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، عبد الرحمن بدوي (الكويت ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، د.ت) (ص ٣٧)

(٣) ومن العجيب ، أن ابن تيمية يشير إلى لقائه مع التتر : أنّ من نصوص قانون التتار الياسق (وذكر بعضه المقريزي في خططه أيضًا) : الأمر بتمييز ولد علي بن أبي طالب ﷺ ، وأن لا يكون عليهم كلفة ولا مؤنة . يقول : "وشرْطُ أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب ﷺ مؤنة ولا كلفة" . ينظر : خطط المقريزي ، =

الطوسي من أئمتهم"[١]

ومن خلال عرض ما سبق يُلاحَظ ما يأتي :

- إن هذه الآيات نزلت تفضح المنافقين الذين يُعرضون عن حكم الله وحكم رسوله ﷺ .
- وضحت العلاقة بين المنافقين واليهود ، ودور الجميع في ضرب الإسلام ، والاحتيال على شريعة الإسلام . ومن يستقرئ التاريخ يرى ذلك ديدنهم على مختلف الأزمان والأوطان .
- يدخل في حكم الكفر والخروج عن ملة الإسلام ؛ كُلٌّ مِنْ :

ـ من حكم بغير ما أنزل الله ، ويرى أن ذلك أحسن من شرع الله ، فهو كافر عند جميع المسلمين .

ـ وكذلك من يحكم القوانين الوضعية بدلًا من شرع الله ، ويرى أن ذلك جائزًا . وإن قال : إن تحكيم الشريعة أفضل ؛ فهو كافر . لكونه استحل ما حرم الله . وقد سبق تفصيله . وهذا يسمى "كُفر التشريع" من دون الله . وهو من نواقض الإسلام ، قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢]

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، فهي كفْرٌ

=طبعة بولاق ، (٢/٢٢٠)

(١) ينظر : مجموع الفتاوى (٢٨/٦٣٥-٦٣٦)

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٠

بُواح ، لا خفاءَ فيه ، ولا مُداراة [١] .

وقال الشيخ **سفر بن عبد الرحمن الحوالي** -حفظه الله- مؤكدًا هذه الحقيقة : "هذا الحشد من الآيات وأمثالها في القرآن كثير ؛ بل إن موضوعها لهو موضوع القرآن الرئيس ، مع ذِكر ما ذكره العلماء في فهمها من الأقوال ؛ لَيَدُلُّ دلالةً قاطعة على نفْي الإيمان عمن ابتغى غيرَ الله حكمًا في أيةِ قضيةٍ من قضايا الحياة ، والحُكْم عليه بالكفر ، والشرك ، والنفاق ، والجاهلية"[٢]

قال الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- : "إن من الكفر الأكبر لمستبين : تنزيل القوانين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ؛ ليكون من المُنذِرين ، بلسانٍ عربي مبين ، في الحكم به بين العالمين ، والرد إليه عند تنازع المتنازعين ؛ في مناقضةٍ ومعاندةٍ لقوله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[٣] فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبد أصلًا ؛ بل أحدهما ينافي الآخر "[٤]

---

(١) ينظر : عمدة التفسير (١٧٣/٤)

(٢) ينظر : العلمانية (الكويت ، الدار السلفية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ) ص (٦٨٦)

(٣) سورة النساء ، الآية ٥٩

(٤) ينظر : رسالة تحكيم الوانين ، ص (١-٣-٧)

المبحث الثالث

حالات الحكم بغير ما أنزل الله
وخلاصة القول في ترك الحكم بما أنزل الله
والآثار المترتبة على ذلك
وبعض الثمرات المباركة لتطبيق الشريعة

الحال الأولى : المستحلّ ، أو الجاحد للحكم بما أنزل الله . فهذا لا خلاف في كفره الكفر الأكبر ، وإجماع السلف على ذلك . وكفره على كل حال ؛ سواءً حكم بغير ما أنزل الله ، أو لم يحكم ، ما دام جاحدًا .

الحال الثانية : الحاكم بغير ما أنزل ، غير المستحل [1] ؛ لكنه وضع تشريعًا عامًا أو قانونًا عامًا مُلزِمًا ، مخالفا للشريعة . فهذا كما وضحنا في الأدلة القطعية على كفره الكفر الأكبر أيضًا .

الحال الثالثة : أن يحكم الحاكم في واقعة معينة في الحالات الجزئية والحوادث الواقعة بغير ما أنزل الله ؛ لِهَوىً ، مع التزامه بالحكم بما أنزل الله ، وإقراره به ، والاعتراف بشريعة الله . فهذا فاعل لكبيرة ، وكفرُه كفرٌ أصغر ، غير مُخرِجٍ عن الملة .

فهذه ثلاث حالات :

---

(١) إن الاستحلال كفر برأسه ، فعل صاحبه ما أحل من المحرمات ، أم لم يفعل ، ينظر : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، سفر الحوالي ، (القاهرة ، مكتبة طيبة ، ١٤١٧هـ) ، (٧١٢/٢) .

١ـ الاستحلال ، والجحد .

٢ـ التشريع العام ، وتحكيم القوانين العامة من غير استحلال .

٣ـ الحكم في واقعة معينة ؛ لِهَوىً من غير استحلال .

– فأمّا **الحال الأولى** : فلا خلاف عليها ، وكفر صاحبها مجمع عليه .

فأمّا **الحال الثانية** : فقد ذكرْنا الأدلة المتنوعة من الكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة المعتبرين قديمًا وحديثًا على أنّ الحكم في هذه الحالة بكُفْره الكفر الأكبر . لكن بعض المتأخرين خالفوا أهل السنة والجماعة في هذا الحكم ؛ ولا سيما المرجئة منهم .

– وأمّا **الحال الثالثة** : فإن صاحبها لا يكفر الكفر الأكبر ، وإنما هو كفر دون كفر . وهكذا فلم نحكم بكفر جميع من يحكم بغير ما أنزل الله ؛ بل وضحنا القول في ذلك الحكم .

وخلاصة القول في ترك الحكم بما أنزل الله :

أولا : إنّ رفْض المنافقين لحاكمية الله ، هو رفض الإيمان بالكلية . كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١)

وقد وضع الله ﷻ ميزانًا دقيقًا بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق ، فإنه منقاد لحكم الله ، ويرضى به ، ويقول : سمعت وأطعت :

(١) سورة التوبة ، الآيات ٤٧ – ٥٠

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وأما المنافق فصفته الإعراض ، والاستكبار عن حكم الله . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢)

ثانيًا : التحاكم إلى شرع الله ليس لطلب العدل فقط ، وإنما هو في الدرجة الأولى تعبُّدٌ لله ، وحقٌّ للهِ وحدَه ، وعقيدةٌ . فمن تحاكم إلى غير شرع الله من سائر الأنظمة والقوانين البشرية ، فقد اتخذ واضعي تلك القوانين والحاكمين شركاء لله في تشريعه . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (٣)

قال السعدي -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية : " ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ من الشرك والبدع ، وتحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله ، نحو ذلك ، مما اقتضته أهواؤهم ، مع أن الدين لا يكون إلاّ ما شرعه الله تعالى ، ليدين به العباد ، ويتقربوا به إليه ، فالأصل الحجر على كل أحد ، أن يشرع شيئًا ما جاء عن الله ولا عن رسوله ، فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم على الكفر (٤).

---

(١) سورة النور ، الآية ٥١

(٢) سورة النور ، الآية ٤٨

(٣) سورة الشورى ، الآية ٢١

(٤) ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ، مكة المكرمة ، دار طيبة الخضراء ، ١٤١٦هـ ، ص (٧٨٢) .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1]

وذلك لأن الطاعة في التحليل والتحريم من أخص خصائص العبادة ؛ ومِنْ ثَمّ كان كلُّ مَنْ قَبِلَها مِنْ أيِّ عبْدٍ ، فقد اتخذه ربًّا ، وإنْ لم يُصلّ له ، ويتقرب إليه .

ثالثًا : من أنواع الشرك الأكبر : من يجعل لله ندًا في التشريع ، بأن يتّخذه مشرّعًا سوى الله ، أو شريكًا لله في التشريع ، يرتضي حكمه ، ويدين به في التحليل والتحريم ، عبادةً وتقرُّبًا ، وقضاءً ، وفصلًا في الخصومات . أو يستحله ، وإن لم يره دينًا .

وفي هذا يقول تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾[2] وأمثال هذا كثيرٌ من الآيات والأحاديث التي جاءت في الرضا بحكم سوى حكم الله ، والإعراض عن التحاكم إلى حكم الله .

عن عدي بن حاتم ﷺ قال : " أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي ، اطرح هذا الوثن من عنقك ، قال ، فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة هذه الآية : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ قال ، قلت يا رسول الله : إنا لسنا نعبدهم ، فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢١

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣١

ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ ، قال ، قلت : بلى ، قال : فتلك عبادتهم .

وفي رواية ، قلت : يا رسول الله ، أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم ، قال : صدقت ، ولكن كانوا يحلون ما حرم الله فيستحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فيحرمونه " [١]

وروى الطبري -رحمه الله- في تفسير هذه الآية عن حذيفة ﷺ أنه سُئل عن قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، أكانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ، كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا ، استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه ، وفي رواية أنه قال : " أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ، ولا يصلون لهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئًا أحله الله لهم حرموه ، فتلك كانت ربوبيتهم " [٢] .

يقول الشنقيطي -رحمه الله- في كلام واضح صريح : " ومن هدي القرآن للتي هي أقوم ، بيانه أن كل من اتبع تشريعًا غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد ابن عبد الله ﷺ ، فاتباعه لذلك التشريع المخالف ، كفر بواح ، مخرج عن الملة الإسلامية " [٣]

رابعًا :

أمَر الله المؤمنينَ بِرَد كلِّ ما تنازعوا فيه من أصول دينهم وفروعه إلى الله ورسوله، ومن لم يفعل دلّ ذلك على كفره برب العالمين ، ومُرُوقه من

---

(١) ينظر : سنن الترمذي (٢٧٨/٥) ، السنن الكبرى للبيهقي (١١٦/١٠) ؛ وأورده السيوطي في الدر المنثور (١٧٤/٤) ، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى

(٢) ينظر : جامع البيان للطبري (٢١١/١٤ ـ ٢١٢) ؛ السنن الكبرى للبيهقي (١١٦/١٠) .

(٣) ينظر : أضواء البيان (٤٣٩/٣) .

دين المرسلين . **فحكم الله وحدَه شقيقُ عبادة الله وحدَه** . وهما مضمونا الشهادتين . وعلى القيام بهذا المضمون فعلًا وتركًا ؛ جُرّدت سيوف الموحدين للجهاد .

خامسًا :

قسمة الحكم ثنائية : إمّا حُكم الله ، وإمّا حكم الجاهلية ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] دلّت الآية على أن قسمة الحكم ثنائية ، وأنه ليس بعد حكم الله تعالى إلا حكم الجاهلية . وهكذا فإنّ القوانين والدساتير ، والبرلمانات الديمقراطية في زمرة أهل الجاهلية ؛ شاؤوا أم أبوا . بل هم أسوأ حالًا ، وأكْذبُ منهم فعالًا . ذلك أن أهل الجاهلية لا تناقض لديهم في هذا الصدد .

فمن خرج عن حُكم الله وعدل إلى حكم ما سواه من الأحكام الجاهلية ، وجعل ذلك شريعة مقدّمة ، أو مزاحِمةً لشريعة الله ؛ فهو كافرٌ ؛ يجب قتالُه حتى يعود إلى حكم الله ورسوله ، فلا يُحكّم في قليل ولا كثير سواه . **وأي دولة تنتهج هذا النهج تصبح دولة جاهليةً ، كافرةً ، ظالمةً ، فاسقةً ؛ يجب بُغضها ، ومعاداتُها ، وتحْرُم موالاتها** .

سادسًا :

وأخيرًا : يجب أن يُعلم **أن من أعظم الفساد في الأرض التحاكم إلى غير الله ورسوله** . ومِن ثَمّ كان إباء التحاكم إلى الكتاب والسنة دليلًا قاطعًا على الكفر ، والنفاق، والزندقة .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٠

الآثار السيئة المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله :

إن الله ﷻ لم يشرّع لنا إلا ما فيه مصلحة لنا في دنيانا وآخرتنا ، وإنّ شرع الله والتحاكم إلى كتاب الله رحمةٌ للعالمين ، وفيه صلاح البشرية ، وهُدى البرية ، وتقويم النفس البشرية ، وإصلاح النفوس السوية ، وشرح للصدور ، وجلاء للهموم ؛ وذلك لأن منزّل هذا الكتاب ، ومشرّع هذا الشرع هو الله رب العالمين ، الذي خلق الخلق ، ويعلم ما يصلحهم ، فأمرهم به ، ويعلم ما يفسدهم ، فنهاهم عنه . فما يأتمر بأمره إلا كلُّ عاقلٍ رابحٍ ، ناجٍ من النار . وما يُعرض عنه إلا كلُّ غبيٍّ شقيٍّ فاجرٍ ، محرومٍ من الجنة ، هاوٍ في النار -والعياذ بالله- .

وهاهي بعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في واقع الناس :

١ ـ **فساد عقيدة التوحيد بين المسلمين** ، وانتشار مظاهر الشرك في بلاد الإسلام ؛ حيث يُذبح لغير الله ، ويُنذَر ، ويُطلَب جلْب النفع ودفع الضر من الأولياء والصالحين والأموات ، ويتحاكم الناس إلى غير شرع الله ، وأصبح الحكم بالقانون الفرنسي والإنجليزي والأمريكي ، وقوانين البرلمانات والديمقراطية شرعًا يتحاكمون إليه .

٢ ـ **انتشار المذاهب العلمانية ، والباطنية الكفرية بين المسلمين** ، والانتساب لها، والعمل في صفوفها .

٣ ـ **السُّخْرِيَةُ والاستهزاء بشريعة الإسلام** ، وبحقّ من يدعوا إليها ويطبقها في واقع الحياة ؛ بل ويصل الحال في بعض الأحيان إلى السخرية من الله تعالى ، ومن رسوله ﷺ ، ومن القرآن وصحابة رسول الله ﷺ . تعالى الله عما يقول الكافرون علوًا كبيرًا .

٤ ـ ومن أعظم مصائب تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم : **انتكاس راية الجهاد في سبيل الله** ، فأصاب المسلمينَ الذلُّ والصَّغار ، وتسلَّط الكافرون على العباد والبلاد . وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول مفصلًا ، ووضّحنا ثمرات رفع راية الجهاد في حياة المسلمين .

٥ ـ **تعطيل تطبيق الحدود الشرعية** ، كعقوبة ربانية لبعض الذنوب المعاصي ؛ مما أدى إلى الكثير من العواقب الوخيمة منها :

أ ـ **اجتراء الناس على محارم الله ومواقعتهم لحمى الله** . والله يغار أنْ تُنتهك محارمُه ، أو يُعتدى على حماه . فنرى الحوادث والجرائم تكثر بشكل مذهل ، وبنسبة عظيمة متزايدة ؛ وهذا ما يُلمَس واضحًا من خلال الأرقام والإحصائيات الرسمية للجرائم والجنايات ، في الأقطار والبلدان المبتلاة بتلك الأنظمة والقوانين ؛ سواءٌ في البلاد غير الإسلامية ، أو بلاد المسلمين التي تطبق القوانين الوضعية .

ب ـ **انتشار الخوف ، وظاهرة القلق والاكتئاب** ؛ مما ترتّب عليه انتشار العيادات النفسية ، وارتفاع معدلات الانتحار ، والإفراط في تعاطي المسكرات والخمور ، والمخدرات ، والتدخين .

ج ـ **انعدام المحبة والألفة والروح الجماعية في الأسرة والمجتمع** ، وانتشار العداوة والبغضاء ، والأنانية .

د ـ **انقسام المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة** بدرجة كبيرة جدًا في نظام المعيشة ، وارتفاع معدلات الفقر ، والبطالة بين الناس .

٦ ـ **إهمال الشعائر الإسلامية** ، وعدم الحرص على إقامتها بين الناس ، كالصلاة عمود الدين . فترى أعدادًا لا حصر لها من المسلمين لا يدخلون المساجد ؛ بل لا علاقة لهم بالصلاة أصلًا ، ولا يؤخذ على أيديهم . وكذلك

الزكاة ؛ فقد عُطِّلت ، ولم تقُم الحكومات على جمعها وتوزيعها على مصارفها الشرعية ؛ حتى تعنّف تاركها ومانعَها ، فضلًا عن قتاله ، كما فعل الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ مع مانعي الزكاة. وكذلك بالنسبة إلى فريضة الصيام في شهر رمضان ، فما أكثر الذين يجهرون بالإفطار نهارًا ! ولا من أنْ يُؤخذ على أيديهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٧ ـ **عدم الاستقرار ، والتفرّق والاختلاف ، والتنازع** . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "وإذا خرج وُلاة الأمور عن الحكم بغير ما أنزل الله ، وقع بأسُهم بينهم . وقال النبي ﷺ : (**ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم**) وهذا من أعظم أسباب تغيّر الدول ؛ كما جرى مثل هذا مرّةً بعد مرّةٍ في زماننا ، وغير زماننا .

ومن أراد اللهُ سعادتَه جعله يعتبر بما أصاب غيره ، فيسلك مسلك مَن أيّده الله ونصره ، ويجتنب من خذله وأهانه ؛ فإن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1] فقد وعد الله بنصْر مَنْ ينصره . ونَصْرُه هو نَصْرُ كتابِهِ ، ودينِه، ورسوله ؛ لا نَصْرُ من يحكم بغير ما أنزل الله ، ويتكلّم بما لا يعلم"[2].

وهذه بعض الثمرات المباركة لتطبيق الشريعة الإسلامية :

١ ـ إذا استعرضنا ثمرةً واحدةً من ثمرات تطبيق الشريعة الإسلامية ؛ وهي : إقامة الحدود الشرعية ، التي هي في الحقيقة حلقة من حلقات هذا

(١) سورة الحج ، الآيتان ٤٠- ٤١

(٢) ينظر : مجموع الفتاوى (٣٥ / ٣٨٨)

المنهج الرباني لتطهير المجتمع من الشرك والفساد والانحلال ، ومن الظلم والغي والضلال ، ومن انتهاك حقوق الإنسان . فإنّنا سنلحظُ الآتي :

- إن تطبيق الحدود ليس قسوة ، كما يزعم أعداءُ الله ؛ بل رحمةٌ كلُّها. وما أروع ما قاله **ابن القيم -رحمه الله-** وهو يبين عظَمَة الشريعة الإسلامية ، فيقول : "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ، ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدْلٌ كلُّها ، ورحمةٌ كلُّها ، ومصالحٌ كلُّها ، وحِكْمةٌ كلُّها . فكلُّ مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة ، وإن أُدخلت فيها بالتأويل . فالشريعةُ : عدْلُ الله بين عباده، ورحمتُه بين خلقه" [١] .

- هذا فضلًا عن أنّ إقامة الحدود تُعدُّ نوعًا من العبادة لله تعالى ، بامتثال أمره ، والاحتكام إلى شرعه . هذه العبادة هي الغاية السامية ، التي من أجلها خلق الله الإنس والجن . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٢]

ومن المقرر الذي لا منازعة فيه : أن في إقامة الحدود :

ا ـ حمايةً للأنفس ، وحماية للأموال وممتلكات المسلمين . فيتحقق الاحترام لحق الحياة ، وحق الدّماء .

ب ـ صيانةً وحفظًا للأنساب ، وطهارةً للأعراض .

---

(١) ينظر : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم ، تحقيق : طه عبد الرؤوف ، (بيروت ، دار الجيل ، د.ت) ، (١٤/٣)

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٦

ج ـ وقايةً للعقل من الخَلل ، وللأخلاق من الفساد .

د ـ تقديسًا للدين ، ولما أمر الله أن يُقدّس ، ويُصان .

هـ ـ أمْنًا وأمانًا للمجتمع المسلم قاطبةً ؛ فيصبح المجتمع مستقرًا هادئًا ، لا قلاقلَ فيه ، ولا اضطراب .

و ـ هذا علاوةً على أن تطبيق الحدود على المجرمين رحمةٌ لهم ؛ لأنها كفّارة لهم من هذه الجريمة ، وردعًا لمن وقعت منه الجريمة .

ومن الثمرات المباركة لتطبيق الشريعة الإسلامية :

٢ ـ القضاء على الجريمة والإجرام . ومتى قُضي على الجريمة ، أو اختفت ؛ فإن الأمر يستقر ، وتتوفّر في البلاد روح السكينة والطمأنينة . وحينما يقل الإجرام والجرائم تتوفّر أيدٍ عاملةٌ ، تتوجه إلى الإنتاج ، بدل أن كانت تنجر إلى الإفساد والعدوان . وبذلك يعمّ الرخاء ، وتتسع أرزاق البلاد . وفي هذا تصديقٌ واقعي لما يُفهم من أن إقامة الحدود خير للبلاد والعباد من أن يُمطروا أربعين صباحًا[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2]

قال السعدي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " إن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا ، صدقته الأعمال ، واستعملوا تقوى الله تعالى ،

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (حدٌ يُعمل به في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحًا) ، ينظر : مسند أحمد (٣٦٢/٢) حديث رقم (٨٧٢٣) ؛ سنن ابن ماجة (٨٤٨/٢) ح (٢٥٣٨) .

(٢) سورة الأعراف ن الآية ٩٦

ظاهرًا وباطنًا ، بترك جميع ما حرم الله ، لفتح عليهم بركات من السماء والأرض ، فأرسل السماء عليهم مدرارًا ، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون ، وتعيش بهائمهم في أخصب عيش وأغزر رزق ، من غير عناء ولا تعب ولا كد ولا نصب "[١] .

وقال تعالى : ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[٢]

٣ ـ تَسعد الأُمّة حكامًا ومحكومين باستجابتها لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ وبحياةٍ طيبة لها . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٣] .

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " أي يُحيي دينكم ويعلمكم ، وقيل : إلى ما يحيي به قلوبكم ، فتوحدوه ، وهذا إحياء مستعار ، لأنه من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى : استجيبوا للطاعة ، وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ، ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية . وقيل : المراد بقوله : ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ الجهاد ، فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا لم يُغزَ غَزا ، وفي غزوه الموت ، والموت في الجهاد الحياة الأبدية ، قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٤] ، والصحيح ، العموم كما قال الجمهور [٥].

---

(١) ينظر : تيسير الكريم الرحمن ، ص (٢٨٤) .

(٢) سورة الجن ، الآية ١٦

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٤٧/٧) .

الفصل السادس

أسلوب تشكيك الناس بصدق النبي ﷺ ومخالفة أمره ،
ومحاولة اغتياله ﷺ

وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : **أسلوب التشكيك بصدق النبي ﷺ ، ومخالفة أمره .**
- المبحث الثاني : **أسلوب محاولة اغتيال النبي ﷺ عند عودته من تبوك .**

المبحث الأول

أسلوب التشكيك بصدق النبي ﷺ ومخالفة أمره

المطلب الأول : تشكيكهم الناس في صِدق النبي ﷺ يوم تبوك :

استغل المنافقون الحوادث لتشكيك المؤمنين بصدق نبيهم ﷺ . ومن ذلك : ما كان منهم في غزوة تبوك ، فقد كانوا يشكّكُون في سَيْر الحَدَثِ قبل بدء المواجهة ، وأثنائها ، وبعدَها ؛ بقصْدِ إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين . فمن ذلك : التشكيك في صِدق النبي ﷺ فيما يُخبِر به .

ومن هؤلاء المشككين في خبر النبي ﷺ وما ينزل عليه من الوحي : (الجلّاس ابن سويد بن الصامت) فقد كان ممن تخلّف عن غزوة تبوك ، فقال : إن كان ما جاء به محمد حقًّا ، لنحن أشرُّ من الحُمُر ! فقال له ابن امرأته : والله يا عدو الله ، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلتَ ، فإنّي إنْ لا أفعل أخافُ أن تصيبَني قارعة ، وأؤاخَذ بخطيئتك . فدعا النبي ﷺ جلّاسًا ، فقال : (**يا جلّاسُ ، أقلتَ كذا وكذا ؟**) فحلف بالله ما قال . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾[1]

وفي رواية ابن كثير -رحمه الله- : فسمعها عمير بن سعد ، فقال : والله يا جلّاس ، إنك لأحبُّ الناس إليَّ ، وأحسنهم عندي بلاءً ، وأعزهم عليَّ أن يَصِلَه شيءٌ يكرهه ، ولقد قلتَ مقالةً لئن ذكرتُها لتفضحني ، وإنْ كتمتها لتُهلِكني ، ولأحدُهما أهون عليَّ من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلّاس ، فلما بلغ ذلك الجلّاسَ ، خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلفَ بالله ما قال . قال عمير بن سعد : كذبتَ عليَّ . فأنزل الله تعالى :

(١) يُنظر : جامع البيان للطبري (١٠/١٨٥) ، الآية ٧٤ من سورة التوبة

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾[١] .

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ ، قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح ، وقيل : ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ قول الجُلاّس : إن كان ما جاء به محمد حقًا ، لنحن أشر من الحمير . وقال القُشيري : ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ سب النبي ﷺ ، والطعن في الكلام . ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ أي بعد الحكم بالإسلام . فدل هذا على أن المنافقين كفار ، وفي قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾[٢] دليل قاطع[٣]

وهذه الروايات تحكي قصةً واحدة في ما يبدو .

لقد كان موقف عمير بن سعد ﷺ عظيمًا في تبيانه الولاء الصادق لله ورسوله ﷺ، ولهذا الدين العظيم . وكأن الجلاس لم يهتم بذلك اليتيم الذي ربّاه في حجره لصغر سنه ، أو كأنّه رأى أنّ أثر نعمته عليه سيمنعه من الإساءة إليه ، وإلحاقِ الضرر به ، فتكلم بذلك الكلام القبيح وهو يسمع .

لكن عمير بن سعد ﷺ الذي رسَخ الإيمان في قلبه ، أعطى مثالًا عظيمًا لأصل الولاء والبراء ، الذي أخلّ به كثير من المسلمين اليوم ، فهم يداهنون أعداءَ الله على حساب عقيدتهم ، والله تعالى يقول : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٣٩٧/٢)

(٢) سورة المنافقون ، من الآية ٣

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٣١/٤) ؛ فتح القدير للشوكاني (٥٤٤/٢) ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٠٥/٢) .

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1]

إنّ عمير بن سعد ﷺ قد رأى مراقبةَ الله أَوْلى من مراقبة المؤمنين ، وأنّ مِن واجبه أن يُرضِيَ اللهَ ولو سخط عليه أقرب الناس إليه ، الذي ربّاه في حجره ، وأضفى عليه من نعمته . لقد وازَن ﷺ بين فضيحته بإنكار المنكر الذي تضمّن كشْف سِتْر مَن أحسن إليه، وبين هلاك الآخرة بكتمان الأمر ، والسكوت عن المنكر ؛ فرجَّحَ النجاة من هلاك الآخرة ؛ لأنها هي الباقية ، وأخبرَ النبيَّ ﷺ بمقالة الجلّاس بن سويد .

وهذا مثل رائع من أمثلة الولاء والتقوى ، يضربه للناس ، ذلك الصحابي الجليل، وقد كان آنذاك غلامًا ، وأصبح فيما بعد عَلَمًا من أعلام المسلمين . فعلينا أن نتربّى ، ونربي أولادنا على عقيدة الولاء والبراء في جهاد الكافرين والمنافقين ، منذ نعومة أظفارهم .

إن تشكيك المنافقين المؤمنين ؛ لِهزّ ثقتهم بإيمانهم بالله ورسوله ﷺ ، ووعده تعالى ووعيده ؛ يؤكّد أن حياةَ المنافقين كلَّها ، وطبيعتهم التي هم عليها ، ومكائدَهم ، ودسائسَهم ، ومؤامراتِهم التي قاموا بها حربًا للإسلام والمسلمين ؛ هي في حقيقتها معركة التشكيك في الإسلام .

يقول الشيخ الشعراوي -رحمه الله- : "إن الإسلام خرج من معركته مع المشركين منتصرًا ، ومع المسيحية منتصرًا ، ومع اليهود منتصرًا ، ولكنَّ

(١) سورة المجادلة ، الآية ٢٢

عنصرًا وُجد في الإسلام جاءتنا منه المتاعب ، وهو عنصر النفاق ، فقد دخل الإسلامَ قومٌ نفاقًا ؛ ليتمتعوا بامتيازاته ، وقلوبهم مع أديانهم ، أو مع قومياتهم، فدسّوا في الإسلام كثيرًا من الأشياء كانت هي خميرة المشكلات للإسلام إلى الآن"[١] .

لقد أدى وجود المنافقين في صفوف المسلمين إلى أن يكونوا حذرين دومًا ، يقظين أبدًا ، وهذا ما جعلهم ينتصرون على أعدائهم في الخارج ؛ بل (وهذا هو الأهم) مكّنهم من تقرير وحدتهم الداخلية ، ورصّ صفوفهم ، وتذويب الأجسام الغريبة ، أو شلّها ، أو طردها ؛ كي لا تدمّر المجتمع الجديد وتخرّبه من الداخل .

إنّها حكمة الله في أن يُوجد في كيان المسلمين ما يتحدّاهم من الداخل دومًا ، ويدفعهم إلى الاستجابة والإبداع . وحِكمةُ رسول الله ﷺ التي تَسَعُ وتتّسع لكل حالة ، وتُجابِهُ كل وضْعٍ ؛ بعيدًا عن الجمود [٢] .

المطلب الثاني : اتهامهم النبي ﷺ بالكذب في خبر السماء :

ومما جرى من المنافقين في هذه الغزوة : اتّهامُهم رسولَ الله ﷺ بالكذب في خبر السماء ، حين ضلّت ناقتُه ﷺ ، ولم يدرِ أين هي ؟.

روى ابن هشام عن ابن اسحاق قال : "ثمّ إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان في بعض الطريق ضلّت ناقته ، فخرج أصحابُه في طلبها ، وعند

(١) ينظر : معركة التشكيك في الإسلام ، الشعراوي ، محمد متولي ، (الموصل ، مكتبة بسام ، ١٩٨٨م) ، (ص ٣٤)

(٢) ينظر : دراسة في السيرة النبوية ، عماد الدين خليل ، (ط٧، الموصل ، مطبعة الزهراء الحديثة ، ١٩٨٣م) (ص٣٦٩)

رسول ﷺ رجلٌ من أصحابه يقال له عمارة بن حزم[١] وكان عقبيًا بدريًا ، وهو عمّ بني عمرو ابن حزم ، وكان في رَحْله زيد بن اللّصيت القينقاعي ، وكان منافقًا . فقال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمدٌ يزعم أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ؟! وهو لا يدري أين ناقته !

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عندَه : (**إن رجلًا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبي ، ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته . وإني والله ما أعلم إلا ما علّمني الله ، وقد دلّني الله عليها ، وهي في هذا الوادي في شِعب كذا وكذا ، وقد حبستها شجرة بزِمامها ، فانطلِقُوا حتى تأتوني بها**) فذهبوا فجاءوا بها .

فرجع عمارة بن حزم إلى رَحْلِه فقال : والله لعجبٌ من شيءٍ حدَّثَناهُ رسول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبرَه اللهُ عنه بكذا وكذا (للذي قال زيد بن اللّصيت) فقال رجل ممّن كان في رَحْل عمارة ، ولم يحضرْ رسولَ الله ﷺ : زيد –واللهِ– قال هذه المقالة قبل أن تأتي . فأقبَلَ عمارة على زيدٍ يجأُ[٢] في عنقه ويقول : إلَيَّ عبادَ الله ، إنّ في رحلي لداهية ولا أشعر ، أخرجْ عدو الله من رحلي ، فلا تصحبني"[٣] .

ومن هذه الحادثة نُدرك كيف كان المنافقون يستغلّون الفُرَص لتشويه

---

(١) النجاري ، الأنصاري . شهد العقبة وبدرًا والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ ، استشهد في موقعة اليمامة سنة (١٢هـ) ، ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٨٦) ؛ الاستيعاب (١١٤١/٣) الإصابة (٢/ ٥١٣)

(٢) وجأ مقصور ، اللكز ، ووجأه باليد والسكين ، ضربه ، ووجأت في عنقه ، ضربته ، ينظر : لسان العرب (١٩٠/١) .

(٣) ينظر : السيرة النبوية (٢٠٣/٥) ؛ تاريخ الطبري (١٨٤/٢)

دعوة النبي ﷺ وصدّ الناس عن الإيمان به واتّباعه ؛ لكن سَرعان ما ينزل الوحي كاشفًا أمرَهم ، مُحبِطًا مساعيهم الخبيثة .

المطلب الثالث : مخالفةُ المنافقين أمرَ النبي ﷺ عام تبوك :

إنّ طاعة أوامرِ النبي ﷺ وتنفيذها من أبرز صفات المؤمنين ، وإن مخالفةَ أوامره ﷺ من أعظم صفات المنافقين ، فقد بيّن الله ﷻ بأن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة للهِ بحد ذاتها ، ومعصية الرسول ﷺ هي معصيةٌ لله ، وحذّر ﷻ من مخالفة أوامر النبي ﷺ . فقال ﷻ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾(١) وقال ﷻ: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾(٢)

وقال ﷻ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾(٣)

وقال ﷻ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾(٤)

وقال ﷻ : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ

(١) سورة النساء ، الآية ٨٠

(٢) سورة النور ، الآية ٥٤

(٣) سورة محمد ، الآية ٢٢

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٧١

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾(١)

وقال ﷻ : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢)

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكلُّها تدل على وجوب طاعته ﷺ ، واتباع ما جاء به ، وتحريم مخالفة أمره . ففي هذه الآيات الدلالة الواضحة على أن الهدايةَ والرحمةَ في طاعة أمره ﷺ ، والوقوعَ في الكفر والفتنِ والعذاب في معصيته ﷺ .

وبيَّن الله تعالى عِظَم معصيته ﷺ ، فقال ﷻ : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣)

أمْرُ رسول الله ﷺ هو : سبيلُه ، ومنهاجُه ، وطريقتُه ، وسُنّتُه ، وشريعتُه. فتُوزَنُ الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِل ، وما خالفَه فهو مردودٌ على قائله ؛ كائنًا من كان .

فليحذرْ مَنْ خالف أمر الرسول ﷺ وشريعتَه وسُنَّتَه باطنا وظاهرًا : ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، أي : في قلوبهم ؛ مِنْ كُفْرٍ ، أو نفاقٍ ، أو بدعةٍ : ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، أي : في الدنيا ؛ بقَتْلٍ ، أو حدٍّ ، أو حبْسٍ ، أو نحو ذلك .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٧١

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٢

(٣) سورة النور ، الآية ٦٣

قال الشوكاني -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى : ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيجب امتثال أمره ، وتحرم مخالفته ، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن ، وقيل : هي القتل ، وقيل : الزلازل ، وقيل : تسلط سلطان جائر عليهم ، وقيل : الطبع على القلوب " [(١)] .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في وجوب طاعته واتباع ما جاء به وتحريم معصيته . ويشملُ ذلكَ مَنْ كان في عصره ، ومَنْ يأتي من بعده إلى يوم القيامة . ومن ذلك : قوله ﷺ : (**من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله**)[(٢)]

وقال ﷺ : (**كُلُّ أمتي يدخلون الجنةَ ، إلا من أبى**) قيل : يا رسول الله ، ومن يأبى؟ قال : (**من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى**)[(٣)]

وتكون طاعة رسول الله ﷺ بتحقيق ثلاثة أمور ؛ هي :

١ـ الإيمان بما به أخبر .

٢ـ طاعته فيما أمر .

٣ـ الانتهاء عما نهى عنه وزجر ، ولا نعبد الله إلا بما شرع .

---

(١) ينظر : فتح القدير (٧٩/٤) ؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢١٢/٦) ؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٢١/٣) .

(٢) ينظر : صحيح البخاري (٣/ ١٠٨٠) حديث رقم (٢٧٩٧) ؛ صحيح مسلم (١٤٦٦/٣) حديث رقم (١٨٣٥) ؛ السنن الكبرى للنسائي (٢٢٢/٥) حديث رقم (٨٧٢٧) سنن ابن ماجه (٤/١) حديث رقم (٣)

(٣) ينظر : صحيح البخاري (٢٦٥٥/٦) حديث رقم (٦٨٥١) ؛ صحيح ابن حبان حديث رقم (١٧)

فهذه الأمور الثلاثة هي مقتضى شهادة (وأن محمدًا رسول الله) وهي أصل الإسلام والإيمان ، ومن لم يلتزم بهذه الأمور الثلاثة أو بواحد منها فقد وقع في الكفر والنفاق ؛ كما وقع المنافقون في غزوة تبوك .

ففي غزوة تبوك برزت صفة مخالَفة المنافقين أوامرَ النبي ﷺ بشكلٍ واضح . روى ابن هشام عن ابن اسحاق قال : "وكان في الطريق ماءٌ يخرُج مِن وَشَلٍ[١] ما يَروِي الراكبَ والراكبينِ والثلاثة ، بوادٍ يقال له وادي المشقق ، فقال رسول الله ﷺ : (**مَنْ سَبَقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقينّ شيئًا حتى نأتيه**) قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين ، فاستقُوا ما فيه ، فلما أتاهُ رسول الله ﷺ وقف عليه فلم يرَ شيئًا ، فقال : (**مَن سبَقَنا إلى هذا الماء؟**) قالوا : فلان وفلان، فقال : (**أَوَلَمْ أَنْهَهُم أن يَسْتَقوا منه شيئًا حتى آتِيَه؟**) ثم لعنهم رسول الله ﷺ ، ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يدَه تحت الوشل فجعل يصبُّ في يده ما شاء اللهُ أن يصبّ ، ثم نضحه به ومسحَه بيده ، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق منه الماءُ (يقولُ مَن سَمِعَه : إنّ له حسًا كحس الصواعق) فشرب الناس ، واستقَوْا حاجتَهم منه . قال رسول الله ﷺ : (**لئن بَقِيتُم -أو : مَن بَقِي منكم- لتسمعُنّ بهذا الوادي وهو أخصبُ ما بين يديه وما خلفَه**)[٢] وفي روايةٍ (وهو يخاطب أحدَ أصحابه) : (**إنْ طالتْ بك حياةٌ أنْ ترى ما ههنا قد مُلِئ جِنانًا**) [٣] .

إن هذه الأحداث تكشف مدى عداوتهم للإسلام وأهله ، فقد ظهرت

---

(١) الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، يقطر منه قليلًا قليلًا ، ولا يتّصل قطْرُه . ينظر : النهاية (١٨٨/٥) ؛ لسان العرب (٧٢٥/١١)

(٢) ينظر : السيرة النبوية (٢٠٨/٥) ؛ تاريخ الطبري (١٨٥/٢)

(٣) ينظر : زاد المعاد (٥/٣)

بسببها على يد رسول الله ﷺ معجزاتٌ تقف شاهدًا على صِدْقِه فيما يخبر به عن الله ، وإنّ فيها لعبرةً لمن أراد أن يعتبر ، وإقناعًا لِمَن أراد أن يقتنع . ولكن المنافقون لا يفقهون - كما قال ﷻ- . وإن هذه الأحداث قد جرت على أيدي فئة قليلة ، فكيف لو خرجوا جميعًا ، وفيهم ساداتُهم ؛ كعبد الله بن أُبيّ ابن سلول ، والجد بن قيس ؟! وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية : " هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم ، والخبال : الفساد والنميمة ، وإيقاع الاختلاف والأراجيف ، وقوله تعالى ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ ، المعنى : لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد والإيضاع ، سرعة السير ، والخلل ، الفرجة بين الشيئين ، والجمع ، الخلال ، أي الفُرج التي تكون بين الصفوف ، أي لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين ؛ ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ ، المعنى ، يطلبون لكم الفتنة ، أي الإفساد والتحريف ، وقيل : الفتنة هنا الشرك " [2] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٧

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٤/١٠٠) .

المبحث الثاني
أسلوب محاولتهم اغتيال النبي ﷺ عند عودته من تبوك

لقد تَوَّجَ المنافقون مكائدَهم المتتالية للإسلام ، بمحاولة قتْلِ النبي ﷺ؛ وذلك في طريق عودته منتصرًا غانمًا ، قد أرهب الروم ، وأدخل الرعب في نفوسهم وطهَّر عسكريًا جميع الجيوب المناوئة للإسلام في الشريط الشمالي للجزيرة العربية

وهذه الحادثة تدلُّنا على أنّهم بذلوا كُلَّ ما في وسعهم ؛ من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين ، وذلك بمحاولةِ إهلاك النبي ﷺ بعدما حاولوا صرْف الناس عن الدين بمختلف الوسائل ، فباءتْ محاولاتُهم كلُّها بالفشل ، وظهرَ أمْرُ الله وهم كارهون .

وفي العودة من تبوك ، ارتكب الباطنيّون المنافقون المندسون في الجيش النبوي أكبرَ حماقة في تاريخ المتاعب التي كانوا يثيرونها ضد النبي ﷺ وأصحابِه ؛ إذْ حاولوا هذه المرة ارتكابَ أكبرِ جريمةٍ في التاريخ ، وهي : اغتيالُ النبي ﷺ بأسلوبٍ جبانٍ ماكرٍ خبيثٍ ، لا يُتقِنُه إلا المنافقون الجبناء .

فقد وضع المنافقون المتآمرون خِطَّةً خبيثةً للتخلُّص من الرسول ﷺ ، وكان هؤلاء المنافقون قد وضعوها على أساس أنها لو نجحت ستبدو وكأنّها قضاءٌ وقدرٌ ؛ لأنّ ما قرّر هؤلاء المنافقون أن يكونَ وسيلةً لقتْل النبيّ ﷺ له نظائر تحدث لأفراد آخرين. فلم يقرّر المنافقون وهم يضعون خطة الاغتيال ، أن يقتلوا النبي ﷺ بسيف ، أو رمحٍ ، أو سهمٍ . وإنّما قرروا زيادةً في الكتمان أن يكون قتْلُه عن طريق نفور الناقة التي كان يركبها ، فتُرْدِيهِ في وادٍ سحيق ، بحيث لا يكون هناك مجالٌ لاتّهام أحدٍ بقتله .

كيف فشلت خطة المنافقين في محاولة الاغتيال ؟

كانت خطة المنافقين للاغتيال قابلةً للنجاح بسهوله ، لو أنّ الجيشَ كُلَّه سلك الطريق الذي كان من المقرر أن يسلكَها ، وهي عَقَبَةٌ تُشْرِفُ على وادٍ سحيقٍ .

فقد علم المنافقون أنّ الآلافَ من راكبي الخيل والإبل سيتزاحمون حول رسول الله ﷺ في هذه العقبة الخَطِرَةِ . ومن السهل على فئةٍ قليلة من الرجالِ الازدحامُ حول الناقة التي يركبها رسول الله ﷺ لتنفيذ المؤامرة ، بحيث يتمكّنون في ظلامِ الليل وفي غمرة الزحام من العمل بأية وسيلةٍ لإسقاط النبي ﷺ مِنْ على ظهر ناقته إلى الوادي للتخلص منه . فيبدو الأمرُ وكأنّه قضاءٌ وقدرٌ .

وهذا هو الذي استقر عليه رأي المنافقين، وهم يضعون خطة الاغتيال . إلا أن النبي ﷺ بَلَغَهُ خبرُ المؤامرة في اللحظات الأخيرة ، فعمَد إلى إحباط المؤامرة ، فأصدر أمرَه للجيش كلِّه بأن يغيّر اتّجاهَ سَيْرِه ، فيسلكَ الوادي ، بدلًا من أن يسلكَ العقبة . ثم سلكَ رسولُ الله ﷺ العقبة ومعه ثلاثة نفرٍ من أصحابه ، وهم : عمار بن ياسر[١] ، وحذيفة بن اليمان ، وحمزة بن عمرو الأسلمي[٢] رضي الله عنهم .

---

(١) العنسي ، حليف بني مخزوم . كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وشهد معركة اليمامة ، ثم استعمله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة ، وشهد مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه صفين ، فقتل بها سنة (٣٧هـ) وكان عمره (٩٣) سنة ، ينظر : طبقات ابن خياط ، ص (٢١) ؛ الطبقات الكبرى(٣/ ٢٤٦) ؛ الاستيعاب (٣/ ١١٣٥) ؛ الإصابة (٥١٢/٢)

(٢) صحابي جليل ، روى عن النبي ﷺ ، مات سنة (٦١هـ) بالمدينة ، ينظر : الطبقات=

وهنا بدا وكأنّ محاولة المنافقين قد فشِلتْ نهائيًا ؛ لأن عناصر هؤلاء المنافقين لا المكلفة بالاغتيال لا تستطيع تنفيذه هذه الخطة ؛ ذلك أن انفصال هذه العناصر من الجيش تثير حولهم الشّكُوك والرِّيَب ، وتجعلُهم من المتعمدين مخالفة أوامر النبي ﷺ . ولكن هؤلاء المنافقين لم ييأسوا ، فقد مضوا في مخطّطهم ، فاغتنموا فرصة ظلام الليل الذي سيكون مخيِّمًا عندما يمر النبي ﷺ بالمكان الخَطِرِ من العَقَبَةِ ، الذي قرروا أنْ تتمّ عملية الاغتيال فيه ، فوضعوا مخطّطًا جديدًا لاغتيال رسول الله ﷺ .

وهذا المخطط الجديد يتلخص في ما يأتي :

١- أنْ يُنتدَبَ ثلاثة عشر من هؤلاء المنافقين للمهمّة .

٢- عليهم ألّا يباشروا المؤامرة إلا إذا خيّم الظلام .

٣- عليهم أن يتلثموا عند الشروع في المؤامرة ؛ لئلا يتمكن أحدٌ من معرفتهم .

٤- عليهم أن ينصبوا كمينهم في المكان الخَطِر من العقبة .

٥- عليهم أن لا يستخدموا لتنفيذ الاغتيال أيّ سلاحٍ ؛ مِن رُمح ، أو سيف ، أو نَبْلٍ .

٦- عليهم إذا مَرّ النبي ﷺ بهم في المكان الخَطِر المحدَّد من العَقَبَةِ ، أن يزْحَمُوا جميعُهم ناقتَهُ بِرِكَابِهِمْ ، ويلجئُوها إلى حافة الوادي ، ثم يقطعون أنساع[1] رَحْلِها في الظلام ؛ حتى يقع النبي ﷺ عنها في الوادي فيموت [1] .

=الكبرى ٣١٥/٤) ؛ معجم الصحابة (١٦٦/١)

(١) سَيْرٌ مظفور يُجعل زمامًا للبعير وغيره ، وقد يُنسج عريضًا ، يُجعل على صدر البعير يُشَدُّ به الرَّحْل . ينظر : النهاية (٤٧/٥) ؛ لسان العرب (٣٥٣/٨)

وعلى أساس هذه الخطة شرع المنافقون في المؤامرة الخبيثة الجديدة؛ إلا أن رسول الله ﷺ اكتشفهم عند شروعهم في المؤامرة ، فأحبطها، حين أمر حذيفة بن اليمان ﷺ بمهاجمتهم ، فهاجمهم حذيفة ﷺ . ولما كانوا لا يريدون أن يعرفهم أحد ، هربُوا ، وما زالوا يوغلون في الهرَب حتى دخلوا في سواد الجيش في الوادي ؛ لئلا يعرفهم أحد [٢]

قال الواقدي يصف المؤآمرة :"ولمّا كان رسول الله ﷺ ببعضِ الطريق مَكَرَ به ناسٌ من المنافقين ، وائتمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق . فلمّا بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة ، أرادوا أن يسلكوها معه ، فأُخبِر رسولُ الله ﷺ خبرَهم ، فقال للناس : (**اسلكوا بطْنَ الوادي ، فإنّه أسهل لكم وأوسع**) فسلك الناسُ بطن الوادي ، وسلك رسولُ الله ﷺ العَقبةَ ، وأمر عمّار بن ياسر ﷺ أن يأخذُ بزمام الناقة يقودُها ، وأمر حذيفة بن اليمان ﷺ أن يسوقَ مِنْ خَلْفِه .

فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سَمِعَ حِسَّ القوم قد غَشَوْهُ ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة ﷺ أنْ يَرُدَّهم ، فرجع حذيفةُ إليهم ، وقد رأوا غضب رسول الله ﷺ ، فجعل يضربُ وجوهَ رواحلهم بِمِحْجَنٍ في يده ، وظنّ القوم أن رسول الله ﷺ قد اطَّلع على مكرهم ، فانحطّوا مسرعين من العقبة حتى خالطوا الناس ، فقال النبي ﷺ: (**يا حذيفة ، هل عرفت أحدًا من الركب الذين رددتهم ؟**) قال : يا رسول الله ، عرفت فلانًا و فلانًا ، وكان

---

(١) ينظر : موسوعة الغزوات الكبرى ، باشميل ، محمد أحمد ، (جدة ، ١٣٩٥هـ) ، (١٢٧/١٠)

(٢) ينظر : زاد المعاد (١٧.١٦/٣) ؛ البداية والنهاية (٢١.١٩/٥) ؛ إمتاع الأسماع (ص٤٧٧-٤٧٨)

القوم ملثمين ، فلم أُبْصِرْهم في ظُلمة الليل[١] .

وكان هؤلاء المتآمرون قد نجحوا نجاحًا جزئيًا عندما شرعوا في مؤامرتهم الخبيثة ؛ إذ تمكّنوا من أن يزعجوا ناقة رسول الله ﷺ حتى نفرت به، وسقط بعضُ متاع رحْلِه ، ولكنه هو ﷺ لم يسقط .

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة ، إلا أنه ذكر أنّ النبي ﷺ ، إنما أَعْلَمَ حذيفة ﷺ بأسمائهم وحدَه . وهذا هو الأشبه . ويشهد له قول أبي الدرداء ﷺ لعلقمة[٢] صاحبِ عبد الله بن مسعود [٣] ﷺ : أليس فيكم -يعني أهل الكوفة- صاحبُ السواد والوساد ، يعني ابن مسعود ، أليس فيكم صاحب السرّ الذي لا يعلمه غيره ، يعني حذيفة ، أليس فيكم الذي أجاره الله على لسان محمد ﷺ ، يعني عمارًا !

قال ابن كثير رحمه الله : ورَوَيْنا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لحذيفة : أقسمت عليك بالله ، أنا منهم ؟ قال : لا ، ولا أبريء

---

(١) ينظر : المغازي (١٠٤٢/٣-١٠٤٣)

(٢) أبو شبل ، علقمة بن قيس بن عبد الله ، النخعي ، الكوفي ، فقيه العراق . وُلِد في حياة النبي ﷺ ، وصحب عبد الله بن مسعود ﷺ ، وكان من أنبل أصحابه . مات سنة (٦٢هـ) ينظر : مشاهير علماء الأمصار ، ابن حبان ، تحقيق فلاشهيمر ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٥٩م) (ص١٠٠) ؛ تذكرة الحفاظ (٤٨/١)

(٣) أبو عبد الرحمن الهذلي ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه الذي يتولى شأن فراشه ونعليه ، وأحد السابقين الأولين ، ومن كبار أصحاب بدر ، ومن نبلاء الفقهاء ، والمقرئين ، أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة ليُعلّم أهلها ، ثم قدم المدينة سنة (٣٢هـ) ومات بها في السنة نفسها . يُنظَر : طبقات ابن خياط ، ص (١٦) ؛ الطبقات الكبرى (١٥٠/٣) ؛ الاستيعاب (٩٨٧/٣) ؛ الإصابة (٣٦٨/٢)

بعدك أحدًا . يعني : حتى لا يكون مفشيًا سِرّ النبي ﷺ [1]

وقد كانوا أربعة عشر رجلًا . وقيل : كانوا اثني عشر رجلًا . وذكر ابن إسحاق[2] أن رسول الله ﷺ بعث إليهم حذيفة بن اليمان ﷺ ، فجمعهم فأخبرهم رسول الله ﷺ بما كان من أمرهم ، وبما تمالؤوا عليه . ثم سرد ابن إسحاق أسماءهم ، وقال : وفيهم أنزل الله ﷻ ژ ٹ ٹ ٹ ٹژ .

وأوضح الروايات وأشملها وأقواها ، ما ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره وهذا نصه " وقد ورد أن نفرًا من المنافقين همّوا بالفتك بالنبي ﷺ ، وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلًا ، قال الضحاك :فيهم نزلت هذه الآية ؛ وذلك بيّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (دلائل النبوة) من حديث محمد بن إسحق عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوق الناقة ، أو أنا اسوقه ، وعمار يقوده ، حتى كنا بالعقبة ، فإذا أنا باثني عشر راكبًا قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم ، فولّوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ هل عرفتم القوم ؟ ، قلنا : لا يا رسول الله ، قد كانوا ملثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب ، قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ ، قلنا : لا ، قال : أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة ، فيلقوه منها ؛ قلنا : يا رسول الله ، أفلا نبعث إلى عشائرهم ، حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبه ؟ ، قال : لا ، أكره أن يتحدث العرب بينها ، أن محمدًا قاتل قومًا ، حتى إذا أظهره الله بهم ، اقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم أرمهم بالدبيلة ، قلنا : يا رسول الله ،

(١) ينظر : البداية والنهاية (٢٥/٥)

(٢) ينظر : المصدر نفسه (٢٥/٥)

وما الدبيلة ؟ ، قال : شهاب من نار ، يقع على نياط أحدهم ، فيهلك " [١] .

ويشهد لهذه القصة ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الطفيل ، قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله ، كم كان أصحاب العقبة ؟، قال له القوم : أخبره إذ سألك ، فقال : كنا نُخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم ، فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله إن اثني عشر منهم حرب لله ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ، ولا علمنا ما أراد القوم ، وقد كان في حرة ، فمشى ، فقال : إن الماء قليل ، فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قومًا قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ . ولهذا كان حذيفة يقال له : صاحب السر ، الذي لا يعلمه غيره ، من تعيين جماعة من المنافقين " [٢]

أسماء المتآمرين من المنافقين في محاولة اغتيال النبي ﷺ

ذكر ابن إسحاق في هذه القصّة : أن النبي ﷺ قال لحذيفة :"إن الله أخبَرَني بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وسأخبرك -إن شاء الله- غدًا عند وجه الصبح ، فانطلِقْ ؛ حتى إذا أصبحتُ فاجْمَعْهُم . فلما أصبح ، قال : ادعُ عبد اللهِ بن أُبي ، وسعدَ بن أبي سرح ، وأبا خاطر الأعرابي ، وعامرًا -أو أبا عامر- ، والجلّاس بن سويد بن الصامت ، وهو الذي قال : لا ننتهي حتى نرمي محمدًا من العقبة الليلة ، وإن كان محمد وأصحابه خيرًا منا ، إنّا إذنْ لَغَنَمٌ وهو الرّاعي ، ولاعقل لنا وهو العاقل .

وأمَرَهُ أن يدعوَ مَجْمَعَ بنِ حارثة ، ومُليحًا التّيمي ، وهو الذي سَرقَ طِيب الكعبة ، وارتدّ عن الإسلام ، وانطلق محاربًا في الأرض ، فلا يُدرى

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم (٥٠٦/٢) .

(٢) ينظر : صحيح مسلم (٢١٤٣/٤) ، حديث (٢٧٧٩) .

أين ذهب .

وأمره أن يدعوَ حِصْن بنِ نُمير الذي أغار على تمر الصدقة ، فسرقَه ، فقال له رسول الله ﷺ : (**ويحك ! ما حملك على هذا ؟**) قال : حملني على ذلك أنّي ظننتُ أنّ الله لا يُطلعك عليه ، فأما إذا أَطْلَعَك عليه ، وعَلِمْتَ فأنا أشهد اليوم أنك رسول الله ، وإنّي لم أؤمن بك قط قبل هذه الساعة . فأقال رسول الله ﷺ عثرتَه ، وعفا عنه .

وأمره أن يدعو طُعَيْمَةَ بنِ أُبَيْرِق ، وعبدَ الله بنِ عيينة ، وهو الذي قال لأصحابه : اسهروا هذه الليلة تسلمُوا الدهرَ كُلَّه ، فو الله ما لكم أمرٌ دون أن تقتلوا هذا الرجل . فدعاه ، فقال : (**ويحك ! ما كان ينفعُك قتلي لو أني قتلت ؟**) فقال عبد الله بن عيينة : فو الله يا رسول الله لا نزالُ بخير ما أعطاك الله النّصر على عدوك ، إنّما نحن بالله وبك . فتركه رسول الله ﷺ .

وقال : ادعُ مُرَّة ابن الربيع ، وهو الذي قال : نقتُل الواحدَ الفرد ، فيكون الناس عامَّةً بقتله مطمئنين . فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال : (**ويحك ! ما حملك على أن تقول الذي قلت ؟**) فقال : يا رسول الله ، إنْ كنتُ قلتُ شيئًا من ذلك إنّك لعالِمٌ به ، وما قلتُ شيئًا من ذلك .

فجمعهم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلًا ، الذين حاربوا الله ورسوله، وأرادوا قتْلَه ، فأخبرهم رسول الله بقولهم ، ومنطقِهم ، وسِرّهم ، وعلانيتهم . وأطْلَعَ اللهُ ﷻ نبيَّه على ذلك بعلمه . ومات الاثنا عشر منافقًا محاربين لله ورسوله ﷺ [1].

قال ابن القيم معلقًا على رواية ابن إسحاق هذه : وفي سياق ما ذكره

(١) ينظر : البداية والنهاية (٥/ ٢٦-٢٧)

ابن إسحاق وَهْمٌ من وجوه :

أحدها : أن النبي ﷺ أسرَّ إلى حذيفة أسماءَ أُولئك المنافقين ، ولم يُطْلِعْ عليهم أحدًا غيرَه . وبذلك كان يقال لحذيفة أنّه صاحب السّرّ الذي لا يعلمه غيره . ولم يكن عمرُ ﷺ ولا غيرُه يعلم أسماءهم . وكان إذا مات الرجل ، وشكُّوا فيه ، يقول عمر ﷺ : انظروا فإنْ صلّى عليه حذيفة ، وإلا فهو منافق منهم .

الثاني : ما ذكرناه من قوله : فيهم عبد الله بن أُبي . وهو وَهْمٌ ظاهر . وقد ذكر ابن إسحاق نفسه أن عبد الله بن أُبي تخلَّف عن غزوة تبوك .

الثالث : أنّ قوله وسعد بن أبي سرح ، وهْمٌ أيضًا ، وخطأٌ ظاهر . فإنّ سعد بن أبي سرح لم يُعرف له إسلامٌ ألْبَتّة . وإنما ابنه عبد الله بن سعد ، كان قد أسلم وهاجر ، ثم ارتدّ ، ولحق بمكة ، حتى استأمنَ له عثمان بن عفان ﷺ النبيَّ ﷺ عامَ الفتح ، فأمّنه ، وأسْلَمَ فحسُن إسلامه ، ولم يظهر منه بعد ذلك شيءٌ يُنكَر عليه ، ولم يكُن مع هؤلاء الاثني عشر ألْبَتَّةَ . فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش ؟!

الرابع : قوله : وكان أبو عامرٍ رأسَهم . وهذا وهم ظاهر ، لا يخفى على من دون ابن إسحاق ، بل هو نفسه ذكر قصة أبي عامر في قصّة الهجرة، وأنّ أبا عامر عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلًا ، فلما فتح النبي ﷺ مكة ، خرج إلى الطائف[1] ، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام ، فمات بها طريدًا ، وحيدًا ، غريبًا . فأين كان

(١) مدينة جنوب مكة على بعد (٣٦) ميل ، كانت مساكن قبيلة ثقيف ، ينظر: معجم البلدان (٨/٤)

الفاسق وغزوة تبوك ذهابًا وإيابًا ؟![١]

المطالبة بقتل المتآمرين :

كان هؤلاء الباطنيون المتآمرون قد نجحوا جزئيًا عندما شرعوا في مؤآمرة اغتيال الرسول ﷺ ، فتمكّنوا من أن يزعجوا ناقة الرسول ﷺ بأساليبهم الخاصة في الظلام حتى نفرت ، فسقط بسبب ذلك بعضُ متاع رحْل النبيّ ﷺ من على ظهر الناقة ، ولكنه هو لم يسقط ؛ لأن أمر هؤلاء الخونة اُكتُشِف قبل أن يتمكّنوا من تحقيق هدفهم الخبيث . ونجَّى اللهُ رسولَه ﷺ من المؤامرة .

قال الواقدي :"وكانوا قد أَنْفَرُوا بالنبي ﷺ فَسَقَط بعضُ متاعِ رَحْلِه . فكان حمزة بن عمرو الأسلمي يقول : فنوَّرَ لي أصابعي الخمس ، فأضَأنَ حتى كنا نجمع ما سقط من السوط ، والحبل ، وأشباههما ، حتى ما بقي من المتاع شيء إلا جمعناه . وكان لحق النبي ﷺ في العقبة"[٢] .

وقد بلغَ خبرُ المؤامرة سيّدَ الأوس أُسيدَ بنَ حُضَير ﷺ فعرض على النبي ﷺ أن يأمر بقتل المتآمرين ، على أن تتولّى كلُّ عشيرة من الأنصار قتْلَ الرجل المشترك منها في المؤامرة ، ولكن رسول الله ﷺ آثر الصفح ، ولم يأخذ باقتراح أُسيد بن حضيرﷺ .

قال الواقدي :"فلما أصبحَ رسولُ الله ﷺ قال له أُسيد بن حضير : يا رسول الله ، ما منعك البارحةَ من سلوك الوادي فهو أسهل من العقبة ؟ قال : **(يا أبا يحيى ، أتدري ما أراد البارحةَ المنافقون ، وما اهتمّوا به ؟ قالوا : نَتْبَعُه في العَقَبة ، فإذا أظلم الليل عليه ، قطعوا أنساع راحلتي ، ونخسوها حتى**

---

(١) ينظر : زاد المعاد (٩/٤)

(٢) ينظر : المغازي (١٠٤٣/٣)

يطرحوني من راحلتي) فقال أُسيد : يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا ، فمُرْ كلَّ بطنٍ أن يقتُل الرجل الذي همَّ بهذا ، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله ، وإن أحببتَ -والذي بعثك بالحقّ- فنبِّئْني بهم ، فلا تبرحْ حتى آتيك برؤوسهم . وإنْ كانوا من النبيت[١] كفيتُكَهُم ، وأمرتُ سيد الخزرج فكفاك من في ناحيته ، فإنّ مثل هؤلاء لا يُتركون يا رسول الله ؟ حتى متى نداهنهم ، وقد صاروا اليوم في القِلّة والذلة ، وقد ضربَ الإسلام بِجُرّانه[٢] ، فما يُستبقَى من هؤلاء ؟ قال رسول الله ﷺ لأُسيد : (**إنّي أكره أن يقول الناسُ : إنّ محمدًا لما انقضت الحربُ بينه وبين المشركين وضع يدَه في قتل أصحابه**) فقال : يا رسول الله ، فهؤلاء ليسوا بأصحابٍ. قال رسول الله ﷺ : (**أليس يُظهِرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟**) قال : بلى ، ولا شهادةَ لهم . قال : (**أليس يُظهِرون أني رسول الله ؟**) قال : بلى ، ولا شهادةَ لهم . قال : (**قد نُهيت عن قتل أُولئك**) "[٣] .

قال الواقدي :"نزل رسول الله ﷺ عن راحلته ، فأُوحِيَ إليه وراحلته باركة ، فقامت راحلته تجرُّ زِمَامَها ، حتى لقيَها حذيفةُ بنُ اليمان ﷺ فأخذَ بزمامها فاقتادها حين رأى رسول الله ﷺ جالسًا ، فأناخها ، ثم جلس عندها ،

---

(١) النَّبِيتُ ، هو : عمرو بن مالك بن الأوس . ينظر : أنساب الأشراف ، البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م) ، (٢٨٧/١) .

(٢) الجُرّان : باطن العُنق . وقيل : مُقدَّم العُنق مِن مذْبح البعير إلى نحره ، فإذا برك البعير مدّ عُنقَه على الأرض قيل : ألقى جُرّانه بالأرض . والمعنى هنا : أن الإسلام استقرّ ، وقرّ قرارُه ، كما إن البعير إذا برك واستراح مدّ جُرّانه على الأرض ؛ أي : عُنُقَهُ . ينظر : لسان العرب (٨٦/١٣)

(٣) ينظر : المغازي (١٠٤٣/٣ـ ١٠٤٤)

حتى قام رسول الله ﷺ فأتاه ، فقال : (**من هذا ؟**) قال : أنا حذيفة . فقال النبي ﷺ : (**فإني مُسرٌّ إليك أمرًا فلا تذكرنَّه ؛ إنّي نُهيتُ أن أُصلّي على فلانٍ ، وفلانٍ ، وفلانٍ**) رهْط عدة من المنافقين ، ولم يُعْلِمْ رسولُ الله ﷺ أحدًا غيرَ حذيفة . فلما تُوفي رسول الله ﷺ كان عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته إذا ماتَ رجل يظن أنه من أُولئك الرهط ، أخذ بيد حذيفةَ فقادَه إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفةُ صلى معه عمر ، وإن انتزعَ يده وأبى أن يمشي انصرف معه ... فلم يُخبر رسولُ الله ﷺ أحدًا إلا حذيفةَ . وهم اثنا عشر رجلًا. ويعني أُولئك المنافقين ، ليس فيهم قُرشِيٌّ . وهذا أمرٌ مُجْمَعٌ عليه"[1].

(١) ينظر : المغازي (٣/١٠٤٥)

الخاتمــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وبعد :

فهذه أهم نتائج مباحث أساليب المنافقين في محاربة المسلمين في القرآن التي توصلت إليها من خلال هذه الرسالة :

- تاريخ ظهور النفاق كان بالمدينة المنورة ، بعد انتصار المسلمين في معركة بدر ، ولم يكن للمنافقين وجود في العهد المكي . وكان اليهودُ وراء وجودِهم بالمدينة، والهدف العام للمنافقين هو : اتّخاذ النفاق وسيلةً لحرب الإسلام والمسلمين ، بشتى الوسائل الخبيثة .
- لم يعرف العرب مصطلح النفاق إلا بعد مجيء الإسلام . فالنفاق مصطلح إسلامي . والنفاق قسمان : نفاقٌ أصغر ، ونفاق أكبر . والنفاقُ الأكبر خللٌ في الاعتقاد ، وناقضٌ من نواقض الإسلام ، وصاحبُه مخلّد في النار ، وهو أشنعُ وأخطَر من الكفر الصريح .
- أهم أساليب سياسة المنافقين في عهد النبوة ، كانت : مناصرة اليهود . فمن أراد أن يقتفيَ أثرَ إفساد المنافقين خلال عهد الرسالة وبعده (وإلى يومنا هذا) فعليه أن يبحث عن ذلك في مظانّ الحديث عن اليهود ، فأينما وُجِد اليهود وُجِد المنافقون . وقد دافع المنافقون عن يهود بني قينقاع دفاعاً مستميتاً عندما نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، ولقد ناصر المنافقون يهود بني النضير وتآمروا مع اليهود في غزوة تبوك ، باتخاذ بيت سويلم اليهودي وكْراً للتجسس على الجيش الإسلامي . وكان

هدف الفريقين نشر الأراجيف وتثبيط المسلمين .

- من أساليب المنافقين الرئيسة : التحاكم إلى الطواغيت ، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ ، والالتفات إلى غيره . وقد وضّحنا : أنّ من لم يكفر بالطواغيت فلن تنفعُه كلمة "لا إله إلا الله " ؛ بل لا يصح الإسلام إلا بالبراءةِ من هؤلاء الطواغيت المعبودين من دون الله ، وتكفيرِهم ، وقتالِهم . واتّضح أيضاً : أن تحقيق شروط "لا إله إلا الله" هو : تحقيق الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله تعالى .
- من يُحَكِّم القوانين الوضعية بدلاً من شرع الله ، فهو كافر . ومن الكُفر الأكبر المستبين : تنزيل القوانين الوضعية منزلةَ ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذِرين بلسان عربي مبين ، في الحكم بين العالمين ، والرَّدِّ إليه عند تنازع المتنازعين . وأن تحكيم غيره سبيلُ المنافقين
- أكّدْتُ من خلال الدراسة على عقيدة (الولاء والبراء) أو (الموالاة والمعاداة) وبيّنْتُ أنّ ولاء الكفار والمنافقين من نواقض "لا إله إلا الله" ؛ لأنّ الولاءَ عقيدةٌ وعبادةٌ يَتعبّدُ بها المسلم لربه تعالى . فهي من مقتضيات "لا إله إلا الله" ، فـ"لا إله إلا الله" تقتضي أن نوالي أنصارَها ومعتنقيها ، و"لا إله إلا الله" تقتضي البراءة ، ومعاداة من يعادي هذه الكلمة ، ومحاربة من يحاربها ، ومن لم يدِنْ بها . فهذه هي عقيدتنا ، وهذا هو ديننا . فيجب غرْسُ عقيدة (الولاء والبراء) في المسلمين، وفي النشء على وجه الخصوص .
- أهمّيةَ الجهاد في سبيل الله ، فوائدُه العظمية ؛ عندما تُرفع رايته في سبيل الله .

- العواقب الوخيمة التي تنتظر الأمة والأفراد في الدنيا والآخرة ؛ إنْ عُطِّلَتْ فريضةُ الجهاد . فلا بد أن نُربي أبناءَنا والأمّة على حب الجهاد ، والشهادة في سبيل الله ؛ لأن هذا هو الطريق لمرضاة الله وطاعة رسوله ﷺ ، ونَيْلِ عزّة الأمة وكرامتِها .
- بيّنت سور التوبة والأحزاب والمنافقون مخططات ومؤامراتٌ المنافقين ضد النبي ﷺ ، والجيش الخارج إلى الجهاد . وقام المنافقون بحملة دعائيةٍ عند إعلان النفير ، فمضَوا يثبّطون الناس عن الجهاد .
- حفلت سورة التوبة بأخبار النفاق وسلوك المنافقين في غزوة تبوك ، فسُمّيت هذه السورة بالفاضحة ؛ لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة ، وأحقادهم الدفينة ، ونفوسهم الخبيثة . وسميت أيضاً بالمبعثرة ؛ لأنها بعْثَرت أسرارَهم . لقد حفلت سورة التوبة بأخبار النفاق وسلوك المنافقين ؛ لِتُرسِّخ في أفهام المسلمين أهمّية تفقُّدهم لصفوفهم ، واختيار بطانتهم ؛ حاملين قبَس القرآن ، وقبَس السيرة النبوية المطهرة ؛ لكشف ماهيّة وسجيّة المنافقين ؛ حتى نكونَ منهم على حَذَرٍ . وكذلك سميت بالبحوث ؛ لأنها بحثت المنافقين .
- من أهمّ المواقف المُظلمة للمنافقين قبلَ غزوة تبوك ، وأثناءَها ، وبعدها : تحالُفهم مع اليهود ؛ لتثبيط المسلمين عن الجهاد . فتخلّف بعض المنافقين عن الغزوة ، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ واهيةٍ . واستخدم المنافقون في هذه الغزوة أسلوبَ السخرية والاستهزاء ، وإيذاء النبي ﷺ بشتى الوسائل . فَسَخِروا من الجيش الإسلامي ، ومن المتصدّقين على هذا الجيش ، وشكّكوا الناس بصدق النبي ﷺ . ووصل بهم الأمر إلى التخطيط لاغتيال النبي ﷺ .